

الأعمال الجديدة

محمود درويش



الأعمال الجديدة

محمـود درويـش

الأعمـال الجديـدة



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

THE LATEST WORKS

By Mahmoud Darwich

First Published in January 2004

BEIRUT- LEBANON
ınfo@elrayyesbooks.com . www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21158 9

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤

المحتويات

لا تعتذر عما فعلت	٩
حالة حصار	١٧٣
لماذا تركت الحصان وحيداً	٢٦٩
جداريّة	٤٣٧
سرير الغريبة	٥٤١

محمـود درويـش

لا تعتـذر عما فعلـت



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤
الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٤

القصائد

I ـ في شهوة الإيقاع ١٧
1 ـ يختارني الإيقاع ١٩
2 ـ لي حكمة المحكوم بالإعدام ٢١
3 ـ سيجيء يوم آخر ٢٣
4 ـ وأنا، وإن كنت الأخير ٢٥
5 ـ في بيت أمي ٢٧
6 ـ لا تعتذر عما فعلت ٢٩
7 ـ في مثل هذا اليوم ٣١
8 ـ أنزل هنا والآن ٣٣
9 ـ إن عدت وحدك ٣٥
10 ـ لم أَعتذر للبئر ٣٧
11 ـ لا راية في الريح ٣٩
12 ـ سقط الحصان عن القصيدة ٤١
13 ـ لبلادنا ٤٣
14 ـ ولنا بلاد ٤٥
15 ـ لا شيء إلاّ الضوء ٤٧

16 ـ نزف الحبيب شقائق النعمان	٤٩
17 ـ في القدس	٥١
18 ـ بغيابها كوّنت صورتها	٥٣
19 ـ الأربعاء، الجمعة، السبت	٥٥
20 ـ زيتونتان	٥٧
21 ـ لا ينظرون وراءهم	٦١
22 ـ لم يسألوا: ماذا وراء الموت	٦٣
23 ـ قتلى ومجهولون	٦٥
24 ـ السروة انكسرت	٦٧
25 ـ رجل وخشف في الحديقة	٦٩
26 ـ هذا هو النسيان	٧٣
27 ـ تُنسى، كأنك لم تكن	٧٥
28 ـ أما أنا، فأقول لاسمي	٧٩
29 ـ الحلم، ما هو؟	٨٣
30 ـ الآن إذ تصحو، تذكَّر	٨٥
31 ـ الظلّ	٨٧
32 ـ لا شيء يعجبني	٨٩
33 ـ هو هادئ وأنا كذلك	٩١
34 ـ وصف الغيوم	٩٣
35 ـ هي جملة اسمية	٩٧
36 ـ قل ما تشاء	٩٩
37 ـ لا تكتب التاريخ شعراً	١٠١
38 ـ ماذا سيبقى	١٠٥
39 ـ لا أعرف اسمك	١٠٧
40 ـ هي في المساء	١٠٩
41 ـ في الانتظار	١١٣

42 ـ لو كنتُ غيري ١١٥
43 ـ شكراً لتونس ١١٧
44 ـ لي مقعد في المسرح المهجور ١١٩
45 ـ في الشام ١٢١
46 ـ في مصر ١٢٣
47 ـ أتذكر السَّياب ١٢٥

II ـ طريق الساحل ١٢٧
III ـ لا كما يفعل السائح الأجنبي ١٣٥
IV ـ بيت من الشعر/ بيت الجنوبي ١٤٣
V ـ كحادثة غامضة ١٥٣
VI ـ ليس للكردي إلاّ الريح ١٦١

توارد خواطر، أو توارد مصائر:

لا أَنتِ أَنتِ
ولا الديارُ ديارُ

[أبو تمام]

والآن، لا أَنا أَنا
ولا البيتُ بيتي

[لوركا]

I

في شهوة الإيقاع

1

يختارني الإيقاع

يَخْتَارُني الإيقاعُ، يَشْرَقُ بي
أنا رَجْعُ الكمان، ولستُ عازِفَهُ
أنا في حضرة الذكرى
صدى الأشياء تنطقُ بي
فأنطقُ ...
كُلَّما أصغيتُ للحجرِ استمعتُ إلى
هديلِ يَمَامَةٍ بيضاءَ
تشهَق بي:
أَخي! أنا أُخْتُكَ الصُّغْرى،
فأَذرف باسمها دَمْعَ الكلامِ
وكُلَّما أَبْصَرْتُ جذْعَ الزَّنْزَلَخْتِ
على الطريق إلى الغمامِ،

سمعتُ قلبَ الأمِّ
يخفقُ بي:
أَنا آمرأة مُطَلَّقَةٌ،
فألعن باسمها زِيزَ الظلامِ
وكُلَّما شاهَدْتُ مرآةً على قمرٍ
رأيتُ الحبّ شيطاناً
يُحَمْلِقُ بي:
أنا ما زِلْتُ موجوداً
ولكن لن تعود كما تركتُكَ
لن تعود، ولن أَعودَ
فيكملُ الإيقاعُ دَوْرَتَهُ
ويَشْرَقُ بي ...

2

لي حكمة المحكوم بالإعدام

لِيَ حِكْمَةُ المحكوم بالإعدامِ:
لا أشياءَ أملكُها لتملكني،
كتبتُ وصيَّتي بدمي:
«ثِقُوا بالماء يا سُكَّانَ أُغنيتي!»
وَنِمْتُ مُضَرّجاً ومُتَوَّجاً بغدي ...
حَلِمْتُ بأَنَّ قلب الأرض أكبرُ
من خريطتها،
وأَوضحُ من مراياها وَمِشْنَقَتي.
وَهِمْتُ بغيمةٍ بيضاءَ تأخذني
إلى أَعلى
كأنني هُدْهُدٌ، والريحُ أَجنحتي.
وعند الفجر، أَيقظني

نداءُ الحارس الليليِّ
من حُلْمي ومن لغتي:
ستحيا مِيتَةً أخرى،
فَعَدِّلْ في وصيَّتك الأخيرةِ،
قد تأجَّل موعدُ الإعدام ثانيةً
سألت: إلى متى؟
قال: انتظر لتموت أكثَرَ
قُلْتُ: لا أشياء أملكها لتملكني
كتبتُ وصيَّتي بدمي:
«ثِقُوا بالماء
يا سُكَّان أغنيتي!»

3

سيجيء يوم آخر

سيجيءُ يَوْمٌ آخَرٌ، يومٌ نسائيٌّ
شفيفُ الاستعارةِ، كاملُ التكوين،
ماسيٌّ زَفَافيٌّ الزيارةِ، مُشْمِسٌ،
سَلِسٌ، خَفيفُ الظلِّ. لا أحدٌ يُحِسُّ
برغبةٍ في الانتحار أَو الرحيل. فكُلّ
شيء، خارج الماضي، طبيعيٌّ حقيقيٌّ،
رديفُ صفاته الأولى. كأنَّ الوقتَ
يرقد في إجازته... «أَطيلي وقت زينتك
الجميلَ. تشمَّسي في شمس نَهْدَيْكِ الحَرِيرِيَّيْن،
وانتظري البشارةَ ريثما تأتي. وفي ما
بعد نكبرُ. عندنا وقتٌ إضافيٌّ
لنكبر بعد هذا اليوم...»/

سوف يجيء يومٌ آخَرٌ، يومٌ نسائيٌّ
غنائيُّ الإشارة، لازورديُّ التحيةِ
والعبارة. كُلُّ شيء أُنثويٌّ خارج
الماضي. يَسيلُ الماءُ من ضرع الحجارةِ.
لا غُبَارَ، ولا جَفَافَ، ولا خسارةَ.
والحمامُ ينامُ بعد الظهر في دبّابة
مهجورةٍ إن لم يجد عُشّاً صغيراً
في سرير العاشِقَيْن ...

4

وأنا، وإن كنت الأخير

وأنا، وإن كُنْتُ الأَخيرَ،
وَجَدْتُ ما يكفي من الكلماتِ ...
كُلُّ قصيدةٍ رَسْمٌ
سأرسم للسنونو الآن خارطةَ الربيعِ
وللمُشَاة على الرصيف الزيزفونَ
وللنساءِ اللازوردْ ...
وأَنا، سيحمِلُني الطريقُ
وسوف أَحملُهُ على كتفي
إلى أَنْ يستعيدَ الشيءُ صورتَهُ،
كما هِيَ،
واسمَهُ الأَصليَّ في ما بعد/

كُلُّ قصيدة أُمٌّ
تفتِّشُ للسحابة عن أَخيها
قرب بئر الماءِ:
«يا وَلَدي! سأُعطيك البديلَ
فإنني حُبْلى ...»/
وكُلُّ قصيدة حُلْمٌ:
«حَلِمْتُ بأنَّ لي حلماً»
سيحملني وأحملُهُ
إلى أن أكتب السَّطْرَ الأخيرَ
على رخام القبرِ:
«نِمْتُ ... لكي أَطير»

... وسوف أَحمل للمسيح حذاءَهُ الشتويَّ
كي يمشي، كَكُلِّ الناس،
من أَعلى الجبال ... إلى البحيرةْ

5

في بيت أمّي

في بيت أُمِّي صُورَتي ترنو إليّ
ولا تكفُّ عن السؤالِ:
أأَنت، يا ضَيْفي، أَنا؟
هل كنتَ في العشرينَ من عُمْري،
بلا نظَّارةٍ طبيّةٍ،
وبلا حقائبَ؟
كان ثُقْبٌ في جدار السور يكفي
كي تعلِّمك النجومُ هوايةَ التحديقِ
في الأبديِّ ...
[ما الأبديُّ؟ قُلْتُ مخاطباً نفسي]
ويا ضيفي ... أأنتَ أنا كما كنا؟
فَمَنْ منّا تنصَّلَ من ملامحِهِ؟

أَتذكُرُ حافرَ الفَرَس الحرونِ على جبينكَ
أَم مَسَحْتَ الجُرْحَ بالمكياج كي تبدو
وسيمَ الشكل في الكاميرا؟
أأنتَ أنا؟ أتذكُرُ قلبَكَ المثقوبَ
بالناي القديم وريشة العنقاءِ؟
أَم غيَّرْتَ قَلْبَكَ عندما غيَّرتَ دَرْبَكَ؟

قلت: يا هذا، أنا هُوَ أنت
لكنني قفزتُ عن الجدار لكي أرى
ماذا سيحدث لو رآني الغيبُ أَقطِفُ
من حدائقِهِ المُعَلَّقةِ البنفسجَ باحترامٍ ...
رُبَّما أَلقى السلام، وقال لي:
عُدْ سالماً ...
وقفزت عن هذا الجدار لكي أرى
ما لا يُرى
وأَقيسَ عُمْقَ الهاويةْ

6

لا تعتذر عمَّا فعلت

لا تعتذرْ عمَّا فَعَلْتَ ـ أَقول في
سرّي. أقول لآخَري الشخصيِّ:
ها هِيَ ذكرياتُكَ كُلُّها مرئِيّةٌ:
ضَجَرُ الظهيرة في نُعَاس القطِّ/
عُرْفُ الديكِ/
عطرُ المريميَّةِ/
قهوةُ الأُمِّ/
الحصيرةُ والوسائدُ/
بابُ غُرْفَتِكَ الحديديُّ/
الذبابةُ حول سقراطَ/
السحابةُ فوق أفلاطونَ/
ديوانُ الحماسةِ/

صورةُ الأبِ/
مُعْجَمُ البلدانِ/
شيكسبير/
الأشقّاءُ الثلاثةُ، والشقيقاتُ الثلاثُ،
وأَصدقاؤك في الطفولة، والفضوليُّون:
«هل هذا هُوَ؟» اختلف الشهودُ:
لعلَّه، وكأنه. فسألتُ: «مَنْ هُوَ؟»
لم يُجيبوني. هَمَسْتُ لآخري: «أَهو
الذي قد كان أنتَ ... أنا؟» فغضَّ
الطرف. والتفتوا إلى أُمِّي لتشهد
أَنني هُوَ ... فاستعدَّتْ للغناء على
طريقتها: أنا الأمُّ التي ولدتْهُ،
لكنَّ الرياحَ هِيَ التي رَبَّتْهُ.
قلتُ لآخري: لا تعتذر إلاّ لأمِّكْ!

7

في مثل هذا اليوم

في مثل هذا اليوم، في الطَّرَف الخفيِّ
من الكنيسةِ، في بهاءٍ كاملِ التأنيث،
في السنة الكبيسة، في التقاء الأخضر
الأبديّ بالكُحْليّ في هذا الصباح، وفي
التقاء الشكل بالمضمون، والحسيّ بالصُّوفيّ،
تحت عريشةٍ فَضْفَاضَةٍ في ظلّ دوريٍّ
يوتِّرُ صورةَ المعنى، وفي هذا المكان
العاطفيّ/
سألتقي بنهايتي وبدايتي
وأَقول: ويحكما! خذاني وآتركا
قلبَ الحقيقة طازَجاً لبنات آوى الجائعاتِ،
أَقول: لَسْتُ مواطناً

أو لاجئاً
وأُريد شيئاً واحداً، لا غير،
شيئاً واحداً:
موتاً بسيطاً هادئاً
في مثل هذا اليوم،
في الطرف الخفيِّ من الزَّنَابقِ،
قد يُعَوِّضُني كثيراً أو قليلا
عن حياةٍ كنت أُحْصيها
دقائقَ
أو رحيلا
وأُريد موتاً في الحديقةِ
ليس أكثَرَ أو أَقَلّ!

8

أنـزلْ، هنا، والآن

أَنزلْ، هنا، والآن، عن كَتِفَيْكَ قَبْرَكَ
وأعطِ عُمْرَكَ فُرْصَةً أخرى لترميم الحكايةِ
ليس كُلُّ الحُبِّ موتاً
ليستِ الأرضُ اغتراباً مزمناً،
فلربما جاءت مناسبةٌ، فتنسى
لَسْعَةَ العَسَل القديم، كأنْ تحبَّ
وأَنتَ لا تدري فتاةً لا تحبّكَ
أو تحبُّكَ، دون أن تدري لماذا
لا تحبُّكَ أو تحبُّكَ/
أو تحسَّ وأنت مُسْتَنِدٌ إلى دَرَجٍ
بأنك كنتَ غيرك في الثنائياتِ/
فاخرج من «أنا» كَ إلى سواكَ

ومن رُؤَاكَ إلى خُطَاكَ
ومُدَّ جسرَكَ عالياً،
فاللامكانُ هُوَ المكيدةُ،
والبَعُوضُ على السياج يَحُكُّ ظَهْرَكَ،
قد تذكِّرُكَ البَعُوضةُ بالحياةِ!
فجرِّبِ الآن الحياةَ لكي تُدَرِّبكَ الحياةُ
على الحياةِ،
وخفِّف الذكرى عن الأُنثى
وأَنْزِلْ
ها هنا
والآن
عن كتفيكَ ... قَبْرَكْ!

9

إن عدت وحدك

إن عُدْتَ وَحْدَكَ، قُلْ لنفسك:
غيَّر المنفى ملامحه ...
ألم يفجعْ أَبو تمَّام قَبْلَكَ
حين قابل نفسَهُ:
«لا أَنتِ أنتِ
ولا الديارُ هِيَ الديارُ»...

ستحمل الأشياءُ عنك شعورَكَ الوطنيَّ:
تنبتُ زهرةٌ بريّةٌ في ركنك المهجورِ/
ينقُرُ طائرُ الدوريّ حَرْفَ «الحاء»،
في اسمكَ،
في لحاء التِّينَةِ المكسورِ/

تلسَعُ نَحْلَةٌ يَدَكَ التي امتدَّتْ
إلى زَغَبِ الإِوزَّةِ خلف هذا السورِ/

أَمَّا أَنت،
فالمرآةُ قد خَذَلَتْكَ،
أنْتَ ... ولَسْتَ أنتَ، تقولُ:
«أَين تركت وجهي؟»
ثم تبحثُ عن شعورك، خارج الأشياءِ،
بين سعادةٍ تبكي وإحْبَاطٍ يُقَهْقِهُ ...
هل وجدت الآن نفسك؟
قل لنفسك: عُدْتُ وحدي ناقصاً
قَمَرَيْنِ،
لكنَّ الديارَ هي الديار!

10

لم أعتذر للبئر

لم أَعتَذِرْ للبئر حين مَرَرْتُ بالبئرِ،
استَعَرْتُ من الصَّنَوْبَرة العتيقةِ غيمةً
وعَصَرْتُها كالبرتقالةِ، وانتظرتُ غزالة
بيضاءَ أسطوريَّةً. وأَمَرْتُ قلبي بالتريّث:
كُنْ حيادياً كأنَّكَ لَسْتَ مني! ها هنا
وقف الرُّعاةُ الطيِّبون على الهواء وطوَّروا
الناياتِ، ثم استدرجوا حَجَلَ الجبال إلى
الفخاخ. وها هنا أَسْرَجْتُ للطيران نحو
كواكبي فَرَساً، وطرتُ. وها هنا قالت
لي العرَّافةُ: احذرْ شارع الإسفلت
والعرباتِ وآمشِ على زفيرك. ها هنا
أرخيتُ ظلِّي وانتظرتُ، آخْتَرْتُ أَصغرَ

صخرةٍ وَسَهِرْتُ. كَسَّرْتُ الخرافة وانكسرتُ.
ودُرْتُ حول البئر حتى طِرْتُ من نفسي
إلى ما ليس منها. صاح بي صوتٌ
عميقٌ: ليس هذا القبرُ قَبركَ، فاعتذرت.
قرأت آيات من الذكر الحكيم، وقُلْتُ
للمجهول في البئر: السلام عليك يوم
قُتِلْتَ في أَرض السلام، ويَوْمَ تصعَدُ
من ظلام البئر حيّا!

11

لا راية في الريح

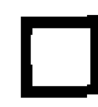
لا رايةٌ في الريح تخفقُ/
لا حصانٌ سابحٌ في الريحِ/
لا طَبْلٌ يُبَشِّرُ بارتفاع الموجِ
أو بهبوطهِ،
لا شيءَ يحدثُ في التراجيديَّات هذا اليومَ/
أُسْدِلَتِ الستارَةُ/
غادَرَ الشعراءُ والمتفرِّجونَ،
فلا أَرزٌّ/
لا مظاهرةٌ/
ولا أَغصانُ زيتونٍ تُحَيِّي الهابطينَ
من المراكب مُتْعَبينَ من الرُّعافِ
وخفَّة الفصل الأخير/

كأَنَّهُمْ يأتون من قَدَرٍ إلى قَدَرٍ/
مصائرُهُمْ مُدَوَّنةٌ وراء النصِّ،
إغريقيَّةٌ في شكل طُرْواديَّةٍ،
بيضاءَ، أو سوداءَ/
لا انكسروا ولا انتصروا
ولم يتساءلوا: ماذا سيحدُثُ في صباح غدٍ
وماذا بعد هذا الانتظار الهوميريّ؟/
كأنه حُلْمٌ جميلٌ يُنْصف الأسرى
ويُسْعِفُهُمْ على الليل المحليِّ الطويل،
كأنهم قالوا:
« نُداوي جرحنا بالملحِ
« نحيا قرب ذكرانا
« نجرِّبُ موتنا العاديَّ
« ننتظر القيامةَ، ههنا، في دارها
في الفصل ما بعد الأخير...»

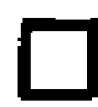
12

سقط الحصان عن القصيدة

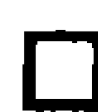
سَقَطَ الحصانُ عن القصيدةِ
والجليليّاتُ كُنَّ مُبَلَّلاتٍ
بالفَراشِ وبالندى،
يَرْقُصْنَ فوق الأقحوانْ



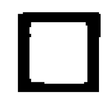
الغائبان: أنا وأنتِ
أَنا وأنتِ الغائبانْ



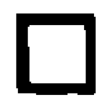
زوجا يمام أَبيضانْ
يَتَسَامران على غُصون السنديانْ



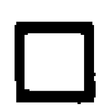
لا حُبَّ، لكني أُحبُّ قصائدَ
الحبّ القديمةَ، تحرسُ
القَمَرَ المريضَ من الدخانْ



كرٍّ وفرٍّ، كالكَمَنْجَةِ في الرباعيّاتِ
أَنْأَى عن زماني حين أَدنو
من تضاريس المكانْ ...



لم يَبْقَ في اللغة الحديثةِ هامشٌ
للاحتفاء بما نحبُّ،
فكُلُّ ما سيكونُ ... كانْ



سقط الحصان مُضَرَّجاً
بقصيدتي
وأنا سقطتُ مُضَرَّجاً
بدَمِ الحصانْ ...

13

لبلادنا

لبلادنا،
وَهِيَ القريبةُ من كلام اللّهِ،
سَقْفٌ من سحابْ
لبلادنا،
وهي البعيدةُ عن صفاتِ الاسمِ،
خارطةُ الغيابْ
لبلادنا،
وهي الصغيرة مثل حبّة سُمْسُمٍ،
أُفُقٌ سماويٌّ ... وهاويةٌ خفيَّةْ
لبلادنا،
وهي الفقيرةُ مثل أَجنحة القَطَا،
كُتُبٌ مُقَدَّسَةٌ ... وجرحٌ في الهويّةْ

لبلادنا،
وهي المطوَّقَةُ الممزَّقةُ التلال،
كمائنُ الماضي الجديد

لبلادنا، وهي السَّبِيّةْ
حُريَّةُ الموت اشتياقاً واحتراقا

وبلادُنا، في ليلها الدمويِّ
جَوْهَرَةٌ تشعُّ على البعيد على البعيد
تُضيء خارجَها ...
وأمَّا نحن، داخلها،
فنزدادُ اختناقا!

14

ولنا بلاد

ولنا بلادٌ لا حُدُودَ لها، كفكرتنا عن
المجهول، ضيِّقَةٌ وواسِعَةٌ. بلادٌ ...
حين نمشي في خريطتها تضيقُ بنا،
وتأخذنا إلى نَفَقٍ رماديّ، فنصرخ
في متاهتها: وما زلنا نحبُّك. حُبُّنا
مَرَضٌ وراثيٌّ. بلادٌ ... حين
تنبذُنا إلى المجهول ... تكبرُ. يكبرُ
الصفصافُ والأوصافُ. يكبرُ عُشْبُها
وجبالُها الزرقاءُ. تتّسعُ البحيرةُ في
شمالِ الروحِ. ترتفعُ السنابلُ في جنوب
الروح. تلمعُ حبّةُ الليمون قنديلاً
على ليل المُهاجِرِ. تسطعُ الجغرافيا

كُتُباً مُقَدَّسَةً. وسلسلةُ التلال
تصير معراجاً، إلى الأَعلى ... إلى الأعلى.
«لو أنّيَ طائرٌ لحرقتُ أَجنحتي» يقول
لنفسه المنفيُّ. رائحةُ الخريف تصيرُ
صورةَ ما أحبُّ... تسرَّبَ المطرُ
الخفيفُ إلى جفاف القلب، فانفتح الخيالُ
على مصادِرِهِ، وصار هو المكانَ، هو
الحقيقيَّ الوحيدَ. وكُلُّ شيء في
البعيد يعود ريفيّاً بدائيّاً، كأنَّ الأرضَ
ما زالت تكوِّن نفسها للقاء آدَمَ، نازلاً
للطابق الأرضيِّ من فردوسه. فأقول:
تلك بلادنا حُبْلى بنا ... فمتى وُلِدْنا؟
هل تزوَّج آدمُ آمرأتين؟ أَم أَنَّا
سَنُولَدُ مرةً أخرى
لكي ننسى الخطيئةْ؟

15

لا شيء إلاَّ الضوء

لا شيءَ إلاَّ الضوء،
لم أوقفْ حصاني
إلاَّ لأقطف وردةً حمراءَ من
بُسْتَان كَنْعَانيَّةٍ أَغْوَتْ حصاني
وتحصَّنَتْ في الضوءِ:
«لا تدخُلْ ولا تخرجْ» ...
فلم أَدخلْ، ولم أَخرجْ
وقالت: هل تراني؟
فهمستُ: ينقصني، لأعرف، فارقٌ
بين المسافر والطريق، وفارقٌ
بين المغنِّي والأغاني ...
جَلَسَتْ أَريحا، مثل حرف

من حروف الأبجدية، في آسمها
وَكَبوْتُ في آسمي
عند مُفْتَرَقِ المعاني ...
أَنا ما أكونُ غداً
ولم أُوقفْ حصاني
إلاَّ لأقطِفَ وردةً حمراءَ من
بستان كَنْعَانيّةٍ أَغوثْ حصاني
ومضيتُ أبحث عن مكاني
أَعلى وأَبْعَدَ،
ثم أَعلى ثم أَبعَدَ،
من زماني ...

16

نزَف الحبيبُ شقائق النعمان

نَزَفَ الحبيبُ شقائقَ النُّعْمانِ،
أَرضُ الأرجوان تلألأتْ بجروحِهِ،
أُولى أَغانيها: دَمُ الحُبِّ الذي سفكته آلهةٌ،
وآخرُها دَمٌ ...
يا شعبَ كَنْعَانَ احتفلْ
بربيع أَرضك، واشتعلْ
كزهورها، يا شعب كنعان المُجَرَّدَ من
سلاحك، واكتملْ!
من حُسْن حَظِّكَ أَنَّكَ اخترتَ الزراعةَ مِهْنَةً
من سوء حظك أَنَّكَ اخترتَ البساتينَ
القريبةَ من حدود الله،
حيث السيفُ يكتب سِيرَةَ الصَّلْصَالِ...

فلتَكُنِ السنابلُ جَيْشَكَ الأَبديَّ،
وليكنِ الخلودُ كلابَ صيدٍ
في حقول القمح،
ولتكن الأيائِلُ حُرَّةً
كقصيدةٍ رعويةٍ ...

نَزَفَ الحبيبُ شقائقَ النعمان،
فاصفرَّتْ صخورُ السَّفْحِ من
وَجَع المخاض الصعبِ،
واحمرَّتْ،
وسال الماءُ أَحمرَ
في عروق ربيعنا ...
أُولى أغانينا دَمُ الحُبِّ الذي
سفكته آلهةٌ،
وآخرُها دَمٌ سَفَكَتْهُ آلهةُ الحديد...

17

في القدس

في القدس، أَعني داخلَ السُّور القديمِ،
أَسيرُ من زَمَنٍ إلى زَمَنٍ بلا ذكرى
تُصوِّبُني. فإن الأنبياءَ هناك يقتسمون
تاريخَ المقدَّسِ ... يصعدون إلى السماء
ويرجعون أَقَلَّ إحباطاً وحزناً، فالمحبَّةُ
والسلامُ مُقَدَّسَان وقادمان إلى المدينة.
كنت أَمشي فوق مُنْحَدَرٍ وأَهْجِسُ: كيف
يختلف الرُّواةُ على كلام الضوء في حَجَرٍ؟
أَمِنْ حَجَرٍ شحيحِ الضوء تندلعُ الحروبُ؟
أسير في نومي. أَحملق في منامي. لا
أرى أحداً ورائي. لا أرى أَحداً أمامي.
كُلُّ هذا الضوءِ لي. أَمشي. أخفُّ. أطيرُ

ثم أَصير غيري في التَّجَلِّي. تنبُتُ
الكلماتُ كالأعشاب من فم أشعيا
النَّبَويِّ: «إنْ لم تُؤْمنوا لن تَأْمَنُوا».
أَمشي كأنِّي واحدٌ غيري. وجُرْحي وَرْدَةٌ
بيضاءُ إنجيليَّةٌ. ويداىَ مثل حمامتَيْنِ
على الصليب تُحلِّقان وتحملان الأرضَ.
لا أَمشي، أَطيرُ، أَصيرُ غَيْري في
التجلِّي. لا مكانَ ولا زمانَ. فمن أَنا؟
أَنا لا أنا في حضرة المعراج. لكنِّي
أُفكِّرُ: وَحْدَهُ، كان النبيّ محمَّدٌ
يتكلَّمُ العربيَّةَ الفُصْحَى. «وماذا بعد؟»
ماذا بعد؟ صاحت فجأة جنديّةٌ:
هُوَ أَنتَ ثانيةً؟ أَلم أَقتلْكَ؟
قلت: قَتَلْتِني ... ونسيتُ، مثلك، أن أَموت.

18

بغيابها كَوَّنْت صورتها

بغيابها، كَوَّنْتُ صُورَتَها: مِنَ الأَرضيِّ
يبتدىء السماويُّ الخفيُّ. أَنا هُنا أَزِنُ
المدى بمعلَّقات الجاهليِّين ... الغياب هُوَ
الدليلُ هُوَ الدليلُ. لكُلِّ قافِيَةٍ أُقيمتْ
خيمةٌ. ولكُلِّ شيء في مهبِّ الريح
قافيةٌ. يُعَلِّمني الغيابُ دروسه: «لولا
السرابُ لَمَا صَمَدْتَ...» وفي الفراغ
فَكَكْتُ حرفاً من حروف الأبجديّات القديمة،
واتَّكَأْتُ على الغياب. فَمَنْ أنا بعد
الزيارةِ؟ طائرٌ، أم عابرٌ بين الرموز
وباعةِ الذكرى؟ كأني قِطْعَةٌ أَثريَّةٌ،
وكأنني شَبَحٌ تسلَّلَ من يَبُوسَ، وقلْتُ لي:

فلنذهبنَّ إلى تلالٍ سَبْعَةٍ. فوضعْتُ
أَقْنِعَتي على حَجَرٍ، وسرتُ كما يسير
النائمون يقودُني حُلْمي. ومن قَمَرٍ إلى
قمر قَفَزْتُ. هناك ما يكفي من اللاوعي
كي تَتحرَّر الأشياءُ من تاريخها. وهناك
ما يكفي من التاريخ كي يتحرَّر اللاوعيُ
من معراجه. «خذني إلى سنواتِنا
الأولى» ـ تقول صديقتي الأولى. «دَعِي
الشُبَّاكَ مفتوحاً ليدخل طائرُ الدوريّ
حُلْمَكِ» ... ثم أَصحو، لا مدينةَ في
المدينةِ. لا «هُنا» إلاّ «هناك». ولا
هناك سوى هنا. لولا السرابُ
لَمَا مَشيْتُ إلى تلالٍ سَبْعَةٍ...
لولا السراب!

19

الأربعاء، الجمعة، السبت

الأربعاءُ/
آلجُمْعَةُ/
آلسَّبْتُ/
آلأساطيرُ، آلبلادُ، تشابَهَتْ ...
لو كان لي قلبان لم أَندم على
حبّ، فإنْ أَخطَأتُ قُلْتُ: أَسأتَ
يا قلبي الجريحَ الاختيارَ!... وقادني
القلبُ الصحيحُ إلى الينابيع/

آلخميسُ
السَّوْسَنُ/
الاثنين/

أسماءُ المكان تشابَهَتْ. أرْهَقْتُ أُغنيتي
بوصف الظلّ. والمعنى يَرَى قَلْبَ
الظلام ولا يُرَى. قال الكلامُ كلامَهُ،
فبكتْ إلهاتٌ كثيراتٌ على أدوارهنَّ/

أَلحكمةُ/
الأَحَدُ/
الغَدُ/
الطُرُقُ، الثلاثاءُ، السماء، تشابهت ...
لو كان لي دربان لاخترتُ البديلَ
الثالثَ. انكشَفَ الطريقُ الأَوَّلُ،
انكشَفَ الطريقُ الآخَرُ،
انكشَفَتْ دُروبُ الهاويةْ

20

زيتونتان

زيتونتانِ عتيقتانِ على شمال الشرقِ،
في الأولى اختبأتُ لأخدَعَ الراوي
وفي الأخرى خَبَأْتُ شقائق النعمانْ

إن شئتُ أن أَنسى ... تَذَكَّرْتُ
آمتلأتُ بحاضري، واخترتُ يومَ
ولادتي ... لأُرتِّب النسيانْ

تَتَشَعّبُ الذكرى. هُنَا قَمَرٌ يُعدُّ
وليمةً لغيابه. وهناك بئرٌ في
جنوبيٍّ الحديقة زفَّتِ امرأةً إلى شيطانْ

كُلُّ الملائكة الذين أُحبُّهُمْ
أخذوا الربيعَ من المكان، صباح
أمسِ، وأورثوني قمَّة البُرْكانْ

أَنا آدمُ الثاني. تَعَلَّمْتُ القراءةَ
والكتابةَ من دروس خطيئتي،
وغدي سيبدأ من هنا، والآنْ

إن شئتُ أن أَنسى... تذكّرتُ
انتَقيْتُ بدايةً، وَوُلِدْتُ كيف أردتُ
لا بطلاً ... ولا قُرْبانْ

تَتَشَعَّبُ الذكرى وتلعَبُ. ها هنا
زيتونتان عتيقتان على شمال الشرقِ
في الأولى وَجَدْتُ بُذورَ أُغنيتي

وفي الأخرى وَجَدْتُ رسالةً
من قائد الرومانْ:

يا إخوَةَ الزيتونِ
أطلُبُ منكمُ الغفران،
أطلب منكمُ الغفران...

21

لا ينظرون وراءهم

لا ينظرونَ وراءهمْ ليودِّعوا منفى،
فإنَّ أمامهم منفى، لقد ألِفُوا الطريق
الدائريَّ، فلا أمامَ ولا وراء، ولا
شمالَ ولا جنوبَ. «يهاجرون» من
السياج إلى الحديقة. يتركون وصيَّةً
في كل مِتْرٍ من فِناء البيت:
«لا تتذكَّروا من بعدنا
إلاّ الحياة» ...
«يسافرون» من الصباح السندسيّ إلى
غبارٍ في الظهيرة، حاملين نُعُوشَهُمْ ملأى
بأشياء الغياب: بطاقةٍ شخصيّةٍ، ورسالةٍ
لحبيبة مَجْهُولَةِ العُنْوانِ:

«لا تتذكَّري من بعدنا
إلاَّ الحياة»
و«يرحلون» من البيوت إلى الشوارع،
راسمينَ إشارةَ النصر الجريحةَ، قائلين
لمن يراهُمْ:
«لم نَزَلْ نحيا، فلا تتذكَّرُونا»!
يخرجون من الحكاية للتنفُّس والتشمُّسِ.
يحلُمُون بفكْرةِ الطَّيَرَان أَعلى... ثم أَعلى.
يصعدون ويهبطون. ويذهبون ويرجعون.
ويقفزون من السيراميك القديم إلى النجوم.
ويرجعون إلى الحكاية ... لا نهايةَ للبدايةِ.
يهربون من النُّعَاس إلى مَلاَك النوم،
أَبيضَ، أَحْمَرَ العينين من أَثَرِ التأمُّل
في الدم المسفوكِ:
«لا تتذكروا من بعدنا
إلاّ الحياة» ...

22

لم يسألوا: ماذا وراء الموت

لم يسألوا: ماذا وراء الموت؟ كانوا
يَحفظُون خريطةَ الفردوس أكثرَ من
كتاب الأرضِ، يُشْغِلُهُمْ سؤالٍ آخر:
ماذا سنفعل قبل هذا الموت؟ قرب
حياتنا نحيا، ولا نحيا. كأنَّ حياتنا
حِصَصٌ من الصحراء مُخْتَلفٌ عليها بين
آلهة العِقار، ونحن جيرانُ الغبار الغابرونَ.
حياتنا عبءٌ على ليل المُؤرّخ: «كُلّما
أخفيتُهم طلعوا عليَّ من الغياب»...
حياتنا عبء علىَ الرسام: «أَرسُمُهُمْ،
فأصبح واحداً منهم، ويحجبني الضباب».
حياتنا عبء على الجنرال: «كيف يسيل

من شَبَحٍ دم؟»   وحياتنا
هي أن نكون كما نريد. نريد أَن
نحيا قليلاً، لا لشيء ... بل لِنَحْتَرِمَ
القيامَةَ بعد هذا الموت.   واقتبسوا،
بلا قَصْدٍ كلامَ الفيلسوف: «آلموت
لا يعني لنا شيئاً. نكونُ فلا يكونُ.
آلموت لا يعني لنا شيئاً. يكونُ فلا
نكونُ»
ورتّبوا أَحلامهُمْ
بطريقةٍ أخرى. وناموا واقفين!

23

قتلى ومجهولون

قتلى، ومجهولون. لا نِسْيانَ يجمعُهُمْ
ولا ذكرى تفرِّقهُمْ ... ومنسيّون في
عُشْبِ الشتاءِ على الطريق العامِّ بين
حكايتين طويلتين عن البُطُولةِ والعذابِ.
«أَنا الضحيَّةُ». «لا. أَنا وحدي
الضحية». لم يقولوا للمؤلّف: «لا
ضحيَّةَ تقتل الأخرى. هنالك في
الحكاية قاتلٌ وضحيَّةٌ». كانوا صغاراً
يقطفون الثلج عن سَرْوِ المسيح،
ويلعبون مع الملائكة الصغار، فإنَّهُمْ
أَبناءُ جيلٍ واحدٍ .... يتسرَّبُون من
المدارس هاربينَ من الرياضيَّات والشعرِ

الحماسيّ القديم، ويلعبون مَعَ الجنود،
على الحواجز، لُعْبَةَ الموت البريئةَ.
لم يقولوا للجنود: دعوا البنادقَ
وافتحوا الطرقاتِ كي تجدَ الفراشةُ
أُمَّها قرب الصباح، وكي نطير مع
الفراشة خارجَ الأحلام، فالأحلامُ
ضيِّقَةٌ على أبوابنا. كانوا صغاراً
يلعبون، ويصنعون حكايةً للوردة
الحمراء تحت الثلج، خَلْفَ حكايَتيْنِ
طويلَتيْنِ عن البطولة والعذاب، ويهربون
مَعَ الملائكة الصغار إلى سماء صافيةْ.

24

السروة انكسرت

«السروة شجن الشجرة وليس
الشجرة، ولا ظل لها لأنها ظل الشجرة»
بسام حجار

أَلسروةُ آنكَسَرَتْ كمئذنةٍ، ونامت في
الطريق على تَقَشُّف ظلِّها، خضراءَ، داكنةً،
كما هِيَ. لم يُصَبْ أَحدٌ بسوء. مَرّت
العَرَباتُ مُسْرِعَةً على أغصانها. هَبَّ الغبارُ
على الزجاج .../ ألسروةُ انكسرتْ، ولكنَّ
الحمامةَ لم تغيِّر عُشَّها العَلَنيَّ في دارٍ
مُجَاورةٍ. وحلّق طائران مهاجران على
كَفَاف مكانها، وتبادلا بعضَ الرموز.
وقالت امرأةٌ لجارتها: تُرَى، شاهَدْتِ عاصفةً؟

فقالت: لا، ولا جرَّافةً.../ والسروةُ
انكسرتْ. وقال العابرون على الحُطام:
لعلَّها سَئِمَتْ من الإهمال، أَو هَرِمَتْ
من الأيّام، فَهْيَ طويلةٌ كزرافةٍ، وقليلةُ
المعنى كمكنسةِ الغبار، ولا تُظَلِّلُ عاشِقَيْن.
وقال طفلٌ: كنتُ أَرسمها بلا خطأ،
فإنَّ قوامَها سَهْلٌ. وقالت طفلةٌ: إن
السماءَ اليوم ناقصةٌ لأن السروة انكسرت.
وقال فتىً: ولكنَّ السماءَ اليوم كاملةٌ
لأن السروةَ انكسرتْ. وقُلْتُ أَنا
لنفسي: لا غُموضَ ولا وُضُوحَ،
السروة انكسرتْ، وهذا كُلُّ ما في
الأمرِ: إنَّ السروة انكسرتْ!

25

رجل وخشف في الحديقة

[إلى سليمان النجاب]

رَجُلٌ وخِشْفٌ في الحديقة يلعبان معاً...
أَقولُ لصاحبي: مِنْ أين جاءَ آبْنُ الغزالِ؟
يقولُ: جاء من السماء. لعلَّهُ «يَحْيَى»
رُزِقْتُ به لِيُؤْنِسَ وحشتي. لا أُمَّ
تُرْضعُهُ فكُنْتُ الأمَّ، أسقيهِ حليبَ
الشاة ممزوجاً بملعَقَةٍ منَ العَسَلِ
المُعَطَّر. ثم أحملُهُ كغيمَةِ عاشقٍ في
غابة البلّوطِ ...
قُلْتُ لصاحبي: هل صار يألَفُ بيتَكَ
المأهولَ بالأصوات والأَدوات؟
قالَ: وصار يرقُدُ في سريري حين يمرضُ...

ثُمَّ قال: وصِرْتُ أَمرَضُ حين يمرض.
صِرْتُ أهذي: «أَيُّها الطفلُ اليتيمُ!
أنا أبوك وأُمُّكَ، انهضْ كي تعلِّمني
السكينةَ»/

بعد شهرٍ زُرْتُهُ في بيته الريفيّ.
كان كلامُهُ يبكي. لأوَّل مرّةٍ يبكي سُلَيْمانُ
القويُّ، يقول لي متهدِّج الصوت: «آبنُ
الغزال، ابنُ الغزالة مات بين يديَّ.
لم يألف حياةَ البيت. لكنْ لم يَمُتْ
مثلي ومثلكَ...»

لم أَقل شيئاً لصاحبيَ الحزينِ. ولم
يودِّعني، كعادته، بأبياتٍ من الشعر
القديم. مشى إلى قبر الغزال الأبيض.
آحتَضَنَ الترابَ وأَجهش: «آنهضْ
كي ينام أبوك، يا آبني، في سريرك.

ها هنا أَجِدُ السكينةَ»/

نام في قبر الغزال، وصار لي
ماضٍ صغيرٌ في المكانْ:
رَجُلٌ وخِشْفٌ في الحديقة يرقدانْ!

26

هذا هو النسيان

هذا هُوَ النسيانُ حوَلكَ: يافطاتٌ
تُوقظُ الماضي، تحثُّ على التذكُّر. تكبح
الزَّمَنَ السريعَ على إشارات المرور،
وتُغْلقُ الساحاتِ/

تمثالٌ رُخَاميٌّ هو النسيانُ. تمثالٌ
يُحَمْلِقُ فيكَ: قِفْ مثلي لتشبِهَني.
وَضَعْ ورداً على قدميَّ/

أُغنيةٌ مُكَرَّرَةٌ هو النسيانُ. أُغنيةٌ
تطاردُ ربّةَ البيت احتفاءً بالمناسبة
السعيدةِ، في السرير وغرفة الڤيديو،

وفي صالونها الخاوي، ومطبخها/

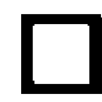
وأَنصابٌ هو النسيانُ. أَنصابٌ على
الطرقات تأخذ هيئة الشَّجَر البُرُونزيِّ
المرصّعِ بالمدائح والصقورِ/

ومتحفٌ خالٍ من الغد، باردٌ،
يروي الفصولَ المنتقاةَ من البدايةْ
هذا هو النسيانُ: أَن تتذكَّرَ الماضي
ولا تتذكَّرَ الغَدَ في الحكايةْ

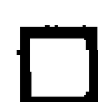
27

تُنْسى، كأنك لم تكن

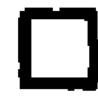
تُنسى، كأنَّكَ لم تَكُنْ
تُنْسَى كمصرع طائرٍ
ككنيسةٍ مهجورةٍ تُنْسَى،
كحبّ عابرٍ
وكوردةٍ في الليل ... تُنْسَى



أَنا للطريق ... هناك من سَبَقَتْ خُطَاهُ خُطايَ
مَنْ أَمْلَى رُؤاهُ على رُؤَايَ. هُنَاكَ مَنْ
نَثَرَ الكلام على سجيَّتِهِ ليدخل في الحكايةِ
أَو يضيءَ لمن سيأتي بعدَهُ
أَثراً غنائياً ... وحدسا



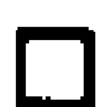
تُنْسَى، كأنك لم تكن
شخصاً، ولا نصّاً ... وتُنْسَى



أَمشي على هَذْيِ البصيرة، رُبّما
أُعطي الحكايةَ سيرةً شخصيَّةً. فالمفرداتُ
تسُوسُني وأسُوسُها. أنا شكلها
وهي التجلِّي الحُرُّ. لكنْ قيل ما سأقول.
يسبقني غدٌ ماضٍ. أَنا مَلِكُ الصدى.
لا عَرْشَ لي إلاَّ الهوامش. والطريقُ
هو الطريقةُ. رُبَّما نَسِيَ الأوائلُ وَصْفَ
شيء ما، أُحرِّكُ فيه ذاكرةً وحسّا



تُنسَى، كأَنَّكَ لم تكن
خبراً، ولا أَثراً ... وتُنْسى



أَنا للطريق ... هناك مَنْ تمشي خُطَاهُ
على خُطَايَ، وَمَنْ سيتبعني إلى رؤيايَ.
مَنْ سيقول شعراً في مديح حدائقِ المنفى،
أمامَ البيت، حراً من عبادَةِ أمسِ،
حراً من كناياتي ومن لغتي، فأشهد
أَنني حيٌّ
وحُرٌّ
حين أُنْسَى!

28

أما أنا، فأقول لاسمي

أمَّا أَنا، فأقولُ لاسْمي: دَعْكَ منِّي
وابتعدْ عنِّي، فإني ضقتُ منذ نطقتُ
واتَّسَعَتْ صفاتُك! خذ صفاتِكَ وامتحنْ
غيري ... حملتُك حين كنا قادرَيْن على
عبور النهر مُتَّحدين «أَنت أنا»، ولم
أَخْتَرْكَ يا ظلِّي السلوقيَّ الوفيَّ، اختارك
الآباء كي يتفاءلوا بالبحث عن معنى.
ولم يتساءلوا عمَّا سيحدُثُ للمُسَمَّى عندما
يقسو عليه الاسمُ، أَو يُمْلي عليه
كلامَهُ فيصير تابعَهُ ... فأين أَنا؟
وأَين حكايتي الصُّغْرَى وأوجاعي الصغيرةُ؟
تجلس امرأةٌ مَعَ اسْمي دون أَن

تصغي لصوتِ أُخُوَّةِ الحيوان
والإنسان في جَسَدي، وتروي لي
حكاية حبها، فأقول: إن أَعطيتِني يَدَكِ
الصغيرةَ صِرْتُ مثلَ حديقة .. فتقول:
لَسْتَ هُوَ الذي أَعنيه، لكني أُريد
نصيحةً شعريّةً. ويحملقُ الطلاب في
اسمي غير مكترثين بي، وأنا أَمرّ
كأنني شخص فضوليٌّ. وينظر قارىء
في اسمي، فيبدي رأيه فيه: أُحبُّ
مسيحَهُ الحافي، وأما شِعْرُهُ الذاتيُّ في
وَصْفِ الضباب، فلا! ... ويسألني:
لماذا كنت ترمقني بطَرْفٍ ساخرٍ. فأقول:
كنت أحاور آسمي: هل أَنا صِفَةٌ؟
فيسألني: وما شأني أنا؟/

أمَّا أَنا، فأقول لاسمي: أَعْطِني
ما ضاع من حُرِّيَّتي!

29

الحلم، ما هو؟

ألـحُلْمُ، ما هُوَ؟
ما هُوَ اللاشيءُ هذا
عابرُ الزمنِ،
آلبهيُّ كنجمةٍ في أوَّل الحبِّ،
آلشَّهيُّ كصورةِ امرأةٍ
تدلِّكُ نهدها بالشَّمْسِ؟/
ما هُوَ، لا أكاد أراه حتى
يختفي في الأمسِ/
لا هُوَ واقعٌ لأعيش وطأته وخفَّتَهُ
ولا هُوَ عكسُهُ لأطير حُرّاً
في فضاء الحَدْسِ/
ما هُوَ، ما هُوَ اللاشيءُ، هذا الـهَشُّ

هذا اللانهائيُّ، الضعيفُ، الباطنيُّ
الزائرُ، المتطايرُ، المتناثرُ،
المتجدِّدُ المتعدِّدُ اللاَّ شكلِ؟
ما هُوَ؟ لا يُجَسُّ ولا يُمَسّ/
ولا يَمُدُّ يداً إلى المُتَلهِّفين الحائرينَ
فما هُوَ السريُّ هذا،
الحائرُ، الحَذِرُ، المحيِّرُ
حين أَنتظرُ الزيارةَ مطمئنَّ النفسِ/
يكسرني ويخرجُ مثل لؤلؤةٍ
تُدَحْرِجُ ضوءها،
ويقول لي: لا تنتظرني
إن أردتَ زيارتي
لا تنتظرني!

30

الآن، إذ تصحو، تذكَّر

الآن، إذ تصحو، تَذَكَّرْ رَقْصَةَ البَجَعِ
الأخيرةَ. هل رَقَصْتَ مَعَ الملائكةِ الصغارِ
وأَنت تحلُمُ؟ هل أَضاءتك الفراشةُ عندما
احترقَتْ بضوء الوردة الأبديِّ؟ هل
ظهرتْ لك العنقاءُ واضحةً ... وهل نادتك
باسمك؟ هل رأيتَ الفجرَ يطلع من
أَصابع مَنْ تُحبُّ؟ وهل لَمَسْتَ الحُلْم
باليدِ، أم تَرَكْتَ الحُلْمَ يحلُمُ وحْدَهُ،
حين انتبهتَ إلى غيابكَ بَغْتَةً؟
ما هكذا يُخْلي المنامَ الحالمونَ،
فإنهم يتوهجون،
ويكملون حياتهم في الحُلْمِ ...

قل لي: كيف كنت تعيش حُلْمَك
في مكانٍ ما، أَقلْ لك مَنْ تكونْ

والآن، إذ تصحو، تذكَّرْ:
هل أسَأْتَ إلى منامك؟
إن أسأت، إذاً تذكّرْ
رقصةَ البجع الأخيرةْ!

31

الظلّ

الظلُّ، لا ذَكَرٌ ولا أُنثى
رماديٌّ، ولو أَشْعَلْتُ فيه النارَ ...
يتبعُني، ويكبرُ ثُمَّ يصغرُ
كُنْتُ أَمشي. كان يمشي
كنت أَجلسُ. كان يجلسُ
كنت أركضُ. كان يركضُ
قلت: أَخدعُهُ وأَخلَعُ معطفي الكُحْليَّ
قلَّدني، وأَلقي عنه معطفَهُ الرماديَّ ...
آستدَرْتُ إلى الطريق الجانبيّةِ
فاستدار إلى الطريق الجانبيّةِ.
قُلْتُ: أَخدعُهُ وأخرجُ من غروب مدينتي
فرأيتُهُ يمشي أمامي

في غروب مدينةٍ أخرى ...
فقلت: أَعود مُتَّكِئاً على عُكّازتينِ
فعاد متكئاً على عكازتينِ
فقلت: أَحمله على كتفيَّ،
فاستَعْصَى ...
فقلتُ: إذنْ، سأتبعُهُ لأخدَعَهُ
سأتبعُ بيّغاءَ الشكل سُخْرِيَةً
أُقلِّد ما يُقَلِّدني
لكي يَقَعَ الشبيهُ على الشبيه
فلا أراهُ، ولا يراني.

32

لا شيء يعجبني

«لا شيءَ يُعْجبُني»
يقول مسافرٌ في الباصِ ـ لا الراديو
ولا صُحُفُ الصباحِ، ولا القلاعُ على التلال.
أُريد أن أبكي/
يقول السائقُ: انتظرِ الوصولَ إلى المحطَّةِ،
وابْكِ وحدك ما استطعتَ/
تقول سيّدةٌ: أَنا أَيضاً. أنا لا
شيءَ يُعْجبُني. دَلَلْتُ ٱبني على قبري،
فأعْجَبَهُ ونامَ، ولم يُوَدِّعْني/
يقول الجامعيُّ: ولا أَنا، لا شيءَ
يعجبني. دَرَسْتُ الأركيولوجيا دون أَن
أَجِدَ الهُوِيَّةَ في الحجارةِ. هل أنا

حقاً أَنا؟/
ويقول جنديٌّ: أَنا أَيضاً. أَنا لا
شيءَ يُعْجبُني. أُحاصِرُ دائماً شَبَحاً
يُحاصِرُني/
يقولُ السائقُ العصبيُّ: ها نحن
اقتربنا من محطتنا الأخيرة، فاستعدوا
للنزول .../
فيصرخون: نريدُ ما بَعْدَ المحطَّةِ،
فانطلق!
أمَّا أنا فأقولُ: أنْزِلْني هنا. أنا
مثلهم لا شيء يعجبني، ولكني تعبتُ
من السَّفَرْ.

33

هو هادئ، وأنا كذلك

هُوَ هادِئٌ، وأنا كذلكَ
يَحْتَسِي شاياً بليمونٍ،
وأَشربُ قهوةً،
هذا هُوَ الشيءُ المغايرُ بَيْنَنَا.
هُوَ يرتدي، مثلي، قميصاً واسعاً ومُخَطَّطاً
وأَنا أطالعُ، مثلَهُ، صُحُفَ المساءْ.
هُوَ لا يراني حين أَنظرُ خِلْسَةً،
أنا لا أراه حين ينظرُ خلسةً،
هو هادئٌ، وأنا كذلِكَ.
يسألُ الجرسونَ شيئاً،
أسألُ الجرسونَ شيئاً...
قطَّةٌ سوداءُ تعبرُ بَيْنَنَا،
فأجسّ فروةَ ليلها

ويجسُّ فَرْوَةَ ليلها ...
أَنا لا أقول لَهُ: السماءُ اليومَ صافيةٌ
وأكثرُ زرقةً.
هو لا يقول لي: السماءُ اليومَ صافيةٌ.
هو المرئيُّ والرائي
أنا المرئيُّ والرائي.
أحرِّكُ رِجْليَ اليُسْرى
يحرك رجلَهُ اليُمْنَى.
أدندنُ لَحْنَ أُغنيةٍ،
يدندن لحنَ أُغنية مُشَابهةٍ.
أُفكِّرُ: هل هو المرآةُ أبصر فيه نفسي؟

ثم أَنظر نحو عينيهِ،
ولكنْ لا أراهُ ...
فأتركُ المقهى على عَجَلٍ.
أفكّر: رُبَّما هو قاتلٌ، أو رُبّما
هو عابرٌ قد ظَنَّ أَني قاتلٌ

هو خائِفٌ، وأنا كذلكْ!

34

وصف الغيوم

«لوصف الغيوم،
عليَّ أن أسرع كثيراً
فبعد هنيهة لن تكون ما هي
عليه، ستصير أخرى»
شيمبورسكا

وَصْفُ الغيوم مَهَارَةٌ لم أُوتَها ...
أَمشي على جَبَلٍ وأَنظُرُ من عَلٍ
نحو الغيوم، وقد تدلّتْ من مَدَار اللازَوَرْدِ
خفيفةً وشفيفةً،
كالقطن تحلجه الرياحُ،
كفكرةٍ بيضاءَ عن معنى الوجود.
لعلَّ آلهةً تنقِّحُ قصَّةَ التكوينِ
«لا شكلٌ نهائيٌ لهذا الكون...

لا تاريخَ للأشكالِ..»
أَنظُرُ من عَلٍ، وأرى انبثاقَ الشكلِ
من عَبَثيَّة اللاّشكلِ:
ريشُ الطير يَنْبُتُ في قُرون الأيَّل البيضاءِ،
وَجْهُ الكائن البشريّ يطلع من
جناح الطائر المائيِّ ...
ترسُمُنا الغيومُ على وَتيرتها
وتختلط الوجوه مع الرؤى
لم يكتمل شيء ولا أَحد، فبعد هنيهة
ستصيرُ صورتُكَ الجديدةُ صُورَةَ النَّمِرِ
الجريحِ بصولجان الريحِ ...
رسَّامون مجهولون ما زالوا أمامك
يلعبون، ويرسمون المُطْلَقَ الأبديَّ،
أَبيضَ، كالغيوم على جدار الكونِ ...
والشعراءُ يبنون المنازلَ بالغيومِ
ويذهبون...

لِكُلِّ حسّ صورةٌ،
ولِكُلِّ وقتٍ غيمةٌ،
لكن أَعمارَ الغيوم قصيرةٌ في الريح،
كالأبد المؤقت في القصائدِ،
لا يزول ولا يدوم ...

من حُسْن حظّي أَنني أَمشي على جَبَلٍ
وأَنظر من علٍ
نحو الغيوم...

35

هي جملة اسمية

هي جُمَلَةٌ إسميَّةٌ، لا فِعْلَ
فيها أو لها: للبحر رائحةُ الأَسِرَّةِ
بعد فِعْلِ الحُبِّ ... عطرٌ مالحٌ أَو
حامضٌ. هِيَ جملة إسميَّة: فرحي
جريحٌ كالغروب على شبابيك الغريبةِ.
زهرتي خضراءُ كالعنقاء. قلبي فائضٌ
عن حاجتي، متردِّدٌ ما بين بابَيْنِ:
آلدخولُ هو الفُكَاهَةُ، والخروج هُوَ
المَتَاهَةُ. أَين ظلِّي ـ مرشدي وسط
الزحام على الطريق إلى القيامة؟ ليتني
حَجَرٌ قديمٌ داكنُ اللونيْن في سور المدينة،
كستنائيٌّ وأَسودُ، طاعِنٌ في اللاشعور

تجاه زوّاري وتأويل الظلال. وليت
للفعل المُضَارِع موطئاً للسير خلفي
أو أمامي، حافيَ القدمين. أَين
طريقيَ الثاني إلى دَرَج المدى؟ أَين
السُّدَى؟ أَين الطريقُ إلى الطريق؟
وأَين نَحْنُ، السائرين على خُطَى الفعل
المضارع، أَين نحن؟ كلامُنا خَبَرٌ
ومُبْتَدأٌ أمام البحر، والزَّبَدُ المراوغُ
في الكلام هُوَ النقاطُ على الحروف،
فليت للفعل المضارع موطئاً فوق
الرصيف ...

36

قل ما تشاء

قُلْ ما تشاءُ. ضَعِ النقاطَ على الحروفِ.
ضَعِ الحروفَ مع الحروف لتُولَدَ الكلماتُ،
غامضةً وواضحةً، ويبتدىءَ الكلامُ.
ضَعِ الكلامَ على المجاز. ضَعِ المجازَ على
الخيال. ضَعِ الخيالَ على تَلفُّته البعيد.
ضَعِ البعيدَ على البعيد ... سَيُولَدُ الإيقاعُ
عند تَشَابُكِ الصُّوَرِ الغريبةِ من لقاء
الواقعيِّ مع الخياليِّ المُشَاكسِ/
هل كَتَبْتَ قصيدةً؟
كلا!
لعلَّ هناك ملحاً زائداً أَو ناقصاً
في المفردات. لعلَّ حادِثةً أخلَّتْ بالتوازن

في مُعَادَلَةِ الظلال. لعلَّ نسراً
مات في أَعلى الجبال. لعلَّ أَرضَ
الرمز خفَّتْ في الكناية فاستباحتها
الرياحُ. لعلَّها ثَقُلَتْ على ريش الخيال.
لعلَّ قلبَكَ لم يفكِّرْ جيّداً، ولعلَّ
فِكْرَكَ لم يُحِسَّ بما يرجُّك. فالقصيدة،
زوجةُ الغد وآبنةُ الماضي، تخيِّم في
مكانٍ غامضٍ بين الكتابة والكلامِ /
فهل كَتَبْت قصيدةً؟
كلا!
إذنْ، ماذا كتبتَ؟
كتبتُ درساً جامعيّاً،
واعتزلْتُ الشعر منذ عرفتُ
كيمياءَ القصيدة ... واعتزلتْ!

37

لا تكتب التاريخ شعراً

لا تكتبِ التاريخَ شعراً، فالسلاحُ هُوَ
المؤرِّخُ. والمؤرّخ لا يُصَابُ برعشة
الحُمَّى إذا سَمَّى ضحاياه ولا يُصْغي
إلى سرديّة الجيتار. والتاريخ يوميّاتُ
أَسلِحَةٍ مُدَوَّنةٌ على أَجسادنا. «إنَّ
الذكيَّ العبقريَّ هو القويُّ». وليس
للتاريخ عاطفةٌ لِنَشْعُرَ بالحنين إلى
بدايتنا، ولا قَصْدٌ لنعرف ما الأمام
وما الوراء ... ولا استراحاتٌ على
سِكك الحديد لندفن الموتى، وننظُرَ
صَوْبَ ما فَعَلَ الزمانُ بنا هناك، وما
فَعَلْنا بالزمان. كأَنَّنا منهُ وخارجَهُ.

فلا هو منطقيٌّ أَو بديهيٌّ لنكسرَ
ما تَبَقَّى من خرافتنا عن الزمن السعيد،
ولا خرافيٌّ لنرضى بالإقامة عند أبواب
القيامةِ. إنَّهُ فينا وخارجنا.. وتكرارٌ
جُنُونيٌّ، من المِقْلاع حتى الصاعق النَّوَويِّ.
يصنعُنا ونصنعه بلا هَدَفٍ ... هل
التاريخ لم يُولَدْ كما شئنا، لأن
الكائنَ البشريَّ لم يُوجَدْ؟
فلاسِفَةٌ وفنَّانونَ مَرُّوا من هناك ...
ودوّن الشعراءُ يوميّاتِ أزهارِ البنفسج
ثم مروا من هناك... وصدَّق الفقراءُ
أَخباراً عن الفردوس وانتظروا هناك ...
وجاء آلهةٌ لإنقاذ الطبيعةِ من أُلُوهيَّتِنا
ومَرُّوا من هناك. وليس للتاريخ
وَقْتٌ للتأمُّل، ليس للتاريخ مرآةٌ

وَوَجْهٌ سافرٌ. هو واقعٌ لا واقعيٌّ
أَو خيالٌ لا خياليٌّ، فلا تكتبه.
لا تكتبه، لا تكتبه شعراً!

38

ماذا سيبقى؟

ماذا سَيَبْقَى من هِبات الغيمة البيضاءِ؟
ـ زَهْرَةُ بَيْلَسَانْ
ماذا سيبقى من رَذَاذ الموجة الزرقاءِ؟
ـ إيقاعُ الزمانْ
ماذا سيبقى من نزيف الفكرة الخضراءِ؟
ـ ماءٌ في عُرُوق السنديانْ
ماذا سيبقى من دُمُوع الحُبِّ؟
ـ وَشْمٌ ناعمٌ في الأرجوانْ
ماذا سيبقى من غُبار البحث عن معنى؟
ـ طريقُ العنفوانْ
ماذا سيبقى من طريقِ الرحلة الكبرى
إلى المجهولِ؟

ـ أُغنيةُ المُسَافر للحصانْ
ماذا سيبقى من سراب الحُلْمِ؟
ـ آثارُ السماء على الكَمَانْ
ماذا سيبقى من لقاء الشيء باللاشيء؟
ـ إحساسُ الأُلوهة بالأمانْ
ماذا سيبقى من كلام الشاعر العربيِّ؟
ـ هاويةٌ ... وخَيْطٌ من دخانْ
ماذا سيبقى من كلامِكَ أنْتَ؟
ـ نسيانٌ ضروريٌّ لذاكرة المكانْ!

39

لا أعرف اسمك

ـ لا أَعرفُ اسمَكِ

□ سَمِّني ما شئتَ

ـ لَسْتِ غزالةً

□ كلا. ولا فَرَساً

ـ ولستِ حَمَامَةَ المنفى

□ ولا حُوريَّةً

ـ مَنْ أَنتِ؟ ما اسمُكِ؟

□ سَمِّني، لأكونَ ما سَمَّيْتَني

ـ لا أَستطيع، لأنّني ريحٌ

وأَنتِ غريبةٌ مثلي، وللأسماءِ أَرضٌ ما

□ إذنْ، أَنا «لا أَحَدْ»

□ لا أَعرفُ آسمكَ، ما آسمُكَ؟
ـ آختاري من الأسماء أَقْرَبَها
إلى النسيان. سَمِّيني أَكُنْ في
أَهل هذا الليل ما سَمَّيْتني!
□ لا أستطيعُ لأنني امرأةٌ مسافرةٌ
على ريحٍ. وأَنت مسافر مثلي،
وللأسماء عائلةٌ وبَيْتٌ واضحٌ
ـ فإذن، أنا «لا شيءَ» ...

قالت «لا أَحدْ»:
سأعبّيء اسمك شَهْوَةً. جَسَدي
يلمُّكَ من جهاتكَ كُلِّها. جَسَدي
يضُمُّكَ من جهاتي كُلِّها، لتكون شيئاً ما
ونمضي باحِثيْنِ عن الحياة...

فقال «لا شيء»: آلحياةُ جميلةٌ
مَعَكِ ... آلحياة جميلةٌ!

40

هي في المساء

هيَ في المساء وحيدةٌ،
وأَنا وحيدٌ مثلها...
بيني وبين شموعها في المطعمِ الشتويِّ
طاولتان فارغتان [لا شيءٌ يعكِّرُ صَمْتَنَا]
هي لا تراني، إذ أراها
حين تقطفُ وردةً من صدرها
وأنا كذلك لا أراها، إذ تراني
حين أَرشفُ من نبيذي قُبْلَةً ...
هي لا تُفَتِّتُ خبزها
وأنا كذلك لا أريقُ الماءَ
فوق الشَّرْشَف الورقيِّ
[لا شيءٌ يكدِّر صَفْوَنا]

هي وَحْدها، وأَنا أمامَ جَمَالها
وحدي. لماذا لا تُوَحِّدُنا الهَشَاشَةُ؟
قلت في نفسي -
لماذا لا أَذوقُ نبيذَها؟
هي لا تراني، إذ أراها
حين ترفَعُ ساقَها عن ساقِها ...
وأَنا كذلك لا أراها، إذ تراني
حين أَخلَعُ معطفي ...
لا شيء يزعجها معي
لا شيء يزعجني، فنحن الآن
منسجمان في النسيان ...
كان عشاؤنا، كُلٌّ على حِدَةٍ، شهيّاً
كان صَوْتُ الليل أَزْرَقَ
لم أكن وحدي، ولا هي وحدها
كنا معاً نصغي إلى البلَّوْرِ
[لا شيءٌ يُكَسِّرُ ليلنا]

هِيَ لا تقولُ:
الحبُّ يُولَدُ كائناً حيّا
ويُمْسِي فِكْرَةً.
وأنا كذلك لا أقول:
الحب أَمسى فكرةً

لكنه يبدو كذلك ...

41

في الانـتظار

في الانتظار، يُصيبُني هَوَسٌ برصد
الاحتمالات الكثيرة: رُبَّما نَسِيَتْ حقيبتها
الصغيرة في القطار، فضاع عنواني
وضاع الهاتفُ المحمولُ، فانقطعت شهيّتها
وقالت: لا نصيبَ له من المطر الخفيفِ/
ورُبَّما آنشَغَلَتْ بأمرٍ طارىءٍ أو رحلةٍ
نحو الجنوب لكي تزور الشمسَ، واتَّصَلَتْ
ولكن لم تَجِدْني في الصباح، فقد
خَرَجْتُ لأشتري غاردينيا لمسائنا وزجاجتينِ
من النبيذِ/
وربما اختَلَفَتْ مع الزَّوْجِ القديم على
شُؤون الذكريات، فأقْسَمَتْ ألّا ترى

رجلاً يُهدِّدُها بصُنْعِ الذكرياتِ/
ورُبَّما اصطَدَمَتْ بتاكسي في الطريقِ
إليَّ، فانطفأتْ كواكب في مَجَرّتها.
وما زالت تُعَالَجُ بالمهدّىء والنعاسِ/
وربما نظرتْ إلى المرآة قبل خروجها
من نفسها، وتحسَّسَتْ أجَّاصَتَيْن كبيرتينِ
تُمَوِّجان حريرَها، فتنهَّدَتْ وتردّدتْ:
هل يستحقُّ أنوثتي أَحدٌ سوايَ/
وربما عبرتْ، مُصَادَفَةً، بِحُبٍّ
سابقٍ لم تَشْفَ منه، فرافَقَتْهُ إلى
العشاءِ/
ورُبَّما ماتَتْ،
فإنَّ الموت يعشق فجأة، مثلي،
وإنَّ الموتَ، مثلي، لا يحبُّ الانتظار

42

لو كنتُ غيري

لو كُنْتُ غيري في الطريق، لما التفتُّ
إلى الوراء، لَقُلتُ ما قال المسافرُ
للمسافرة الغريبةِ: يا غريبةُ! أَيقظي
الجيتارَ أَكْثَرَ! أَرجئي غَدَنا ليمتدَّ الطريقُ
بنا، ويتَّسعَ الفضاءُ لنا، فننجو من
حكايتنا معاً: كَمْ أَنتِ أَنتِ.. وكم أنا
غيري أمامك ها هنا!

لو كُنْتُ غيري لانتميتُ إلى الطريق،
فلن أعود ولن تعودي. أيقظي الجيتار
كي نتحسَّسَ المجهولَ والجهةَ التي تُغْوي
المسافرَ باختبار الجاذبيّة. ما أنا إلاّ

خُطَايَ، وأنت بوصلتي وهاويتي معاً.
لو كُنْتُ غيري في الطريق، لكُنْتُ
أَخفيتُ العواطفَ في الحقيبة، كي
تكون قصيدتي مائيّةً، شَفَّافَةً، بيضاءَ،
تجريديَّةً، وخفيفةً... أَقوى من الذكرى،
وأَضْعَفَ من حُبَيْبَات الندى، وَلَقُلْتُ:
إنَّ هُوِيَتي هذا المدى!

لو كُنْتُ غيري في الطريق، لَقُلتُ
للجيتار: دَرِّبْني على وَتَرٍ إضافيٍّ!
فإنَّ البيتَ أَبعدُ، والطريقَ إليه أَجملُ ـ
هكذا ستقول أُغنيتي الجديدةُ ـ كلما
طال الطريق تجدَّد المعنى، وصرتُ آثنين
في هذا الطريق: أَنا ... وغيري!

43

شكراً لتونس

شكراً لتونسَ. أَرْجَعَتْني سالماً من
حُبِّها، فبكيتُ بين نسائها في المسرح
البلديِّ حين تملَّصَ المعنى من الكلمات.
كُنْتُ أُودِّعُ الصيفَ الأخيرَ كما يودِّعُ
شاعرٌ أُغنيةً غَزَلِيَّةً: ماذا سأكتبُ
بعدها لحبيبةٍ أُخرى ... إذا أَحببتُ؟
في لُغَتي دُوَارُ البحر. في لغتي رحيلٌ
غامضٌ من صُورَ. لا قرطاجَ تكبحُهُ، ولا
ريحُ البرابرة الجنوبيِّين. جئتُ على
وتيرة نَوْرَسٍ، ونَصَبْتُ خيمتي الجديدةَ
فوق مُنْحَدَرٍ سماويٍّ. سأكتبُ هٰهنا فصلاً
جديداً في مديح البحر: أُسْطوريَّةٌ

لغتي، وقلبي مَوْجَةٌ زرقاءُ تخدشُ
صخرةً: «لا تُعْطني، يا بحرُ، ما
لا أَستحقُّ من النشيد. ولا تكن
يا، بحرُ، أكثرَ أو أَقلَّ من النشيد!» ...
تطيرُ بيْ لُغَتي إلى مجهولنا الأَبديِّ،
خلف الحاضر المكسور من جِهَتَيْنِ: إنْ
تنظرْ وراءك تُوقظْ سَدُومُ المكان على
خطيئتِهِ... وإن تنظرْ أمامَكَ توقظِ
التاريخَ، فاحذرْ لَدْغَةَ الجهتين... واتبَعْني.
أَقول لها: سأمكثُ عند تونس بين
مَنْزِلَتَيْنِ: لا بيتي هنا بيتي، ولا
منفايَ كالمنفى. وها أَنذا أُودِّعُها،
فيجرحني هواءُ البحر ... مِسْكُ الليل يجرحني،
وعِقْدُ الياسمين على كلام الناس يجرحني،
ويجرحني التأمُّلُ في الطريق اللولبيِّ إلى ضواحي
الأندلسْ ...

44

لي مقعد في المسرح المهجور

لِيَ مِقْعدٌ في المسرح المهجور في
بيروتَ. قد أَنسى، وقد أَتذكَّرُ
الفصلَ الأخيرَ بلا حنينٍ ... لا لشيءٍ
بل لأنَّ المسرحيَّةَ لم تكن مكتوبةً
بمهارةٍ ...
فوضى
كيوميّات حرب اليائسين، وسيرةٌ ذاتيّةٌ
لغرائز المتفرجين. مُمَثِّلون يُمَزِّقون نُصُوصَهُمْ
ويفتِّشون عن المؤلف بيننا، نحن الشهودَ
الجالسين على مقاعدنا.
أقول لجاريَ الفنّانِ: لا تُشْهر سلاحك،
وانتظرْ، إلاّ إذا كُنْتَ المُؤَلِّفَ!

ـ لا

ويسألني: وهل أنت المؤلِّفُ؟

ـ لا.

ونجلس خائِفَيْن. أَقول: كُنْ بَطَلاً
حياديّاً لتنجو من مصير واضحٍ
فيقول: لا بَطَلٌ يموت مُبَجّلاً في المشهد
الثاني. سأنتظر البقيّةَ. ربما أَجريتُ
تعديلاً على أحد الفصول. وربما أَصلحتُ
ما صَنَعَ الحديدُ بإخوتي
فأقول: أَنتَ إذاً؟
يردُّ: أنا وأنتَ مؤلِّفان مُقَنَّعان وشاهدان
مُقَنَّعان.
أقول: ما شأني؟ أَنا متفرِّجٌ
فيقول: لا متفرِّجٌ في باب هاويةٍ ... ولا
أَحدٌ حياديّ هنا. وعليك أن تختار
دورَكَ في النهايةْ
فأقول: تنقصني البداية، ما البداية؟

45

في الشام

في الشام، أَعرفُ مَنْ أنا وسط الزحام.
يَدُلُّني قَمَرٌ تَلأْلأَ في يد آمرأةٍ... عليَّ.
يدلّني حَجَرٌ تَوَضَّأَ في دموع الياسمينة
ثم نام. يدلُّني بَرَدَى الفقيرُ كغيمةٍ
مكسورةٍ. ويَدُلُّني شِعْرٌ فُروسيٌّ عليَّ:
هناك عند نهاية النفق الطويل مُحَاصَرٌ
مثلي سَيُوقِدُ شمعةً، من جرحه، لتراهُ
ينفضُ عن عباءَتِهِ الظلامَ. تَدُلُّني رَيْحَانةٌ
أرخت جدائلها على الموتى ودفَّأت الرخام.
«هنا يكون الموتُ حبّاً نائماً» ويدُلُّني
الشعراء، عُذْريِّين كانوا أم إباحيِّينَ،
صُوفيِّين كانوا أم زَنَادِقَةً،

عليَّ: إذا
ٱخْتَلَفْتَ عرفتَ نفسَكَ، فاختلفْ تجد
الكلامَ على زهور اللوز شفّافاً، ويُقْرِئُكَ
السماويُّ السلامَ. أَنا أَنا في الشام،
لا شَبَهي ولا شَبَحي. أَنا وغدي يداً
بيدٍ نُرَفْرِفُ في جناحَيْ طائرٍ. في الشام
أَمشي نائماً، وأَنامُ في حِضْنِ الغزالةِ
ماشياً. لا فرق بين نهارها والليل
إلاّ بعضُ أشغال الحمام. هناك أرضُ
الحُلْم عاليةٌ، ولكنَّ السماء تسيرُ عاريةً
وتَسْكُنُ بين أَهل الشام ...

46

في مصر

في مصرَ، لا تتشابَهُ الساعاتُ ...
كُلُّ دقيقةٍ ذكرى تجدِّدُها طيورُ النيلِ.
كُنْتُ هناك. كان الكائنُ البشريُّ يبتكرُ
الإله/ الشمسَ. لا أحَدٌ يُسَمِّي نفسَهُ
أَحداً. «أنا آبنُ النيل ـ هذا الاسم
يكفيني». ومنذ اللحظة الأولى تُسَمِّي
نفسك «ابن النيل» كي تتجنَّب العَدَم
الثقيل. هناك أحياءٌ وموتى يقطفون
معاً غيومَ القُطْنِ من أرض الصعيد،
ويزرعون القمحَ في الدلتا. وبين الحيِّ
والمَيْتِ الذي فيه تناوُبُ حارسين على
الدفاع عن النخيل. وكُلُّ شيء عاطفيٌّ

فيك، إذ تمشي على أطراف روحكَ في
دهاليز الزمان، كأنَّ أُمَّكَ مِصْرَ
قد وَلَدَتْكَ زَهْرَة لُوتسٍ، قبل الولادةِ،
هل عرفت الآن نفسَكَ؟ مصرُ تجلسُ
خلسةً مَعَ نفسها: «لا شيء يشبهني».
وترفو معطفَ الأبديَّة المثقوب من
إحدى جهات الريح. كُنْتُ هناك. كان
الكائنُ البشريُّ يكتب حكمة الموت / الحياة.
وكُلُّ شيء عاطفيٌّ، مُقْمِرٌ ... إلاّ القصيدةَ
في التفاتتها إلى غدها تُفَكِّر بالخلود،
ولا تقول سوى هشاشتها أمام النيل...

47

أتذكّر السَّيّاب

أَتذكَّرُ السَّيَّابَ، يصرخُ في الخليج سُدَىً:
«عِراقُ، عراقُ، ليس سوى العراق...»
ولا يردّ سوى الصدى.
أَتذكَّرُ السَّيَّابَ، في هذا الفضاء السومريِّ
تغلّبتْ أُنثى على عُقْم السديمِ
وأَوْرَثَتْنا الأرضَ والمنفى معاً
أَتذكَّرُ السيَّابَ... إن الشِّعْرَ يُولَدُ في العراقِ
فكُنْ عراقيّاً لتصبح شاعراً يا صاحبي!
أَتذكّرُ السيّابَ، لم يَجِدِ الحياةَ كما
تخيَّلَ بين دجلةَ والفراتِ، فلم يفكّر
مثلَ جلجامشْ بأعشاب الخلودِ،
ولم يُفَكِّر بالقيامة بعدها...

أَتذكّرُ السَيَّابَ، يأخذُ عن حمورابي
الشرائعَ كي يُغَطِّي سَوْءَةً،
ويسير نحو ضريحه متصوّفاً.
أتذكّرُ السيَّابَ، حين أُصابُ بالحُمّى
وأهذي: إخوتي كانوا يُعدُّون العَشَاءَ
لجيش هولاكو، ولا خَدَمٌ سواهُمْ ... إخوتي!
أَتذكّرُ السيّابَ، لم نَحْلُمْ بما لا
يستحقّ النَّحْلُ من قُوتٍ. ولم نحلم
بأكثرَ من يدين صغيرتين تصافحان غيابنا.
أَتذكّرُ السيّاب. حدّادون موتى ينهضون
من القبور ويصنعون قيودنا.
أَتذكّرُ السيَّابَ. إنَّ الشعرَ تجربَةٌ ومنفى
توأمان. ونحن لم نحلُمْ بأكثر من
حياةٍ كالحياةِ، وأن نموت على طريقتنا
«عِراقُ
«عراقُ
« ليس سوى العراقْ ...»

II

طريق الساحل

طريقٌ يُؤدِّي إلى مصرَ والشام
[قلبي يرنُّ من الجِهَتَيْن]
طريقُ المسافر مِنْ ... وإلى نفسهِ
[جَسَدي ريشةٌ والمدى طائرٌ]
طريقُ الصواب ... طريقُ الخطأْ
[لعلِّي أَخطأتُ، لكنها التجربة]
طريقِ الصعود إلى شُرُفات السماء
[وأَعلى وأَعلى، وأَبعدْ]
طريقُ النزول إلى أوَّل الأرضِ
[إنَّ السماء رماديّةٌ]
طريق التأمُّل في الحبِّ
[فالحبُّ قد يجعلُ الذئبَ نادلَ مقهى]

طريقُ السنونو ورائحةُ البرتقال على البحرِ
[إنَّ الحنينَ هُوَ الرائحةْ]
طريقُ التَّوَابلِ والملحِ والقمحِ
[والحربِ أَيضاً]
طريقُ السلام المُتَوَّجِ بالقُدْسِ
[بعد انتهاء الحروب صليبيَّةِ الأقنعة]
طريقُ التجارة والأبجديَّة، والحالمينَ
[بتأليف سيرةِ تِرْغَلَّةٍ]
طريقُ غُزاةٍ يريدون ترميمَ تاريخهم
[بغدٍ مُودَعٍ في البنوك]
طريقُ التَّحَرُّشِ بالميثولوجيا
[فقد تَسْتَجيبُ إلى التكنولوجيا]
طريقُ التخلِّي، قليلاً، عن الإيديولوجيا
[لمصلَحَةِ العَوْلَمَةْ]

طريقُ الصراع على أيِّ شيءٍ
[ولو كان جِنْسَ الملاك]
طريقُ الوفاق على كُلِّ شيء
[ولو كان أُنثى الحجر]
طريقُ الإخاء المُخَاتِلِ
[بين الغزالِ وصيّادِهِ]
طريقٌ يدلُّ على الشيء أو عكسه
[لفرط التَّشَابُه بين الكِنَايَةِ والاستعارة]
طريقُ الخيول التي صَرَعَتْها المسافات
[والطائرات ...]
طريقُ البريد القديم المُسَجّل
[كُلُّ الرسائل مُودَعَةٌ في خزائن قيصر]
طريقٌ يطول ويقصُرُ
[وَفْقَ مزاج أبي الطيِّب المُتَنَبِّي]

طريقُ الإلهاتِ مُنْحَنياتِ الظُّهُور
[كرايات جيشٍ تَقَهْقَرْ]
طريقُ فتاةٍ تُظَلِّلُ عانَتها بالفراشةِ
[فاللازَوَرْدُ يُجَرِّدُها من ملابسها]
طريقُ الذين يُحيِّرُهُمْ وَصْفُ زهرةِ لوزٍ
[لأَنَّ الكثافةَ شَفَّافةٌ]
طريقٌ طويلٌ بلا أَنبياء
[فقد آثَروا الطُّرُق الوَعِرَة]

طريقٌ يؤدِّي إلى طَلَل البيتِ
[تحت حديقة مُسْتَوْطَنَة]

طريقٌ يَسُدّ عليَّ الطريق
فيصرخُ بي شَبَحي:
إنْ
أردتَ
الوصولَ

إلى
نفسك الجامحةْ
فلا
تَسْلُكِ
الطُّرُقَ الواضحةْ!

III

لا كما يفعل السائح الأجنبي

مَشَيْتُ على ما تَبقَّى من القلبِ،
صَوْبَ الشمال ...
ثلاثُ كنائسَ مهجورةٌ،
سنديانٌ على الجانبَيْنِ،
قُرىً كنقاطٍ على أَحْرُفٍ مُحِيَتْ،
وفتاةٌ على العشب تقرأُ ما
يُشْبهُ الشِّعَرَ: لو كُنْتُ أَكبرَ،
لو كُنْتُ أَكبرَ، لاسْتَسْلَمَ الذئبُ لي!

... لم أَكُنْ عاطفياً، ولا «دون جوان»
فلم أَتمدَّد على العشب، لكنني
قُلْتُ في السرِّ: لو كنتُ أَصغرَ

لو كنتُ أَصغرَ عشرين عاماً
لَشارَكْتُها الماءَ والسندويشات،
وعلَّمتُها كيف تَلْمِسُ قوس قُزَحْ

مَشَيْتُ، كما يفعل السائحُ الأَجنبيُّ ...
معي كاميرا، ودليلي كتابٌ صغيرٌ
يضمُّ قصائدَ في وَصْفِ هذا المكانِ
لأكثرَ من شاعرٍ أَجنبيٍّ،
أُحسُّ بأني أنا المتكلِّمُ فيها
ولولا الفوارقُ بين القوافي لقُلْتُ:
أَنا آخري

... كنت أَتبعُ وصف المكان. هنا
شَجَرٌ زائدٌ، وهنا قمرٌ ناقِصٌ
وكما في القصائد: ينبتُ عشبٌ
على حَجَرٍ يتوجّعُ. لا هُوَ حُلْمٌ
ولا هُوَ رمزٌ يدلُّ على طائرٍ وطنيٍّ،

ولكنه غيمةٌ أينعَتْ...
خطوة، خطوتان، ثلاثٌ ... وَجَدْتُ الربيعَ
قصيراً على المِشْمِشيَّات. ما كِدْتُ أَرنو
إلى زَهْرة اللوز حتى تناثَرتُ ما بينَ
غمَّازَتَيْنِ. مَشَيْتُ لأتبعَ ما تَرَكَتْه الطيورُ
الصغيرةُ من نَمَشٍ في القصائد/

ثُمَّ تساءلْتُ: كيف يصير المكانُ
ٱنعكاساً لصورتِهِ في الأساطيرِ،
أَو صِفَةً من صفات الكلامِ؟
وهل صورةُ الشيء أَقوى
من الشيءِ؟
لولا مخيَّلتي قال لي آخري:
أنتَ لَسْتَ هنا!

لم أكن واقعيّاً. ولكنني لا

أُصدِّقُ تاريخَ «إلياذة» العسكريَّ،
هُوَ الشِّعْرُ، أسطورةٌ خَلَقَتْ واقعاً...
وتساءَلْتُ: لو كانتِ الكاميرا والصحافةُ
شاهدةً فوق أسوار طروادةَ الآسيوية،
هل كان «هوميرُ» يكتبُ غيرَ الأوديسةِ؟/

... أُمْسِكُ هذا الهواء الشهيَّ،
هواءَ الجليل، بكلتا يديَّ
وأمْضَغُهُ مثلما يمضَغُ الماعزُ الجبليُّ
أَعالي الشُّجَيْرات،
أَمشي، أُعرِّف نفسي إلى نفسها:
أنتِ، يا نفسُ، إحدى صفات المكان

ثلاثُ كنائسَ مهجورةٌ
مآذنُ مكسورةٌ،

سنديانٌ على الجانبينِ،
قُرىً كنقاط على أَحْرُفٍ مُحِيَتْ،
وفتاةٌ على العشب تسأل طيفاً:
لماذا كبرتَ ولم تنتظرني
يقول لها: لم أَكنْ حاضراً
عندما ضاق ثوبُ الحرير بتُفَّاحَتَيْنِ.
فغنِّي، كما كنتِ قبل قليل، تُغَنِّين:
لو كُنْتُ أكبرَ، لو كنتُ أكبرَ .../

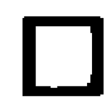
أَمَّا أَنا، فسأدخُلُ في شجر التوتِ
حيث تُحوِّلُني دُودَةُ القزِّ خَيْطَ حريرٍ،
فأدخلُ في إبرة آمرأةٍ من
نساء الأساطير،
ثم أطير كشالٍ مع الريح...

IV

بيت من الشعر/
بيتُ الجنوبي

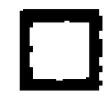
[في ذكرى أمل دنقل]

واقفاً مَعَهُ تحت نافذةٍ،
أتأمَّلُ وَشْمَ الظلال على
ضفَّة الأَبديَّةِ، قُلْتُ له:
قد تغيَّرتَ يا صاحبي .... وَانْفَطَرْتَ
فها هِيَ درّاجةُ الموت تدنو
ولكنها لا تحرِّكُ صرختك الخاطفةْ

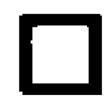


قال لي: عِشْتُ قرب حياتي
كما هِيَ،
لا شيءَ يُثْبِتُ أَنِّيَ حيٌّ
ولا شيءَ يثبتُ أَنيَ مَيْتٌ

ولم أَتدخّل بما تفعلُ الطيرُ بي
وبما يحمِلُ الليل مِنْ
مَرَضِ العاطفةْ

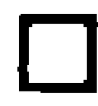


أَلغيابُ يرفّ كزوجَيْ حمامٍ على النيلِ...
يُنْبِئُنا باختلاف الخُطَى حول فعل المُضارعِ...
كُنّا معاً، وعلى حِدَةٍ، نَسْتَحِثُّ غداً
غامضاً. لا نريدُ من الشيء إلاّ
شفافيَّةَ الشيء: حدِّقْ تَرَ الوردَ
أسوَد في الضوء. وآحلُمْ تَرَ الضوءَ
في العتمة الوارفةْ ...



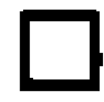
ألجنوبيُّ يحفظ درب الصعاليك عن
ظهر قلبٍ. ويُشْبهُهُم في سليقتهم
وارتجالِ المدى. لا «هناك» له،

لا «هنا»، لا عناوينَ للفوضويّ
ولا مِشْجَبٌ للكلام. يقول: النظامُ
آحتكامُ الصدى للصدى. وأَنا صوتُ
نفسي المشاع: أَنا هُوَ أنتَ ونحنُ أَنا.
وينامُ على دَرَج الفجر: هذا هو
البيتُ، بيتٌ من الشعر، بيتُ الجنوبيِّ.
لكنَّهُ صارمٌ في نظام قصيدته. صانعٌ
بارعٌ يُنقِذُ الوَزْنَ من صَخَب العاصفةْ



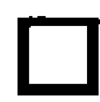
ألغيابُ على حاله. قَمَرٌ عابرٌ فوق
خُوفُو يُذهِّبُ سَقْفَ النخيل. وسائحةٌ
تملأُ الكاميرا بالغياب، وتسأَلُ: ما
الساعةُ الآن؟ قال لها: الساعةُ
الآنَ عَشْرُ دقائقَ ما بعد سبعةِ

آلاف عامٍ من الأَبجديَّة. ثم تنهّد:
مِصْرُ الشهيّةُ، مِصْرُ البهيَّةُ مشغولةٌ
بالخلود. وأَمَّا أَنا ... فمريضٌ بها، لا
أفكِّرُ إلاّ بصحّتها، وبِكسْرَة خبزِ
غدي الناشفةْ

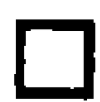


شاعرٌ، شاعرٌ من سُلاَلَة أَهل
الخسارة، وآبنٌ وفيٌ لريف المساكينِ.
قرآنُهُ عربيٌّ، ومزمورُهُ عربيٌّ ، وقُرْبَانُهُ
عربيٌّ. وفي قلبه زَمَنانِ غريبان،
يبتعدان ويقتربان: غدٌ لا يكفُّ
عن الاعتذارِ: «نَسِيتُكَ، لا تنتظرني».
وأَمسِ يجرُّ مراكبَ فرعونَ نحو الشمال:
«انتظرتُكَ، لكنْ تأخرتَ». قُلْتُ لَهُ:

أَين كُنْتَ إذاً؟ قال لي: كُنْتُ
أَبحث عن حاضري في جَنَاحَيْ سُنُونُوّةٍ
خائفةْ ...

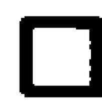


أَلجنوبيُّ يحملُ تاريخَهُ بيَدَيْهِ، كحفنة قمحٍ،
ويمشي على نفسه واثقاً من يسوع
السنابلِ. إنَّ الحياةَ بديهيَّةٌ... فلماذا
نفسِّرها بالأساطير؟ إنَّ الحياة حقيقيّةٌ
والصفاتِ هِيَ الزائفةْ



قال لي في الطريق إلى ليله:
كُلَّما قُلْتُ: كلاَّ. تجلّى لِيَ اللهُ
حريَّةٌ ... وبلغتُ الرضا الباطنيَّ عن
النفس. قلتُ: وهل يُصْلِحُ الشعرُ

ما أفسد الدهرُ فينا وجنكيزخان
وأحفادُهُ العائدون إلى النهرِ؟
قال: على قَدْرِ حُلْمكَ تَتَّسع الأرضُ.
والأرضُ أمّ المخيّلة النازفةْ



قال في آخر الليل: خذني إلى البيتِ،
بيتِ المجاز الأخيرِ ...
فإني غريبٌ هنا يا غريبُ،
ولا شيءَ يُفْرحُني قرب بيتِ الحبيبِ
ولا شيءَ يجرحني في «طريق الحبيب» البعيدةِ
قلت: وماذا عن الروحِ؟
قال: سَتَجْلِسُ قُرْبَ حياتي
فلا شيءَ يُثْبِتُ أنِّيَ ميتٌ
ولا شي يثبتُ أنِّيَ حيٌّ

ستحيا، كما هِيَ
حائرة آسفةْ ...

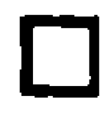
٧

كحادثة غامضة

في دار پابلو نيرودا، على شاطىء
الپاسفيك، تذكَّرْتُ يانيس ريتسوس.
كانت أَثينا ترحِّبُ بالقادمين من البحر،
في مَسْرَحٍ دائريٍّ مُضاءٍ بصرخة ريتسوس:
«آهِ فلسطينُ،
يا آسْمَ الترابِ،
ويا آسْمَ السماءِ،
سَتَنْتَصِرين ...»
وعانَقَني، ثُمَّ قَدَّمني شاهراً شارةَ النصرِ:
«هذا أَخي».
فَشَعَرْتُ بأني انتصرتُ، وأَني انكسرتُ
كقطعة ماسٍ، فلم يَبْقَ منِّي سوى الضوءِ/

□

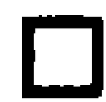
في مطعم دافىءٍ، نتبادلُ بَعْضَ الحنين
إلى بَلَدَيْنا القديمين، والذكرياتِ عن
الغد: كانت أَثينا القديمةُ أَجملَ.
أَما يَئوسُ، فلن تتحمَّل أكثر. فالجنرال
آستعار قناعَ النبيّ ليبكي ويسرِق
دمعَ الضحايا: «عزيزي العَدُوَّ!
قَتَلْتُكَ من دون قصدٍ، عدوِّي العزيزَ،
لأنَّكَ أزعجتَ دبَّابتي»/



قال ريتسوس: لكنَّ اسبارطةَ انكسرَتْ
في مهبِّ الخيال الأثينيِّ. إنَّ الحقيقةَ
والحقَّ صنوان ينتصران معاً. يا أَخي
في القصيدة! للشعر جسْرٌ على
أمسِ والغد. قد يلتقي باعةُ السَّمَكِ

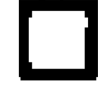
المُتْعَبون مع الخارجين من الميثولوجيا.
وقد يشربون النبيذ معاً.

قلتُ: ما الشعْرُ؟ ... ما الشِعْرُ في
آخر الأمر؟
قال: هو الحَدَثُ الغامضُ، الشعرُ
يا صاحبي هو ذاك الحنينُ الذي لا
يُفسَّرُ، إذ يجعلُ الشيءَ طيفاً، وإذْ
يجعلُ الطَّيْفَ شيئاً. ولكنه قد يُفَسِّرُ
حاجَتَنا لاقتسامِ الجمالِ العُموميِّ.../



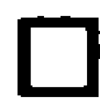
لا بحر في بيته في أَثينا القديمةِ،
حيث الإلهاتُ كنّ يُدِرْنَ شؤون الحياة
مع البَشَر الطيِّبين، وحيث إلكترا الفتاةُ
تناجي إلكترا العجوزَ وتسألها: هل

أَنا أنت حقّاً؟



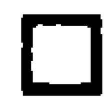
ولا لَيْلَ في بيته الضيِّق المُتَقَشِّفِ
فوق سطوحٍ تطلُّ على الغابة المعدنيَّةِ.
لَوْحَاتُهُ كالقصائد مائيَّةٌ، وعلى أرض
صالونه كُتُبٌ رُصِفَتْ كالحصى المُنْتَقَى.
قال لي: عندما يحزُنُ الشعرُ أَرسمُ
فوق الحجارةِ بَعْضَ الفخاخ لصَيْدِ القَطَا.
قُلْتُ: من أَين يأتي إلى صوتك
البحرُ، والبحر منشغلٌ عنك يا صاحبي؟
قال: من جهة الذكريات، وإن
كنت «لا أتذكر أَنيَ كُنْتُ صغيراً».
وُلدت ولي أَخَوانِ عَدُوَّانِ:
سجني ودائي.

ـ وأَين وَجَدْتَ الطُّفُولَةَ؟
ـ في داخلي العاطفيّ. أَنا الطفلُ
والشيخُ. طفلي يُعَلِّمُ شيخي المجازَ.
وشيخي يُعلِّم طفلي التأمُّل في خارجي.
خارجي داخلي
كُلَّما ضاق سجني تَوزَّعْتُ في الكُلِّ،
واتَّسَعَتْ لغتي مثل لُؤْلُؤةٍ كُلَّما عَسْعَسَ
الليل ضاءتْ/



وقلت: تعلَّمتُ منك الكثير. تعلَّمت
كيف أدرِّبُ نفسي على الانشغال بحبِّ
الحياة، وكيف أُجدِّفُ في الأبيض
المتوسِّط بحثاً عن الدرب والبيت أو
عن ثُنَائيَّة الدربِ والبيتِ/

لم يَكْتَرِثْ للتحيَّة. قدَّم لي قهوةً.
ثم قال: سيرجعُ أوديسُكُمْ سالماً،
سوف يَرْجِعُ .../



في دار پابلو نيرودا، على شاطىء
الپاسفيك، تذكَّرْتُ يا نيس ريتسوس
في بيته. كان في ذلك الوقت يدخُلُ
إحدى أساطيرِهِ، ويقول لإحدى الإلهاتِ:
إنْ كان لا بُدَّ من رحلةٍ، فلتَكُنْ
رحلَةً أبديّةْ!

VI

ليس للكردي إلاّ الريح

[إلى: سليم بركات]

يَتَذكّرُ الكرديُّ، حين أزورُهُ، غَدَهُ...
فيُبْعدُهُ بمُكْنسة الغبارِ: إليكَ عنّي!
فالجبالُ هِيَ الجبالُ. ويشربُ الفودكا
لكي يُبقي الخيالَ على الحياد: أَنا
المسافرُ في مجازي، والكراكيُّ الشقيَّةُ
إخوتي الحَمْقَى. وينفُضُ عن هُوِيَّتِهِ
الظلالَ: هُوِيَّتي لُغَتي. أنا... وأنا.
أنا لغتي. أنا المنفيّ في لغتي.
وقلبي جمرةُ الكُرْديِّ فوق جبالِهِ الزرقاء.../

نيقُوسْيا هوامِشُ في قصيدته،

ككُلّ مدينةٍ أخرى. على درّاجةٍ
حمل الجهاتِ، وقال: أَسْكُنُ أَينما
وَقَعَتْ بيَ الجهةُ الأخيرةُ. هكذا
آختار الفراغَ ونام. لم يَحْلُمْ
بشيء مُنْذ حَلَّ الجِنُّ في كلماتِهِ،
[كلماتُهُ عضلاتُهُ. عضلاتُهُ كلماتُهُ]
فالحالمون يُقَدِّسون الأمسَ، أَوْ
يَرْشُون بوَّابَ الغد الذهبيِّ ...
لا غَدَ لي ولا أمسِ. الهُنَيْهَةُ
ساحتي البيضاء .../

منزلُهُ نظيفٌ مثلُ عَيْن الديكِ ...
منسيٌّ كخيمة سيّد القوم الذين
تبعثروا كالريش. سَجَّادٌ من الصوف
المجعَّد. مُعْجَمٌ مُتآكلٌ. كُتُبٌ مُجَلَّدةٌ

على عَجَلٍ. مخدّاتٌ مطرَّزَةٌ بإبرة
خادم المقهى. سكاكينٌ مُجَلَّخةٌ لذبح
الطير والخنزير. ڤيديو للإباحيات.
باقاتٌ من الشوك المُعَادِلِ للبلاغةِ.
شُرْفَةٌ مفتوحةٌ للاستعارة: ها هنا
يَتَبادَلُ الأتراكُ والإغريقُ أدوارَ
الشتائم. تلك تَسْلِيَتي وتَسْلِيَةُ
الجنود الساهرين على حدود فُكاهةٍ
سوداء .../

ليس مسافراً هذا المسافرُ، كيفما اتَّفَقَ ...
الشمالُ هو الجنوبُ، الشرقُ غَرْبٌ
في السراب. ولا حقائبَ للرياح،
ولا وظيفة للغبار. كأنه يُخفي
الحنينَ إلى سواهُ، فلا يُغنِّي ... لا

يُغَنِّي حين يدخُلُ ظلَّه شَجَرَ الأكاسْيا،
أو يبلِّلُ شَعرَهُ مَطَرٌ خفيفٌ ...
بل يُناجي الذئبَ، يسأله النزالَ:
تعال يا ٱبن الكلب نَقْرَعْ طَبْلَ
هذا الليل حتى نوقظ الموتى. فإنَّ
الكُرْدَ يقتربون من نار الحقيقة،
ثم يحترقون مثل فراشة الشُّعَراء/

يعرفُ ما يريد من المعاني. كُلُّها
عَبَثٌ. وللكلمات حيلَتُها لصيد نقيضها،
عبثاً. يفضّ بكارةَ الكلمات ثم يعيدها
بكراً إلى قاموسه. ويَسُوسُ خَيْلَ
الأبجدية كالخراف إلى مكيدته، ويحلقُ
عانَةَ ٱللُغةِ: انتقمتُ من الغياب.

فَعَلْتُ ما فعل الضبابُ بإخوتي.
وشَوَيْتُ قلبي كالطريدة. لن أكون
كما أريد. ولن أحبَّ الأرض أكثر
أَو أَقلَّ من القصيدة. ليس
للكرديِّ إلاّ الريح تسكنُهُ ويسكُنُها.
وتُدْمِنُهُ ويُدْمنُها، لينجوَ من
صفات الأرض والأشياء .../

كان يخاطب المجهولَ: يا آبني الحُرّ!
يا كبش المتاه السرمديّ. إذا رأيتَ
أباك مشنوقاً فلا تُنْزِلْهُ عن حبل
السماء، ولا تُكَفِّنْهُ بقطن نشيدك
الرَّعَوِيِّ. لا تدفنه يا آبني، فالرياحُ
وصيَّةُ الكرديِّ للكرديِّ في منفاهُ،
يا آبني... والنسورُ كثيرةٌ حولي

وحولك في الأناضول الفسيح.
جنازتي سريَّةٌ رمزيّةٌ، فَخُذِ الهباءَ
إلى مصائره، وجُرَّ سماءك الأولى
إلى قاموسك السحريٍّ. واحذرْ
لَدْغَةَ الأَمَلِ الجريحِ، فإنه وَحْشٌ
خرافيّ. وأنت الآن... أنت الآن
حُرّ، يا ٱبن نفسِكَ، أنت حُرٌّ
من أبيك ولعنة الأسماء../

باللغة انتصَرْتَ على الهُوَيَّةِ،
قُلْتُ للكرديِّ، باللغة انتقمتَ
من الغيابِ
فقال: لن أَمضي إلى الصحراءِ
قُلْتُ: ولا أَنا ...

ونظرت نحو الريح/
ـ عِمْتَ مساء
ـ عمت مساء!

محمود درويش

حالة حصار

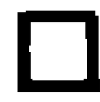


رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

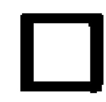
الطبعة الأُولى: نيسان/ أبريل ٢٠٠٢
الطبعة الثانية: حزيران/ يونيو ٢٠٠٢

[كُتب هذا النص في يناير ٢٠٠٢
في رام الله...]

هنا، عند مُنْحَدرات التلالِ، أَمامَ الغروبِ
وفُوَّهَةِ الوقتِ،
قُرْبَ بساتينَ مقطوعةِ الظلِّ،
نفعَلُ ما يفْعَلُ السُجناءُ،
وما يفعلُ العاطلون عَن العَمَل:
نُرَبِّي الأَمَلْ.



بلادٌ على أُهْبَة الفجر،
صرنا أَقَلَّ ذكاءً،
لأَنَّا نُحملقُ في ساعة النصر:
لا لَيْلَ في ليلنا المُتَلأْلِىء بالمدفَعِيّةِ
أَعداؤنا يسهرونَ،
وأَعداؤنا يُشْعلون لنا النورَ
في حلكة الأَقبيةْ.



هنا، بعد أَشعار «أَيوب» لم ننتظر أَحداً...

□

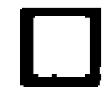
هنا، لا «أَنا»
هنا يتذكّرُ «آدمُ» صلصالَهُ

□

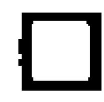
سيمتدُّ هذا الحصار إلى أن نُعَلِّم أَعداءنا
نماذجَ من شعرنا الجاهليّ.

□

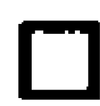
أَلسماءُ رصاصيَّةٌ في الضُّحى
برتقاليَّةٌ في الليالي. وأَما القلوبُ
فظلَّت حياديَّةً مثل ورد السياج



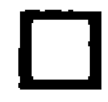
في الحصار، تكون الحياةُ هي الوقتُ
بين تذكُّر أَوَّلها
ونسيان آخرها...



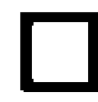
أَلحياةْ.
الحياةُ بكاملها،
الحياةُ بِنُقْصَانها،
تستضيفُ نجوماً مُجاوِرَةً
لا زمانَ لها...
وغيوماً مُهاجرةً
لا مكانَ لها.
والحياةُ هنا
تتساءلُ:
كيف نُعيدُ إليها الحياةْ



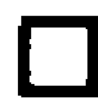
يقولُ على حافّة الموتِ:
لم يَبْقَ بي مَوْطىء للخسارةِ،
حُرٌّ أَنا قُرْبَ حُرّيتي
وغدي في يدي...
سوف أَدخُلُ، عما قليلٍ، حياتي
وأُولَدُ حُرّاً بلا أَبَوْينِ،
وأَختارُ لاسمي حروفاً من اللاَزَوَرْد...



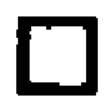
هنا، عند مُرتفعات الدُّخان، على دَرَج البيت
لا وَقْتَ للوقتِ،
نفعَلُ ما يفعَلُ الصاعدونَ إلى اللّهِ:
نَنْسَى الألَمْ



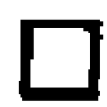
الأَلَمْ
هُوَ: أَن لا تُعَلِّق سيِّدةُ البيت حَبْلَ الغسيل
صباحاً، وأَن تكتفي بنظافةِ هذا العَلَمْ



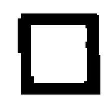
لاَ صدىً هوميريّ لشيء هنا.
فالأساطيرُ تطرُقُ أَبوابنا حين نحتاجُها
لا صدىً هوميريّ لشيءٍ...
هنا جنرالٌ يُنَقِّبُ عن دَوْلة نائمةْ
تحت أَنقاضِ طروادةَ القادمةْ



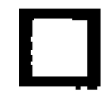
يقيسُ الجنودُ المسافةَ بين الوجود
وبين القَدَمْ
بمنظار دَبَّابةٍ...



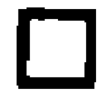
نقيسُ المسافةَ ما بينَ أَجسادنا
والقذيفةِ... بالحاسَّة السادسةْ



أَيُّها الواقفون على العَتَبات آدخلوا،
وآشربوا مَعَنا القهوةَ العربيَّةَ
[قَدْ تَشْعُرونَ بأَنَّكُمْ بَشَرٌ مثلنا]
أيُّها الواقفون على عَتَباتِ البيوتِ،
اخرجوا من صباحاتنا،
نطمئنَّ إلى أَنَّنا
بَشَرٌ مثلكُمْ!



نجدُ الوقتَ للتسليةْ:
نلعب النرْدَ، أَو نتصفَّحُ أَخبارَنا
في جرائدِ أَمسِ الجريحِ،
ونقرأُ زاويةَ الحظّ: في عامِ
أَلفينِ واثنينِ تبتسمُ الكاميرا
لمواليدِ بُرْجِ الحصارْ



كُلَّما جاءني الأمس، قُلْتُ لَهُ:
ليس موعدنا اليوم، فلتبتعدْ
وتعالَ غدا!

□

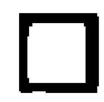
قال لي كاتبٌ ساخرٌ:
لو عرفتُ النهايةَ، منذ البداية،
لم يَبْقَ لي عَمَلٌ في اللُّغَةْ

□

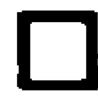
كُلُّ مَوْتٍ،
وإنْ كان مُنْتَظَراً،
هُوَ أَوَّلُ موتٍ
فكيف أَرى
قمراً
نائماً تحت كُلِّ حَجَرْ؟

□

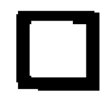
أُفكِّرُ، من دون جَدْوَى:
بماذا يفكِّرُ مَنْ هُوَ مثلي، هُنَاكَ
على قمَّة التلِّ، مُنْذُ ثلاثةِ آلافِ عامٍ،
وفي هذه اللحظة العابرةْ؟
فتوجعني الخاطرةْ
وتنتعشُ الذاكرةْ.



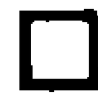
عندما تختفي الطائراتُ تطيرُ الحماماتُ،
بيضاءَ، بيضاءَ. تغسلُ خدَّ السماء
بأجنحةٍ حُرَّةٍ، تستعيدُ البهاءَ وملكيَّةَ
الجوِّ واللَهْوِ. أَعلى وأَعلى تطيرُ
الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ. لَيْتَ السماءَ
حقيقيّةٌ [قال لي رجلٌ عابرٌ بين قنبلتيْنْ].



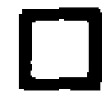
الوميضُ، البصيرةُ، والبرقُ
قَيْدَ التشابُهِ...
عمَّا قليلٍ سأعرف إن كان هذا
هو الوَحْيُ...
أَو يعرفُ الأصدقاءُ الحميمونَ
أَنَّ القصيدةُ مَرَّتْ،
وأودتْ بشاعِرِها...



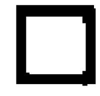
[إلى ناقدٍ:] لا تُفَسِّرْ كلامي
بملْعَقَةِ الشايِ أَو بفخاخِ الطيورِ!
يحاصُرني في المنام كلامي،
كلامي الذي لم أَقُلْهُ،
وَيكْتُبُني ثم يتركني باحثاً
عن بقايا منامي...



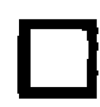
شَجَرْ السَرْو، خلف الجنود، مآذنُ
تحمي السماءَ من الانحدار. وخلف سياج
الحديد جنودٌ يبولون . تحت حراسة دبَّابةٍ .
والنهارُ الخريفيُّ يُكْملُ نزهتَهُ الذهبيَّةَ
في شارعٍ واسعٍ كالكنيسةِ
بعد صلاة الأَحَدْ...



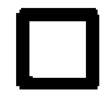
بلادٌ على أُهْبَةِ الفجرِ،
لن نختلفْ
على حصَّة الشُّهَداءِ من الأرضِ،
ها هُمْ سَوَاسِيَةٌ
يفرشون لنا العُشْبَ
كي نأتلفْ!



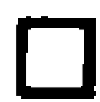
نُحِبُّ الحياةَ غداً
عندما يصل الغَدُ سوف نحبُّ الحياة
كما هِيَ، عادةً ماكرةْ
رماديّةً أَو مُلَوَّنَةً،
لا قيامةَ فيها ولا آخِرَةْ.
وإن كان لا بُد من فَرَحٍ
فليكُنْ
خفيفاً على القلب والخاصِرَةْ!
فلا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ المتمرِّنُ
من فَرَحٍ... مَرَّتَيْن!



[إلى قاتلٍ:] لو تأمَّلْتَ وجه الضحيّةْ
وفكَّرتَ، كُنْتَ تذكَّرتَ أُمَّكَ في غُرفَةِ
الغازِ، كُنْتَ تحرَّرتَ من حكمة البندقيّةْ
وغيَّرتَ رَأيَكَ: ما هكذا تُستَعَادُ الهُويَّة!



[إلى قاتل آخر:] لو تَرَكْتَ الجَنِينَ
ثلاثين يوماً، إذاً لتغيَّرتِ الاحتمالاتُ:
قد ينتهي الاحتلالُ ولا يتذكَّرُ ذاك
الرضيعُ زمان الحصار،
فيكبر طفلاً مُعَافى، ويصبحُ شابّاً
ويَدْرُسُ في معهدٍ واحدٍ مَعَ إحدى بَنَاتِكَ
تاريخَ آسيا القديمَ
وقد يَقَعَانِ معاً في شِباك الغرامِ
وقد يُنْجِبانِ ابنةً [وتكونُ يهوديّةً بالولادةِ]
ماذا فعلتَ إذاً؟
صارت ابنتُكَ الآن أرملةً
والحفيدةُ صارت يتيمةْ؟
فماذ فَعَلْت بأُسْرَتِكَ الشاردةْ
وكيف أَصبتَ ثلاثَ حمائمَ بالطلقة الواحدةْ؟



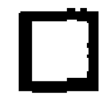
لم تكن هذه القافيةْ
ضروريَّةً، لا لضبط النغمْ
ولا لاقتصاد الأَلمْ
إنها زائدةْ
كذبابٍ على المائدةْ

□

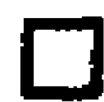
الضبابُ ظلامٌ، ظلامٌ كثيفُ البياضِ
تُقَشِّرُهُ البرتقالةُ والمرأةُ الواعدةْ

□

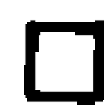
وحيدون، نحن وحيدون حتى الثمالة،
لولا زياراتُ قَوْسِ قُزَحْ



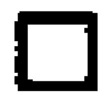
هل نُسِيء إلى أَحدٍ؟ هل نُسيء إلى
بَلَدٍ، لو أَصِبْنا، ولو من بعيدٍ،
ولو مرةً، برذاذ الفَرَحْ؟



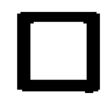
الحصارُ هو الانتظار
هو الانتظارُ على سُلَّم مائلٍ وَسَطَ العاصِفَةْ



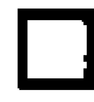
لنا أخوةٌ خلف هذا المدى
أخوةٌ طيِّبون، يُحبُّوننا، ينظرون إلينا
ويبكون، ثُمَّ يقولون في سرِّهمْ:
«ليت هذا الحصار هنا عَلنيٌّ...»
ولا يُكْمِلُون العبارةَ: «لا تتركونا
وحيدين.. لا تتركونا»



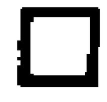
أَلقبائلُ لا تستعينُ بكسرى
ولا قَيْصَرٍ، طَمَعاً بالخلافةِ،
فالحُكْمُ شُورى على طَبَقِ العائلةْ
ولكنَّها أُعجِبَتْ بالحداثةِ
فاستبدلَتْ
بطائرةٍ إِبِلَ القافلةْ



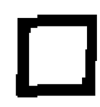
سأَصرُخُ في عُزْلتي،
لا لكيْ أُوقِظَ النائمينْ.
ولكنْ لتُوقِظَني صَرْختي
مِنْ خيالي السجينْ!



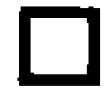
أَنا آخر الشعراء الذين
يؤرِّقُهُمْ ما يُؤَرِّقُ أَعداءَهم:
رُبَّما كانت الأَرضُ ضيِّقَةً
على الناس،
والآلهة



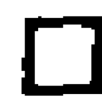
هُنَا، تتجمَّعُ فينا التواريخُ حمراءَ،
سوداءَ. لولا الخطايا لكان الكتابُ
المُقَدَّسُ أَصغَرَ. لولا السرابُ لكانت
خُطَى الأنبياءِ على الرمل أَقوى، وكان
الطريقُ إلى الله أَقَصَرَ
فَلْتُكْمِلِ الأَبديَّةُ، أَعمالها الأَزليَّةَ...
أَمَّا أَنا، فسأهمسُ للظلّ: لو
كان تاريخُ هذا المكانِ أَقَلَّ زحاماً
لكانت مدائحُنا للتضاريس في
شَجَر الحَوْرِ... أكثرْ!



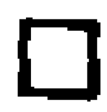
خَسَائِرُنا: من شهيدَيْن حتى ثَمَانيةٍ
كُلَّ يوم،
وعشرةُ جَرْحَى
وعشرونَ بيتاً
وخمسونَ زيتونةً،
بالإضافة للخَلَل البنيويِّ الذي
سيُصيبُ القصيدةَ المسرحيةَ واللوحةَ الناقصةْ



نُخَزِّنُ أَحزاننا في الجِرار، لئلاَّ
يراها الجنودُ فيحتفلوا بالحصار...
نُخَزِّنُها لمواسمَ أُخرى،
لذكرى،
لشيء يفاجئنا في الطريق.
فحين تصيرُ الحياةُ طبيعيَّةً
سوف نحزن كالآخرين لأشياءَ شخصيّةٍ
خَبَّأَتْهَا عَنَاوينُ كبرى،
فلم نَنْتَبِهْ لنزيف الجُروح الصغيرةِ فينا.
غداً حين يَشْفَى المكانُ
نُحِسُّ بأَعراضِهِ الجانبيّةْ

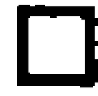


فِي الطريق المُضَاءِ بقنديل منفى
أَرى خيمةً في مَهَبِّ الجهاتْ:
الجنوبُ عَصِيٌّ على الريحِ،
والشرقُ غَرْبٌ تَصَوَّفَ،
والغربُ هُدْنَةُ قَتْلى يسكُّون نَقْدَ السلام.
وأَمَّا الشمالُ، الشمال البعيد
فليس بجغرافيا أَو جِهَةْ
إنه مجمع الآلهةْ!



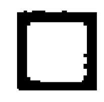
يقولُ لها: انتظريني على حافَّة الهاويةْ
تقولُ: تَعَالَ... تَعَالَ! أَنا الهاويةْ

قالت امرأةٌ للسحابة: غَطِّي حبيبي
فإن ثيابي مُبَلَّلةٌ بِدَمِهْ!

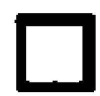


إذا لم تَكُنْ مَطَراً يا حبيبي
فكُنْ شجَراً
مُشْبَعاً بالخُصُوبَةِ... كُنْ شَجَرا
وإن لم تَكُنْ شَجَراً يا حبيبي
فكُنْ حجراً
مُشْبعاً بالرطوبةِ... كُنْ حجرا
وإن لم تكن حَجراً يا حبيبي
فكُنْ قمراً
في مَنَام الحبيبةِ... كُنْ قمرا
[هكذا قالت امرأةٌ
لابنها في جنازته]

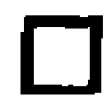
[إلى الليل:] مهما ادّعَيْتَ المُسَاواةَ
«كُلُّكَ للكُلِّ]... للحالمينَ وحُرَّاسِ
أحلامهم، فلنا قَمَرٌ ناقصٌ، ودَمٌ
لا يُغَيِّرُ لَوْنَ قميصِكَ يا لَيْل...



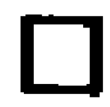
نُعزِّي أَباً بابنه: «كَرَّم اللهُ وَجْهَ الشهيدْ»
وبعد قليلٍ، نُهَنِّئُهُ بوليدٍ جديدْ.



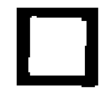
[إلى الموت:] نعرف من أَيٍّ دَبَّابةٍ
جئْتَ. نعرف ماذا تريدُ... فَعُدْ
ناقصاً خاتَماً. واعتذرْ للجنود وُضبَّاطهم،
قائلاً: قد رآني العروسانِ أَنظُرُ
نحوهما، فتردَّدتُ ثم أَعَدْتُ العروسَ
إلى أَهلها... باكيةْ!



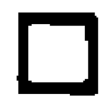
إلٰهي... إلٰهي! لماذا تخلَّيْتَ عنّي
وما زلتُ طفلاً... ولم تَمْتَحِنِّي؟



قالت الأُمُّ:
لم أَرَهُ ماشياً في دَمِهْ
لم أَرَ الأُرْجُوانَ على قَدَمِهُ
كان مُسْتَنِداً للجدارِ
وفي يَدِهِ
كأسُ بابونجٍ ساخنٍ
ويُفَكِّرُ في غَدِهِ...



قالت الأمُّ: في بادىء الأَمرِ لم
أَفهمِ الأمرَ. قالوا: تَزوَّجَ منذ
قليلٍ. فزَغْرَدْتُ، ثُمَّ رَقَصْتُ وَغَنَّيْتُ
حتى الهزيعِ الأخيرِ من الليلِ، حيث
مضى الساهرون ولم تبق إلاَّ سلالُ
البَنَفْسَج حَوْلي. تساءلتُ: أَين العروسانِ؟
قِيلَ: هنالك فوق السماء مَلاَكَانِ
يَسْتَكْملان طُقُوسَ الزواجِ. فَزَغْرَدْتُ،
ثُمَّ رَقَصْتُ وغنَّيْتُ حتى أُصِبْتُ
بداء الشَلَلْ
فمتى ينتهي، يا حبيبي، شَهْرُ العَسَلْ؟



سيمتدُّ هذا الحصارُ إلى أَن
يُحِسَّ المُحَاصِرُ، مثل المُحَاصَرِ،
أَن الضَجَرْ
صِفةٌ من صِفات البَشَرْ

□

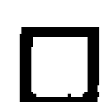
أَيُّها الساهِرونَ! أَلم تتعبوا
من مراقبة الضوء في مِلْحِنا؟
ومن وَهَج الورد في جُرْحنا
أَلم تتعبوا أَيُّها الساهِرُونْ؟

□

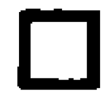
واقفون هنا. قاعدون هنا. دائمون هنا.
خالدون هنا. ولنا هَدَفٌ واحدٌ واحدٌ:
أَن نكون.
ومن بعدهِ نحن مُخْتَلِفُونَ على كُلِّ شيءٍ:
على صورة العَلَم الوطنيِّ
[ستُحْسِنُ صُنْعاً لو اخْتَرْتَ يا
شعبيَ الحيَّ رَمْزَ الحمار البسيط]
وَمُخْتَلِفُونَ على كلماتِ النشيدِ الجديدِ
[سَتُحْسِنُ صُنعاً لو آخْتَرْتَ أغنيّةً عن زواج الحمام]
ومُخْتَلِفُون على وَاجبات النساءِ
[ستُحْسِنُ صنعاً لو اخترتَ سيِّدةً لرئاسة أجهزة الأمن]
مختلفون على النِسْبَةِ المئوية، والعامِّ والخاصِّ،
مختلفون على كُلِّ شيء. لنا هَدَفٌ واحدٌ:
أَن نكون...
ومن بعده يجد الفَرْدُ مُتّسعاً لاختيار الهَدَفْ

□

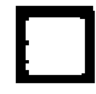
عميقاً، عميقاً
يُواصِلُ فعلُ المضارع
أَشغالَهُ اليدويّةَ،
في ما وراء الهَدَفْ...



قال لي في الطريق إلى سِجْنِهِ:
عندما أَتحرَّرُ أَعرفُ
أَنَّ مديحَ الوَطَنْ
كهجاء الوَطَنْ
مهنةٌ مثل باقي المِهَنْ



بلادٌ على أُهْبَة الفجرِ،
أَيقظْ حصانَكَ
واَصعَدْ
خفيفاً خفيفاً،
لِتَسْبقَ حُلْمَكَ،
واجلس ـ إذا ماَطَلَتْكَ السماءُ ـ
على صَخْرةٍ تَتَنهَّدْ



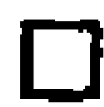
كيف أحملُ حُرّيتي، كيف تحمِلُني؟ أَين
نسكُنُ من بعد عَقْد النكاح، وماذا
أقول لها في الصباح: أَنِمْتِ كما ينبغي
أَن تنامي إلى جانبي؟ وحَلُمتِ بأرض السماء؟
وهِمْتِ بذاتكِ. هل قُمْتِ سالمةً من منامكِ
هل تشربين معي الشايَ أم قهوةً بالحليبِ؟
وهل تؤثرين عصيرَ الفواكهِ، أم قُبَلي؟
[كيف أَجعل حُرّيتي حُرَّة؟] يا غريبةُ!
لَسْتُ غريبَكِ. هذا السريرُ سريرُكِ. كوني
إِباحيَّةً، حُرَّةً، لا نهائيّةً، وانثري جَسَدي
زهرةً زهرةً بلهاثك. حُرّيتي! عَوِّديني
عليك. خُذيني إلى ما وراء المفاهيم كي
نصبح اثنين في واحدٍ!
كيف أحملها، كيف تحملني، كيف أَصبح سيِّدها
وأنا عبدها. كيف أجعل حريتي حُرّةً
دون أن نفترقْ؟

□

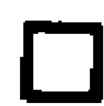
قليلٌ من المُطْلَق الأزرقِ اللانهائيِّ
يكفي
لتخفيف وَطْأَةِ هذا الزمانْ
وتنظيف حَمْأَةِ هذا المكانْ

□

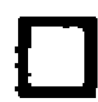
سيمتدُّ هذا الحصارُ إلى أَنْ
نُقلِّم أَشجارنا
بأيدي الأطّباء، والكَهَنَةْ



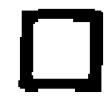
سيمتدُّ هذا الحصارُ، حصاري المجازيُّ،
حتى أُعلِّم نفسِيَ زُهْدَ التأمُّل:
ما قبل نفسي - بكتْ سَوْسَنَةْ
وما بعد نفسي - بكتْ سَوْسَنَةْ
والمكانُ يُحَمْلقُ في عَبَث الأَزمنةْ



على الروح أَن تَتَرجَّلْ
وتمشي على قَدَمَيْها الحريريَّتَيْنِ
إلى جانبي، ويداً بيدٍ، هكذا صاحبَيْن
قديمين يَقْتَسمانِ الرغيفَ القديمَ
وكأسَ النبيذ القديمِ
لنقْطَعَ هذا الطريقَ معاً
ثم تذهَبُ أَيَّامُنا في اتجاهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ:
أنا ما وراءَ الطبيعةِ. أمَّا هِيَ
فتختار أن تجلس القرفصاءَ
على صخرةٍ عاليةْ



[إلى شاعرٍ:] كُلَّما غاب عنك الغيابْ
تورَّطْتُ في عُزْلَةِ الآلهةْ
فكن «ذاتَ» موضوعكَ التائهةْ
و«موضوعَ» ذاتِكَ،
كُنْ حاضراً في الغيابْ



[إلى الشعر:] حاصِرْ حصارَكْ

□

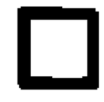
[إلى النثر:] جُرَّ البراهينَ من
مُعْجَم الفُقَهاءِ إلى واقعٍ دَمَّرَتْهُ
البراهينُ. واشَرَحْ غُبارَكْ.

□

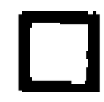
[إلى الشعر والنثر:] طِيرا معاً
كجناحَيْ سُنُونُوَّةٍ تحملانِ الربيعَ المُبارَكْ

□

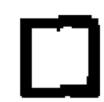
كتبتُ عن الحُبِّ عشرين سطراً
فخُيِّلَ لي
أَنَّ هذا الحصارَ
تراجَعَ عشرين متراً!...



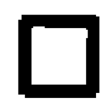
يجدُ الوقتَ للسخريةْ:
هاتفي لا يرنُّ
ولا جَرَسْ الباب أَيضاً يَرِنُّ
فكيف تيَقّنْتِ من أَنَّني
لم أَكُنْ هُنا؟



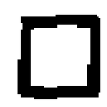
يجد الوقتَ للأُغنيةْ:
في انتظارِك، لا أستطيعُ انتظارَكِ
لا أستطيعُ قراءةَ دوستويفسكي
ولا الاستماعَ إلى «أُمّ كلثوم» أو «ماريّا كالاس»
وغيرهما. في انتظارِكِ تمشي العقاربُ في
ساعة اليدِ نحو اليسار، إلى زَمَنٍ
لا مكانَ لَهُ،
في انتظارِكِ لم أَنتظِرْكِ، انتظرتُ الأَزَلْ



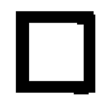
يقولُ لها: أَيّ زهر تُحِبِّينَهُ؟
فتقول: أُحِبُّ القُرُنْفُلَ... أَسْودْ
يقولْ: إلى أين تَمْضينَ بي،
والقرنفلُ أَسودْ؟
تقولْ: إلى بُؤْرةِ الضوءِ في داخلي
وتقولُ: وأَبْعَدَ... أبعدَ.. أبعَدْ.



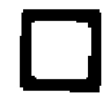
[إلى الحُبِّ:] يا حُبُّ، يا طائر الغَيْب!
دَعْنا من الأزرق الأبديّ وحُمَّى الغياب.
تعال إلى مطبخي لنُعِدَّ العَشَاءَ معاً.
سوف أَطهو، وأَنتَ تَصُبُّ النبيذ،
وتختارُ ما شئتَ من أُغنياتٍ تُذَكِّرنا
بحيادِ المكان وفَوْضَى العواطفِ: إنْ
قِيلَ إنَّكَ جِنْسٌ من الجنِّ... صَدِّقْ!
وإن قِيلَ إنَّكَ نوعٌ من الأنفلونزا... فصدِّق!
وحدِّقْ إليكَ ومَزِّقْ حجابك. لكنّك الآن
قُرْبي أَليفٌ لطيفٌ تُقَشِّرُ ثُوماً، وبعد العشاء
ستختارُ لي فيلماً عاطفيّاً قديماً،
لنشهدَ كيف غَدا البطلان هناك
هُنا شاهِدَيْنْ



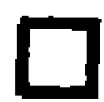
في الصباح الذي سوف يعقبُ هذا الحصارْ
سوف تمضي فتاةٌ إلى حُبِّها
بالقميص المُزَرْكَشِ، والبَنْطَلُونِ الرماديِّ
شَفَّافَةَ المَعْنَويّاتِ كالمِشْمِشيَّاتِ في
شهر آذارَ: هذا النهارُ لنا كُلُّهُ
كُلُّهُ، يا حبيبي، فلا تتأخَّرْ كثيراً
لئلاّ يَحُطَّ غرابٌ على كتفي...
وستقضمُ تُفَّاحَةً في انتظار الأَمَلْ
في انتظار الحبيب الذي
رُبَّما، رُبَّما لن يَصِلْ



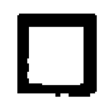
«أَنا، أَو هُوَ»
هكذا تبدأ الحربُ. لكنها
تنتهي بلقاءٍ حَرِجْ:
«أَنا و هُوَ»



«أَنا هِيَ حتى الأَبَدْ»
هكذا يبدأ الحُبّ. لكنه
عندما ينتهي
ينتهي بوداعٍ حَرِجْ:
«أَنا و هِيَ»



لا أُحبُّكَ، لا أكرهُكَ
قال مُعْتَقَلٌ للمحقِّقِ: قلبي مَلِيءٌ
بما ليس يَعْنيك. قلبي يفيضُ برائحةِ المَرْيميَّةِ،
قلبي بريءٌ، مُضِيءٌ، مَليءٌ،
ولا وَقْتَ في القلب للامتحان. بلى،
لا أُحبُّكَ. مَنْ أَنْتَ حتَّى أُحبَّكَ؟
هل أَنت بعضُ أَنايَ، وموعدُ شايٍ
وَبُحَّةُ نايٍ، وأُغنيةٌ كي أُحبَّكَ؟
لكنني أكرهُ الاعتقال ولا أكرهُكْ.
هكذا قال مُعْتقلٌ للمحقِّق: عاطِفتي
لا تَخُصُّكَ. عاطفتي هي لَيْلي الخصوصيُّ...
لَيْلي الذي يتحرَّكُ بين الوسائد حُرّاً
من الوزن والقافيةْ!



سيمتدُّ هذا الحصار إلى أَن يُنَقِّحَ
سادةُ «أولمب» إلياذةَ الخالدةْ

□

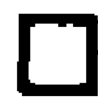
سيولَدُ طفلٌ، هنا الآن،
في شارع الموت... في الساعة الواحدةْ

□

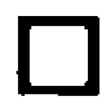
سيلعب طفلٌ بطائرةٍ من وَرَقْ
بألوانها الْأَربعة
[أَحمر، أَسود، أَبيض، أَخضر]
ثم يدخلُ في نجمةٍ شاردةْ

□

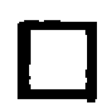
جَلَسْنَا بعيدينَ عن / مصائرنا كطيورٍ
تُؤَثِّثُ أَعشاشَها في ثُقُوب التماثيلِ،
أَو في المداخنِ،
أَو في الخيام التي نُصِبَتْ
في طريقِ الأمير إلى رِحْلة الصَيْدْ...



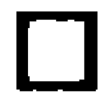
[إلى حارسٍ:] سأُعلِّمُكَ الانتظارْ
على باب موْتي المؤجَّلْ
تمهَّلْ، تمهَّلْ
لعلَّك تسأمُ منِّي
وترفَعُ ظلَّكَ عَنِّي
وتدخُلُ ليلَكَ حُرّاً
بلا شَبَحي!



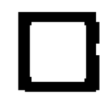
[إلى حارسٍ آخر:] سأُعلِّمُكَ الانتظارْ
على باب مَقْهى
فتسمع دقّاتِ قلبِكَ أَبطأَ، أَسْرَعَ
قد تعرفُ القشعريرةَ مثلي
تمهَّلْ،
لعلَّكَ مثلي تُصفِّر لحناً يُهَاجِرُ
أَندُلسِيَّ الأسى، فارسيَّ المدارْ
فيوجِعُكَ الياسمينُ، وترحَلْ



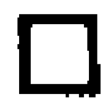
[إلى حارس ثالث:] سأعلِّمك الانتظارْ
على مقْعَدٍ حَجَريٍّ، فقَدْ
نتبادِلُ أسماءنا. قد ترى
شَبَهاً طارئاً بيْنَنا:
لَكَ أمٌّ
ولي والدةْ
ولنا مَطَرٌ واحدٌ
ولنا قَمَرٌ واحدٌ
وغيابٌ قصيرٌ عن المائدةْ



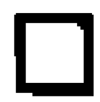
على طَلَلي يَنْبُتُ الظلُّ أَخْضَرَ،
والذئبُ يغفو على شَعْرِ شاتي
ويحلُمْ مثلي،
ومثل الملاكْ
بأَنَّ الحياةَ هنا
لا هُناكْ...



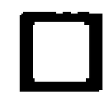
الأَساطيرُ ترفضُ تَعْدِيلَ حَبْكَتها
رُبَّما مَسَّها خَلَلٌ طارئٌ
رُبَّما جَنَحَتْ سُفُنٌ نحو يابسةٍ
غيرِ مأهولةٍ،
فأُصيبَ الخياليُّ بالواقعيِّ...
ولكنها لا تُغَيِّر حَبْكَتَهَا.
كُلَّما وَجَدَتْ واقعاً لا يلائِمُها
عدَّلَتْهُ بجرَّافَةٍ،
فالحقيقةُ جاريةُ النصّ، حَسْنَاءُ
بيضاءُ، من غير سُوء...



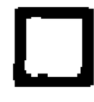
[إلى شبه مستشرق:] ليكُنْ ما تَظُنُّ
لنفترضِ الآن أَني غبيٌّ، غبيٌّ، غبيٌّ
ولا ألعبُ الجولف،
لا أفهمُ التكنولوجيا،
ولا أستطيعُ قيادةَ طَيَّارةٍ!
ألهذا أخذتَ حياتي لتصنع منها حياتَكَ؟
لو كُنْتَ غيرَكَ، لو كُنْتُ غيري
كُلُّنا صديقَيْنِ يعترفانِ بحاجتنا للغباء...
أَما للغبيِّ، كما لليهوديّ في
«تاجر البندقية» قَلْبٌ، وخبزٌ
وعينانِ تغرورقان؟



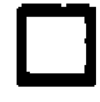
في الحصار، يصيرُ الزمانُ مكاناً
تحجَّرَ في أبَدِهْ
في الحصار، يصيرُ المكانُ زماناً
تخَلَّفَ عن مَوْعِدِه



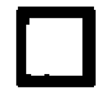
المكانُ هُوَ الرائحةْ
عندما أتذكَّرُ أَرضاً
أَشُمُّ دَمَ الرائحة
وأَحِنُّ إلى نَفْسِيَ النازحةْ



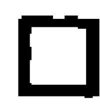
هذه الأرضُ واطئةٌ، عاليةْ
أَو مُقَدَّسَةٌ، زانيةْ
لا نُبالي كثيراً بفِقْهِ الصفاتِ
فقد يصبحُ الفَرْجُ،
فَرْجُ السمواتِ،
جغرافيةْ!



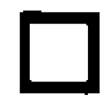
أَلشهيدُ يحاصرني كُلَّما عِشْتُ يوماً جديداً
ويسألني: أَين كُنْتَ؟
أَعِدْ للقواميس كُلَّ الكلام الذي
كُنْتَ أَهْدَيْتَنِيهِ،
وخفِّفْ عن النائمين طنينَ الصدى!



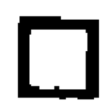
أَلشهيدُ يُوَضِّحُ لي: لم أُفتِّشْ وراء المدى
عن عذارى الخلود، فإني أُحبُّ الحياةَ
على الأرض، بين الصنوبر والتين، لكنني
ما استطعتُ إليها سبيلاً،
ففتَّشْتُ عنها بآخرِ ما أَملكُ:
الدمُ في جَسَدِ اللازوردْ



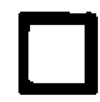
أَلشهيدُ يُعَلِّمني: لا جماليَّ خارجَ حُرِّيتي



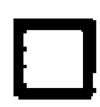
أَلشهيدُ يُحذِّرني: لا تُصَدِّقْ زغاريدهُنَّ
وصدِّقْ أَبي حين ينظر في صورتي باكياً:
كيف بَدَّلْتَ أدوارنَا، يا بُنَيَّ،
وسِرْتَ أَمامي؟
أَنا أوَّلاً
وأَنا أَوَّلاً!



أَلشهيدُ يُحاصِرُني: لم أغيِّرْ سوى مَوْقعي
وأثاثي الفقيرِ،
وَضَعْتُ غزالاً على مخدعي
وهلالاً على إصبعي
كي أُخفِّفَ من وَجَعي



أَلشهيدُ يحاصرني: لا تَسِرْ في الجنازةِ
إلاَّ إذا كُنْت تعرفُني.
لا أُريدُ مجاملةً من أحَدْ



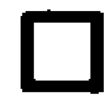
سَيَشْتَدُّ هذا الحصارُ
ليُقْنِعَنا
باختيارِ عَبُوديَّةٍ لا تَضُرُّ،
ولكنْ بحريّةٍ كاملةْ

□

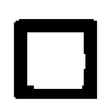
أَن تُقاوِمَ يعني: التأكُّدَ مِنْ
صحَّة القلبِ والخُصْيَتَيْنِ،
ومن دائِكَ المتأصِّلِ:
داءِ الأَملْ

□

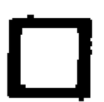
وفي ما تبقَّى من الفجر أَمشي إلى خارجي
وفي ما تبقَّى من الليل أسَمعُ وَقْع الخُطى داخلي



إذا مَرِضَ الحُبُّ عالجتُهُ
بالرياضة والسخريةْ
وبفَصْل المُغنِّي عن.. الأُغنيةْ



أَلحصار يُحوّلني من مُغَنّ إلى...
وَتَرٍ سادس في الكمانْ



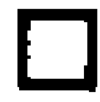
[إلى قارىء:] لا تثقْ بالقصيدةِ،
بِنْتِ الغياب،
فلا هِيَ حَدْسٌ
ولا هِيَ فكرٌ
ولكنها حاسَّة الهاويةْ

□

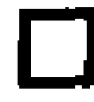
الكتابة جَرْوٌ صغيرٌ يَعَضُّ العَدَمْ
الكتابةُ تجرحُ من دون دَمْ

□

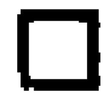
أصدقائي يُعِدُّون لي دائماً حَفْلَةً
للوداع، وقبراً مريحا يُظَلِّلَهُ السنديانُ
وشاهدةً من رُخام الزَمَنْ
فأسبقهم دائماً في الجنازةِ:
مَنْ ماتَ... مَنْ؟



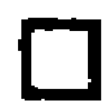
ألشهيدةُ بنتُ الشهيدة بنتُ الشهيد
وأُختُ الشهيد وأختُ الشهيدة كِنْةُ
أمٍّ الشهيد حفيدةُ جدٍّ شهيد
وجارةُ عمٍّ الشهيد [الخ... الخ...]
ولا شيء يحدَثُ في العالم المتمدِّنِ،
فالزمنَ البربريُّ انتهى،
والضحيَّةُ مجهولَةُ الإسم، عاديّةٌ
والضحيَّةُ.. مثل الحقيقة؟.. نسبيٌّةٌ
[الخ... الخ...]



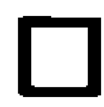
هدوءاً، هدوءاً، فإن الجنودَ يريدون
في هذهِ الساعةِ الاستماعَ إلى الأغنياتِ
التي استمَع الشُهدَاءُ إليها، وظلَّتْ
كرائحة البُنِّ في دَمِهِمْ... طازجَة



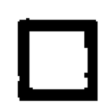
هُدْنَةٌ، هدنةٌ لاختبار التعاليم:
هل تصلحُ الطائراتُ محاريثَ؟
قُلْنا لهم: هدنةٌ، هدنةٌ لامتحان النوايا،
فقد يتسرَّبُ شيءٌ من السِلْم للنفس!
عندئذ نتبارى على حُبِّ أشيائنا
بوسائلَ شعريّةٍ.
فأجابوا: ألا تعلمون بأنَّ السلامَ مَعَ النَفْسِ
يفتحُ أَبوابَ قَلْعَتَنا
لِمَقامِ الحجاز أَو النَهَوَنْد؟
فقلنا: وماذا؟... وبَعْد؟



فناجينُ قهوتنا. والعصافيرُ. والشَجَرُ الأَخضَرُ
الأزرقُ الظلِّ. والشمسُ تقفزُ من
حائط نحو آخَرَ مثلَ الغزالة...
والماءُ في السُحُبِ اللانهائيّة الشكلِ
في ما تبقَّى لنا من سماء،
وأشياءُ أُخرى مُؤَجَّلَةُ الذكريات
تدلُّ على أن هذا الصباح قويٌّ بهيٌّ،
وأَنَّا ضيوفٌ على الأَبديّةْ.

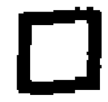


بلادٌ على أُهْبَة الفجرِ،
عمَّا قليلْ
تنامُ الكواكبُ في لُغَة الشِعْر.
عمَّا قليلْ
نودِّعُ هذا الطريقَ الطويلْ
ونسألُ: من أَين نبدأُ؟
عمَّا قليلْ
نُحذِّرُ نرجِسَنا الجَبليَّ الجميلْ
من الافتتان بصورتِهِ: لم تَعُدْ
صالحاً للقصيدةِ، فانظرْ
إلى عابرات السبيلْ



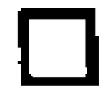
سلامٌ على مَنْ يُشَاطِرُني الانتباهَ إلى
نَشْوَةِ الضوء، ضوءِ الفراشةِ، في
لَيْل هٰذا النَفَقْ!

سلامٌ على مَنْ يُقَاسِمُني قَدَحي
في كثافة لَيْلٍ يفيضُ من المقعدَيْن:
سلامٌ على شَبَحي!



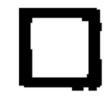
أَلسلامُ كلامُ المُسَافرِ في نَفْسِهِ
للمسافر في الجِهَةِ الثانِيَةْ...

أَلسلامُ حَمَامُ غَرِيبَيْنِ يقتسمان الهديلَ
الأخيرَ، على حافَّة الهاويةْ



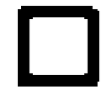
أَلسلامُ حنينُ عَدُوَّين، كُلٌّ على حِدَةٍ
للتثاؤُبِ فوق رصيف الضَجَرْ

أَلسلامُ أَنينُ مُحبِّيْنِ يغتسلانِ
بضوء القَمَرْ



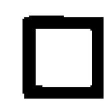
أَلسلامُ اعتذارُ القويِّ لمن هُوَ
أَضعفُ منه سلاحاً، وأَقوى مَدى

أَلسلامُ انكسارُ السيوف أَمام الجمالِ
الطبيعيِّ، حيث يَفُلُّ الحديدَ الندى



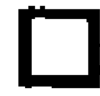
أَلسلامُ نهارٌ أليفٌ، لطيفٌ، خفيفُ
الخُطَى، لا يُعَادي أَحَدْ

أَلسلامُ قَطارٌ يُوحِّدُ سُكَّانَهُ العائدينَ
أَو الذاهبينَ إلى نُزْهَةٍ في ضواحي الأبَدْ



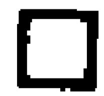
أَلسلامُ هو الاعترافُ، علانيّةً، بالحقيقةِ:
ماذا صَنَعْتُمْ بطيف القتيلْ؟

أَلسلامُ هُوَ الانصرافُ إلى عَمَلٍ في الحديقة:
ماذا سنزرَعُ عمَّا قليلْ؟



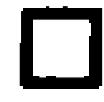
أَلسلامُ هُوَ الانتباهُ إلى الجاذبيَّةِ في
مُقْلَتَيْ ثَعْلَبٍ تُغْوِيان الغريزةَ في امرأةٍ خائفةْ

أَلسلامُ هُوَ الآه تُسْنِدُ مُرْتَفَعَاتِ
المُوَشَّحِ، في قلب جيتارةٍ نازفةْ



أَلسلامُ رثاءُ فتىً ثُقَبَتْ قلبَهُ شامَةُ
امرأةٍ، لا رَصاصٌ ولا قُنْبُلةْ

أَلسلامُ غناءُ حياةٍ هنا، في الحياةِ،
على وَتَر السُنْبُلَةْ



محمود درويش

لماذا تركت الحصان وحيداً؟



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥
الطبعة الثانية: أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠
الطبعة الثالثة: شباط/ فبراير ٢٠٠١

القصائد

١ ـ أرى شبحي قادماً من بعيد ٢٧٧

I ـ أيقونات من بلّور المكان

٢ ـ في يدي غيمة ٢٨٥
٣ ـ قرويون من غير سوء ٢٩٠
٤ ـ ليلة البوم ٢٩٤
٥ ـ أَبَدُ الصُبَّار ٢٩٨
٦ ـ كم مرة ينتهي أمرنا ٣٠٢
٧ ـ إلى آخري وإلى آخره ٣٠٦

II ـ فضاء هابيل

٨ ـ عود إسماعيل ٣١١
٩ ـ نزهة الغرباء ٣١٦
١٠ ـ حبر الغراب ٣٢٠
١١ ـ سنونو التتار ٣٢٤
١٢ ـ مرّ القطار ٣٢٨

III ـ فوضى على باب القيامة

١٣ ـ البئر ٣٣٥
١٤ ـ كالنون في سورة الرحمن ٣٣٩
١٥ ـ تعاليم حورية ٣٤٣
١٦ ـ أمشاط عاجية ٣٤٨
١٧ ـ أطوار أَنات ٢٥٣
١٨ ـ مصرع العنقاء ٣٥٧

IV ـ غرفة للكلام مع النفس

١٩ ـ تدابير شعرية ٣٦٥
٢٠ ـ من روميات أبي فراس الحمداني ٣٦٩
٢١ ـ من سماء إلى أختها يعبر الحالمون ٣٧٢
٢٢ ـ قال المسافر للمسافر: لن أعود كما... ٣٧٦
٢٣ ـ قافية من أجل المعلقات ٣٨١
٢٤ ـ الدوري، كما هو كما هو... ٣٨٥

V ـ مطر فوق برج الكنيسة

٢٥ ـ هيلين، يا له من مطر ٣٩١
٢٦ ـ ليل يفيض من الجسد ٣٩٦
٢٧ ـ للغجرية، سماء مُدَرَّبة ٤٠٠
٢٨ ـ تمارين أولى على جيتارة أسبانية ٤٠٤
٢٩ ـ أيام الحب السبعة ٤٠٨

VI ـ أغلقوا المشهد

٣٠ ـ شهادة من برتولت بريخت أمام محكمة عسكرية ٤١٧

٣١ ـ خلاف، غير لغوي، مع امرىء القيس ٤٢١
٣٢ ـ متتاليات لزمن آخر ٤٢٥
٣٣ ـ عندما يبتعد ٤٣٠

إلى ذكرى الغائبين:
جَدّي: حسين
جَدَّتي: آمنة
وأَبي: سليم

وإلى الحاضرة:
حورية، أمي

أرى شَبَحي
قادماً من بعيد...

أُطِلُّ كَشُرْفة بَيْتٍ، على ما أُريدْ
أُطِلُّ على أَصدقائي وهم يحملون بريدَ
المساء: نبيذاً وخبزاً،
وبعضَ الرواياتِ والأسطواناتْ ...

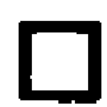
أُطلُّ على نَوْرَسٍ، وعلى شاحنات جُنُودْ
تُغَيِّرُ أَشجارَ هذا المكانْ.

أُطلُّ على كَلْبِ جاري المُهَاجرِ
مِنْ كَنَدا، منذ عامٍ ونصف...

أُطلُّ على اسم «أَبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي»،
المسافر من طبريَّا إلى مصر
فوق حصان النشيدْ

أُطلُّ على الوَرْدَةِ الفارسيَّةِ تصعَدُ
فوق سياج الحديدْ

أُطلُّ، كشُرْفة بَيْتٍ، على ما أُريدْ

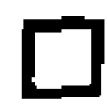


أُطلُّ على شَجَرٍ يحرُسُ الليل من نَفْسِهِ
ويحرس نَوْمَ الذين يُحبُّونني مَيِّتاً ...

أُطلُّ على الريح تبحَثُ عن وَطَن الريحِ
في نفسها ...

أُطِلُّ على امرأةٍ تَتَشَمَّسُ في نفسها ...

أُطلُّ على موكب الأنبياء القُدامى
وهم يَصْعَدُون حُفَاةً إلى أُورشليم
وأَسْأَلُ: هَلْ من نَبيٍّ جديدٍ
لهذا الزمان الجديدْ



أُطلُّ، كشرفة بيت، على ما أُريدْ

أُطلُّ على صورتي وَهْيَ تهرب من نفسها
إلى السُلَّم الحجريّ، وتحمل منديل أُمّي
وتخفق في الريح: ماذا سيحدث لو عُدْتُ
طفلاً؟ وعدتُ إليكِ ... وعدتِ إليَّ

أُطلُّ على جذع زيتونةٍ خبَّأَتْ زكريّا
أُطلُّ على المفردات التي انقَرَضَتْ في «لسان العربْ»

أُطلُّ على الفُرْس، والرومِ، والسومريّين،
واللاجئينَ الجُدُدْ ...

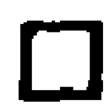
أُطلُّ على عِقْد إحدى فقيراتِ طاغورَ
تطحنُهُ عَرَبَاتُ الأَمير الوسيمْ ...

أُطلُّ على هُدْهُدٍ مُجْهَدٍ من عتاب الملكْ

أُطلُّ على ما وراء الطبيعة:

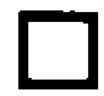
ماذا سيحدث... ماذا سيحدث بعد الرماد؟

أُطلُّ على جَسَدي خائفاً من بعيدْ ...
أُطلُّ كَشُرْفَةِ بيتٍ، على ما أُريدْ



أُطلُّ على لُغَتي بَعْدَ يَوْمَيْن. يكفي غيابٌ

قليلٌ ليفتَحَ أَسْخِيلْيُوسُ البابَ للسِلْمِ،
يكفي
خطابٌ قصير ليُشعل أنطونيو الحرب
يَدُ امرأةٍ في يدي
كي أُعانق حُرِيَّتي
وأَن يبدأ المدُّ والجزْرُ في جَسَدي من جديدْ



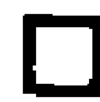
أُطلُّ، كشرفة بَيْتٍ، على ما أُريدْ

أُطلُّ على شَبَحي
قادماً
من
بعيد...

I
أَيقونات من بلَّوْرِ المكان

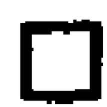
في يدي غيمة

أَسْرَجُوا الخَيْلَ،
لا يعرفون لماذا،
ولكنَّهُمْ أَسْرَجوا الخيلَ في السهلِ

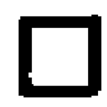


... كان المكانُ مُعَدّاً لِمَوْلِدِه: تلَّةً
من رياحين أَجدادِه تَتَلَفَّتُ شرقاً وغرباً. وزيتونةً
قُرْبَ زيتونةٍ في المَصاحف تُعْلي سُطُوحَ اللُّغَةْ...
ودخاناً من اللازَوَرْدِ يُؤَثِّثُ هذا النهارَ لمسْأَلةٍ

لا تخصٌّ سوى الله. آذارُ طفلُ
الشهور المُدَلَّلُ. آذارُ يندفُ قطناً على شَجَر
اللَوْز. آذارُ يُولِمُ خبّيزةً لِفناء الكنيسةِ.
آذارُ أَرضٌ لِلَيْلِ السُنُونو، ولامرأةٍ
تَسْتَعِدُّ لصرخَتها في البراري ... وتمتدُّ في شَجَر
السنديانْ.



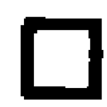
يُولَدُ الآنَ طفلٌ،
وصرختُهُ،
في شقوق المكانْ



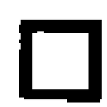
إِفتَرقْنا على دَرَج البيت. كانوا يقولونَ:
في صرختي حَذَرٌ لا يُلائِمُ طَيْشَ النباتاتِ،
في صرختي مَطَرٌ؛ هل أَسأتُ إلى إخوتي
عندما قلتُ إني رأيتُ ملائكةً يلعبون مع الذئب
في باحة الدار؟ لا أَتذكَّرُ

أَسماءَهُمْ. ولا أَتذكَّرُ أَيضاً طريقَتَهُمْ في
الكلام ... وفي خفَّة الطيرانْ

أَصدقائي يرفّون ليلاً، ولا يتركونْ
خَلْفَهُمْ أَثَراً. هل أَقولُ لأُمِّي الحقيقة:
لِيْ إِخوةٌ آخرونْ
إخوةٌ يَضَعُونَ على شرفتي قمراً
إخوةٌ ينسجون بإبرتهم معطفَ الأُقحوانْ

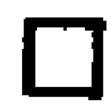


أَسْرَجُوا الخيلَ،
لا يعرفون لماذا،
ولكنهم أَسرجوا الخيل في آخر الليلِ

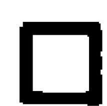


... سَبْعُ سَنَابِلَ تكفي لمائدةِ الصَيْفِ.
سَبْعُ سَنَابِلَ بين يدي. وفي كل سُنْبُلةٍ
يُنْبِتُ الحقلُ حقلاً من القمح. كانَ

أَبي يَسْحَبُ الماءَ من بئرِهِ ويقولُ
لَهُ: لا تجفَّ. ويأخذني من يَدِيْ
لأَرى كيف أكبُرُ كالفَرْفَحِينَةِ ...
أَمشي على حافَّة البئر: لِيْ قَمَرانْ
واحدٌ في الأعالي
وآخرُ في الماء يسبَحُ ... لِيْ قمرانْ

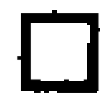


واثِقينَ، كأسلافِهِمْ، من صَوَابِ
الشرائع ... سَكُّوا حديدَ السيوفِ
محاريثَ. لن يُصْلِحَ السيفُ ما
أَفْسَدَ الصَيْفُ ـ قالوا. وصَلُّوا
طويلاً. وغنّوا مدائحهُمْ للطبيعةِ ...
لكنهم أَسرجوا الخيل،
كي يَرْقُصُوا رَقْصَةَ الخيلِ،
في فضَّة الليل ...



تَجْرحُني غيمةٌ في يدي: لا

أُريدُ من الأرض أكثَرَ مِنْ
هذه الأرضِ: رائحةِ الهالِ والقَشِّ
بين أَبي والحصانْ.
في يدي غَيْمةٌ جَرَحَتْني. ولكنني
لا أُريدُ من الشمس أَكثرَ
من حَبَّة البرتقال وأكثرَ منْ
ذَهَبٍ سال من كلمات الأَذانْ



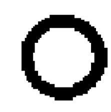
أَسْرَجُوا الخَيْلَ،
لا يعرفون لماذا،
ولكنهُمْ أسرجوا الخيل
في آخر الليل، وانتظروا
شَبَحاً طالعاً من شُقُوق المكانْ...

قرويُّون، منْ غَيْرِ سُوء..

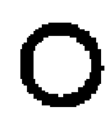
لم أَكُنْ بَعْدُ أَعرف عاداتِ أُمِّي، ولا أَهلَها
عندما جاءتِ الشاحناتُ من البحر. لكنّني
كُنْتُ أَعرفُ رائحةَ التبغ حول عباءة جدِّي
ورائحةَ القهوةِ الأبديّة، منذ وُلدتُ
كما يُولَدُ الحَيَوانُ الأليفُ هُنا
دفعةً واحدةً!

○

نحن أَيضاً لنا صَرْخَةٌ في الهبوط إلى حافَّةِ
الأرضِ. لكننا لا نُخَزِّنُ أَصواتنا
في الجرارِ العتيقةِ. لا نشنق الوَعْلَ
فوق الجدار، ولا ندَّعي مَلكُوتَ الغبارِ،
وأَحلامُنا لا تُطِلُّ على عِنَبِ الآخرين،
ولا تَكْسِرُ القاعدةْ!



لم يكن بعدُ لاسميَ ريشٌ فأقفز أبعَدَ
بعد الظهيرةِ. كانت حرارةُ أبريلَ مثل
ربابات زوّارنا العابرين تطيِّرنا كالحماماتِ.
لي جَرَسٌ أَوَّلٌ: جاذبيَّةُ أُنثى تراوغني
لأشَمَّ الحليبَ على ركبتيها، فأهرب
من لَسْعة المائدةْ!

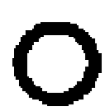


نحن أَيضاً لنا سرُّنا عندما تقع الشمسُ
عن شجر الحَوْرِ: تخطفُنا رغبةٌ في البكاء

على أَحدٍ مات من أَجل لا شيء ماتَ،
وتجرفنا صَبْوةٌ لزيارة بابلَ أَو جامعٍ
في دمشقَ، وتذرفُنا دمعةٌ من هديلِ
اليمامات في سيرة الوجع الخالدةْ!

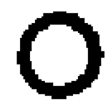


قرويُّون، من غير سوءٍ، ولا نَدَمٍ
في الكلام. وأسماؤنا مثل أَيَّامنا تتشابَهُ،
أَسماؤنا لا تدلُّ علينا تماماً. ونَنْدَسُّ
بين حديث الضيوف. لَنَا ما نَقُولُ عَنِ
الأَرض للأجنبيَّة حين تُطرِّزُ منديلَها ريشةً
ريشةً من فضاء عاصفيرنا العائدةْ!



لم تكن للمكانِ مساميرُ أَقوى من الزنزلختْ
عندما جاءتِ الشاحناتُ من البحر. كنا
نُهيِّىءُ وجبةَ أَبقارنا في حظائرها، ونرتِّبُ
أَيَّامَنا في خزائن من شُغْلنا اليدويِّ

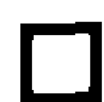
ونخطب وُدَّ الحصان، ونُومىءُ
للنجمة الشاردةْ.



نحن أَيضاً صعدنا إلى الشاحنات. يُسَامِرُنا
لَمَعانُ الزُمُرُّدِ في لَيْلِ زَيْتُونِنا، ونُباحُ
كلابٍ على قَمَرٍ عابرٍ فوق بُرْجِ الكنيسةِ،
لكننا لم نكن خائفين. لأن طفولتنا لم
تجىءْ معنا. واكتفينا بأغنية: سوف نرجع
عمَّا قليل إلى بيتنا... عندما تُفْرِغُ الشاحناتُ
حُمُولَتَها الزائدةْ!

لَيْلَة البُوم

ههُنا حاضرٌ لا يلامسُهُ الأمسُ...
حين وَصَلْنا
إلى آخرِ الشَجَرات انتبهنا إلى أَننا
لم نَعُدْ قادرِينَ على الانتباهِ. وحين
التفَتْنَا إلى الشاحنات رأينا الغيابَ
يُكَدِّسُ أَشياءه المُنْتَقَاةَ، وينصبُ
خيمَتَهُ الأبديَّةَ من حولنا...

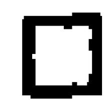


ههُنا حاضرٌ
لا يلامسه الأمسُ،
ينسَلُّ من شَجَر التوت خيطُ الحرير
حروفاً على دفتر الليل. لا شيءَ
غيرَ الفَراش يُضيء جَسارتَنا في
النُزولِ إلى حُفْرَة الكلمات الغريبةِ:
هل كان هذا الشقيُّ أَبي؟
ربما أَتدبَّرُ أَمْرِي هنا. ربما
أَلِدُ الآن نفسيْ بنفسي،
وأَختارُ لاسمي حروفاً عموديَّة...

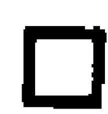
□

ههُنا حاضرٌ
جالسٌ في خلاء الأواني يُحَدِّقُ
في أَثَر العابرين على قَصَب النهر،
يصقُلُ ناياتِهم بالهواء... لعلَّ الكلام
يشفُّ فنبصر فيه النوافذَ مفتوحةً،
ولعلَّ الزمان يحثُّ الخطى معنا

حاملاً غَدَنَا في حقائبِهِ ...

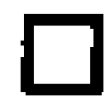


ههُنا حاضرٌ
لا زمانَ لَهُ،
لم يَجِدْ أَحَدٌ، ههُنا، أَحداً يتذكَّرُ
كيف خرجنا من الباب، ريحاً، وفي
أيِّ وقتٍ وَقَعْنا عن الأمس فانكسَرَ
الأمسُ فوق البلاط شظايا يُرَكِّبها
الآخرون مرايا لِصُورَتِهِمْ بعدنا ...



ههُنا حاضرٌ
لا مكانَ له،
رُبَّما أَتدبَّر أَمري، وأَصرخ في
ليلة البُوم: هل كان ذاك الشقيُّ
أَبي، كي يُحَمِّلني عبءَ تاريخِهِ؟
ربما أَتغيَّرُ في اسمي، وأَختارُ
أَلفاظَ أُمِّي وعاداتها مثلما ينبغي

أن تكون: كَأَنْ تستطيع مُدَاعَبتي
كُلَّما مسَّ ملحٌ دمي، وكأن تستطيع
معالجتي كلما عَضَّني بلبلٌ في فمي!



ههُنا حاضرٌ
عابرٌ،
ههُنا علَّقَ الغُرَباءُ بنادِقَهُمْ فَوْقَ
أَغصان زَيْتُونَةٍ، وأَعدُّوا عشاءً
سريعاً من العِلَبِ المعدنيَّة، وانطلقوا
مسرعين إلى الشاحنات...

أَبدُ الصُبّار

إلى أَين تأخُذُني يا أَبي؟
إلى جِهَةِ الريحِ يا وَلَدي...

... وَهُما يَخْرُجانِ مِنَ السَهْل، حَيْثُ
أَقام جنودُ بونابرتَ تلاًّ لِرَصْدِ
الظلال على سور عَكّا القديم ـ
يقولُ أَبٌ لابنِهِ: لا تَخَفْ. لا
تَخَفْ من أَزيز الرصاص! التصِقْ
بالتراب لتنجوا! سننجو ونعلو على

جَبَلٍ في الشمال، ونرجعُ حين
يعود الجنودُ إلى أهلهم في البعيد

ـ ومن يسكُنُ البَيْتَ من بعدنا
يا أَبي؟
ـ سيبقى على حاله مثلما كان
يا ولدي!

تَحَسَّسَ مفتاحَهُ مثلما يتحسَّسُ
أَعضاءه، واطمأنَّ. وقال لَهُ
وهما يعبران سياجاً من الشوكِ:
يا ابني تذكَّرْ! هنا صَلَبَ الإنجليزُ
أَباك على شَوْك صُبَّارة ليلتين،
ولم يعترف أَبداً. سوف تكبر يا
ابني، وتروي لمن يَرِثُون بنادِقَهُمْ
سيرةَ الدم فوق الحديد ...

ـ لماذا تركتَ الحصان وحيداً؟

ـ لكي يُؤْنسَ البيتَ، يا ولدي،
فالبيوتُ تموتُ إذا غاب سُكَّانُها...

تفتحُ الأبديَّةُ أَبوابها، من بعيد،
لسيَّارة الليل. تعوي ذئابُ
البراري على قَمَرٍ خائفٍ. ويقولُ
أَبٌ لابنه: كُنْ قوياً كجدِّك!
واصعَدْ معي تلَّة السنديان الأخيرةَ
يا ابني، تذكَّرْ: هنا وقع الإنكشاريُّ
عن بَغْلَةِ الحرب، فاصمُدْ معي
لنعودْ

ـ متى يا أَبي؟
ـ غداً. ربما بعد يومين يا ابني!

وكان غَدٌ طائشٌ يمضغ الريح
خلفهما في ليالي الشتاء الطويلةْ.
وكان جنودُ يُهُوشُعَ بن نونِ يبنون

قَلْعَتَهُمْ من حجارة بيتهما. وهما
يلهثان على درب «قانا»: هنا
مرَّ سيِّدُنا ذاتَ يومٍ. هنا
جَعَلَ الماءَ خمراً. وقال كلاماً
كثيراً عن الحبِّ، يا ابني تذكّر
غداً. وتذكّرْ قلاعاً صليبيَّةً
قَضَمَتْهَا حشائش نيسان بعد
رحيل الجنود...

كم مَرَّة ينتهي أمرُنا...

يتأمَّلُ أيَّامَهُ في دخان السجائر،
ينظُرُ في ساعة الجَيْب:
لو أَستطيع لأبطأتُ دَقَّاتها
كي أُؤخِّر نُضْجَ الشعير!...
ويخرج من ذاته مرهقاً نزقاً:
جاء وقتُ الحصادْ
أَلسنابلُ مثقلةٌ، والمناجلُ مهملةٌ، والبلادْ
تَبْعُدُ الآنَ عن بابها النبويِّ.
يُحَدِّثُني صَيْفُ لبنانَ عن عِنَبي في الجنوب

يُحَدِّثُني صَيْفُ لبنانَ عمَّا وراء الطبيعةِ
لكن دربي إلى الله يبدأ
من نَجْمَةٍ في الجنوب...

ـ هل تُكَلِّمُني يا أَبي؟
ـ عقدوا هُدْنَةً في جزيرة رودوس،
يا ابني!
ـ وما شأننا نحن، ما شأننا يا أبي؟
ـ وانتهى الأمرُ...
ـ كم مرّة ينتهي أَمرُنا يا أَبي؟
ـ إنتهى الأمر. قاموا بواجبهم:
حاربوا ببنادقَ مكسورةٍ طائرات العدوّ.
وقمنا بواجبنا، وابتعدنا عن الزَنْزَلَخْتِ
لئلاّ نُحرِّكَ قُبَّعَةَ القائد العسكريّ.
وبعنا خواتم زوجاتنا ليصيدوا العصافير
يا ولدي!

ـ هل سنبقى، إذاً، ههنا يا أبي

تحت صفصافة الريح
بين السموات والبحر؟

ـ يا ولدي! كُلُّ شيء هنا
سوف يُشْبِهُ شيئاً هناك
سنُشْبِهُ أنفُسَنا في الليالي
ستحرقنا نجمة الشَّبَه السرمديَّةُ
يا ولدي!

ـ يا أَبي، خفِّف القولَ عَنِّي!
ـ تركتُ النوافذَ مفتوحةً
لهديل الحمامْ
تركتُ على حافَّة البئر وجهي
تركتُ الكلامْ
على حَبْلهِ فوق حبل الخزانةِ
يحكي، تركتُ الظلامْ
على ليلهِ يتدثَّرُ صُوفَ انتظاري
تركت الغمامْ

على شجر التين ينشر سِرْوالَهُ
وتركتُ المنامْ
يُجدِّد في ذاتِهِ ذاتَهُ
وتركتُ السلام
وحيداً، هناك على الأرض...

ـ هل كُنْتَ تحلُمُ في يَقْظَتي يا أَبي؟
ـ قُمْ. سَنَرْجِعُ يا ولدي!

إلى آخري
وإلى آخره ...

ـ هل تَعِبْتَ من المشي
يا وَلَدي، هل تعبتْ؟
ـ نَعَمْ، يا أَبي
طال ليلُكَ في الدربِ،
والقلبُ سال على أَرض لَيْلِكَ
ـ ما زِلْتَ في خفَّة القطِّ
فاصْعَدْ إلى كتفيَّ،
سنقطع عمَّا قليلْ

غابة البُطْم والسنديان الأخيرةَ
هذا شمالُ الجليلْ
ولبنانُ من خلفنا،
والسماءُ لنا كُلُّها من دمشقَ
إلى سور عكا الجميلْ
ـ ثم ماذا؟
ـ نعود إلى البيت
هل تعرف الدرب يا ابني
ـ نعم، يا أَبي:
شرقَ خرّوبَةِ الشارع العامِّ
دربٌ صغيرٌ يَضِيقُ بِصُبَّارِه
في البداية، ثم يسير إلى البئرِ
أَوْسَعَ أَوْسَعَ، ثم يُطِلُّ
على كَرْمِ عَمِّي «جميلْ»
بائعِ التبغ والحَلَوِيَّات،
ثم يضيعُ على بَيْدَرٍ قبل
أَن يستقيمَ ويَجلِس في البيت،
في شكل بَبْغَاءَ،
ـ هل تعرف البيتَ، يا ولدي

ـ مثلما أَعرف الدرب أَعرفُهُ:
ياسمينٌ يُطوِّقُ بوَّابةً من حديد
ودعساتُ ضوءٍ على الدرج الحجريِّ
وعبَّادُ شمسٍ يُحَدِّقُ في ما وراء المكان
ونحلٌ أليفٌ يُعِدُّ الفطور لجدِّي
على طبق الخيزران،
وفي باحة البيت بئرٌ وصفصافةٌ وحصانْ
وخلف السياج غدٌ يتصفَّحُ أَوراقنا...

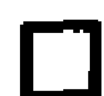
ـ يا أَبي، هل تَعِبْت
أَرى عرقاً في عيونكَ؟
ـ يا ابني تعبتُ ... أَتحمِلُني؟
ـ مثلما كنتَ تحملني يا أَبي،
وسأحمل هذا الحنين
إلى
أَوَّلي وإلى أوَلِهْ
وسأقطع هذا الطريق إلى
آخري ... وإلى آخِرِهْ!

II

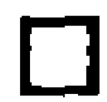
فضاء هابيل

عُودُ إسماعيل

فَرَسٌ على وَتَرَيْنِ ترقُصُ ـ هكذا
تُصغي أَصابِعُهُ إلى دَمِهِ، وتنتشرُ القُرى
كشقائقِ النعمانِ في الإيقاعِ. لا
لَيْلٌ هناك ولا نهارٌ. مَسَّنا
طربٌ سَمَاويٌّ، وهَرْوَلَتِ الجهاتُ إلى
الهيولى
هَلِّلويا،
هَلِّلويا،
كُلُّ شيء سوف يبدأ من جديدِ

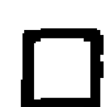


هُوَ صاحِبُ العُود القديمِ، وجارُنا
في غابة البَلُّوط. يحمل وقتَهُ مُتَخَفِّياً
في زيٍّ مَجْنونٍ يُغَنِّي. كانتِ الحربُ انتهتْ
ورمادُ قريتنا اختفى بسحابةٍ سوداءَ لم
يُولَدْ عليها طائرُ الفينيق بَعْدُ، كما
تَوَقَّعْنا، ولم تَنْشَفْ دماءُ الليل في
قُمْصانِ موتانا. ولم تطلع نباتاتٌ، كما
يَتَوَقَّعُ النسيانُ، في خُوَذ الجنودِ
هَلِّلويا
هَلِّلويا،
كلُّ شيءٍ سوف يبدأ من جديدِ

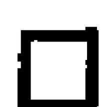


كَبَقِيَّةِ الصحراء، يَنْحَسِرُ الفضاءُ عن الزمانِ
مسافةً تكفي لتنفجرَ القصيدةُ. كان إسماعيلُ
يهبط بيننا، ليلاً، ويُنشدُ: يا غريبُ،
أَنا الغريبُ، وأَنت منِّي يا غريبُ! فترحَلُ
الصحراءُ في الكلمات. والكلماتُ تُهْمِلُ قُوَّةَ

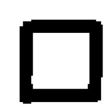
الأشياءِ: عُدْ يا عُودُ... بالمفقودِ واذبحْني
عَلَيْهِ، من البعيد إلى البعيدِ
هَلِّلويا
هللويا،
كُلّ شيء سوف يبدأ من جديد



يتحرَّكُ المعنى بنا ... فنطيرُ من سَفْحٍ إلى
سَفحٍ رُخَاميّ. ونركُضُ بين هاوِيَتَيْنِ زَرْقاوينِ.
لا أحلامُنا تصحو، ولا حَرَسُ المكانِ
يغادرون فضاءَ إسماعيلَ. لا أَرضٌ هناك
ولا سماءٌ. مَسَّنا طربٌ جَمَاعيٌّ أمامَ
البَرْزَخ المصنوع مِنْ وتَرَيْن. إسماعيلُ... غَنِّ
لنا ليصبح كُلَّ شيءٍ مُمْكِناً قُرْبَ الوجودِ
هَلِّلويا
هَلِّلويا،
كُلُّ شيءٍ سوف يبدأ من جديدِ



في عُودِ إسماعيلَ يرتفعُ الزَّفَافُ السُّومَرِيُّ
إلى أَقاصي السَّيْفِ. لا عَدَمٌ هناك
ولا وجودٌ. مَسَّنا شَبَقٌ إلى التَّكْوين:
من وَتَرٍ يسيلُ الماءُ. من وَتَرَيْنِ يندلعُ
اللهيبُ. ومن ثَلاثَتِهِمْ تَشعُّ المرأة /الكون/
التجلِّي. غَنِّ إسماعيلُ للمَعْنَى يُحَلِّقْ طائرٌ
عند الغروب على أَثينا بين تاريخين...
غَنِّ جنازةً في يوم عِيدِ!
هَلِّلويا
هَلِّلويا،
كُلُّ شيء سوف يبدأ من جديدِ

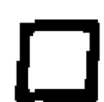


تَحْتَ القصيدةِ: تعبُرُ الخيلُ الغريبةُ. تعبُرُ
العرباتُ فوق كواهل الأَسرى. ويعبُرُ تحتها
النسيانُ والهكسوسُ. يعبرُ سادةُ الوقتِ،
الفلاسفةُ، امرؤُ القيسِ الحزينُ على غَدٍ
مُلْقىً على أبواب قيصَرَ. يعبرون جميعُهُمْ تحت

القصيدةِ. يعبُرُ الماضي المُعَاصِرُ مثل تَيْمُورْلَنْكَ
يعبُرُ تحتها. والأنبياءُ هناك أيضاً يعبرون
ويُنصِتون لصوتِ إسماعيلَ يُنْشِدُ: يا غريبُ،
أَنا الغريبُ، وأنت مثلي يا غريبَ الدار،
عُدْ ... يا عُودُ بالمفقودِ، واذبَحْني عَلَيْكَ
من الوريد إلى الوريدِ
هَلِّلويا
هَلِّلويا،
كُلُّ شيءٍ سوف يبدأ من جديدِ

نُزْهَةُ الغُرَباء

أَعرفُ البَيْتَ من خُصْلَةِ المَرْيَمِيَّةِ. أُولى
النوافذ تَجنحُ نحو الفراشاتِ... زرقاءَ...
حمراءَ. أَعرف خطَّ السحاب وفي أيِّ
بئرٍ سَيَنْتَظِرُ القُرَوِيَّاتِ في الصيف. أَعرفُ
ماذا تقولُ الحمامةُ حين تبيضُ على فُوهَةِ
البندقيَّةِ. أَعرفُ مَنْ يفتح البابَ للياسمينةِ
وهي تفتِّح أَحلامنا لضيوف المساءْ...



لم تَصِلْ بعد مَرْكَبَةُ الغرباءْ

□

لم يَصِلْ أَحَدٌ. فَاترُكيني هناك كما
تتركين التحيَّة في مدخل البيت. ليْ أو
لغيري، ولا تحفلين بمن سوف يسمعها
أَوَّلاً. واتركيني هناك كلاماً لنفسيَ:
هل كنتُ وحدي «وحيداً كما الروحُ في
جَسَدٍ»؟ عندما قلتِ يوماً: أُحبُّكما،
أَنتَ والماء. فالتمَعَ الماءُ في كُلِّ شيء،
كجيتارةٍ تركت نفسها للبكاءْ!

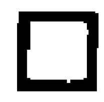
□

لم تصلْ بعد جيتارة الغُرَباءْ

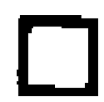
□

فلنَكُنْ طيّبين! خُذيني إلى البحر عند
الغروب، لأسمع ماذا يقولُ لكِ البحرُ

حين يعودُ إلى نفسه هادئاً هادئاً.
لن أُغيِّر ما بي. سأندسُّ في مَوْجَةٍ
وأقولُ: خُذيني إلى البحر ثانيةً. هكذا
يفعلُ الخائفون بأَنفسهِم: يذهبون إلى
البحرِ حين تعذِّبهم نجمةٌ أَحْرَقَتْ نفسها في السماءْ

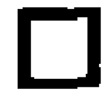


لم تصل بعد أغنيةُ الغرباءْ

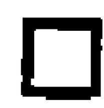


أَعرف البيت من خَفَقان المناديل. أُولى
الحمامات تبكي على كتفيَّ. وتحت سماءِ
الأَناجيلِ يركضُ طفلٌ بلا سَبَبٍ. يَرْكُضُ
الماءُ، والسروُ يركضُ، والريحُ تركُضُ في
الريحِ، والأَرضُ تركُضُ في نفسها. قلتُ:
لا تُسرعي في الخروج من البيت... لا
شيءَ يمنَعُ هذا المكانَ من الانتظار قليلاً
هنا، ريثما ترتدين قميصَ النهار، وتنتعلين

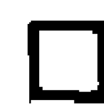
حذاء الهواءْ



لم تصل بعد أُسطورةُ الغرباءْ...



لم يصلْ أَحَدٌ. فاتركيني هناك كما
تتركين الخُرافَةَ في أَيِّ شخصٍ يراكِ، فيبكي
ويركض في نفسه خائفاً من سعادتِهِ:
كم أُحبُّكِ، كم أَنتِ أَنتِ! ومِنْ رُوحِهِ
خائفاً: لا أَنا الآن إلاّ هِيَ الآن فيَّ.
ولا هِي إلاّ أَنا في هشاشتها. كم أَخافُ
على حُلُمي أَن يرى حُلُماً غيرَها في
نهايةِ هذا الغناءْ ...



لم يصل أَحَدٌ
ربما أَخطأ الغرباءُ الطريقَ
إلى نُزْهَةِ الغرباء!

حبرُ الغراب

لَكَ خَلْوةٌ في وَحْشة الخرّوب، يا
جَرَسَ الغُروب الداكنَ الأصواتِ! ماذا
يطلبون الآن منكَ؟ بَحثتَ في
بُستانِ آدمَ، كي يوارِيَ قاتلٌ ضَجِرٌ أَخاهُ،
وانغلقتَ على سوادِكَ
عندما انفَتَحَ القتيلُ على مَدَاهُ،
وانصرَفْتَ إلى شُؤونكَ مثلما انصرفَ الغيابُ
إلى مشاغله الكثيرة. فلتَكُنْ
يَقِظاً. قيامتُنا سَتُرْجَأُ يا غرابُ!

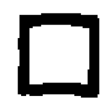
□

لا لَيْلَ يكفينا لنحلُمَ مَرَّتَين. هناكَ بابُ
واحدٌ لسمائنا. من أَين تأتينا النهايةُ؟
نحن أَحفادَ البدايةِ. لا نَرَى
غَيْرَ البداية، فاتّخذْ بمهبِّ لَيْلِكَ كاهناً
يَعِظُ الفراغُ بما يُخَلِّفُهُ الفراغُ الآدمِيُّ
من الصدى الأبديِّ حولكَ ...
أَنتَ مُتَّهَمٌ بما فينا. وهذا أَوَّلُ
الدَّمِ من سُلاَلَتِنا أَمامَكَ، فابتعدْ
عن دار قابيلَ الجديدةِ
مثلما ابتعَدَ السرابُ
عن حِبْرِ رِيشكَ يا غرابُ

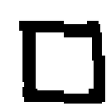
□

لِيَ خلْوَةٌ في ليل صوتكَ... لي غيابُ
راكضٌ بين الظلال يشدُّني
فأشدُّ قَرْنَ الثور. كان الغَيْبُ يدفعني أَدفعُهُ
ويرفعُني وأرفعُهُ إلى الشَّبَح المُعَلّقِ مثل
باذنجانةٍ نَضَجَتْ. أَأَنت إذاً؟ فماذا

يطلبون الآن منّا بعدما سرقوا كلامي من
كلامك، ثم ناموا في منامي واقفينَ
على الرماح. ولم أَكُنْ شَبَحاً لكي يمشوا
خُطَايَ على خُطايَ. فكُنْ أَخي الثاني،
أَنا هابيلُ، يُرْجِعُني الترابُ
إليكَ خرُّوباً لتجلسَ فوق غُصني يا غرابُ



أَنا أَنتَ في الكلمات. يجمعنا كتابُ
واحدٌ. لِيْ ما عَلَيْكَ من الرماد، ولم
نَكُنْ في الظلِّ إلاّ شاهِدَيْنِ ضحيَّتَيْنِ
قصيدتينِ
قصيرتينِ
عن الطبيعة، ريثما يُنْهي وليمَتُه الخرابُ



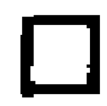
ويضيئك القرآنُ:
﴿فَبَعَثَ اللّهُ غراباً يبحث في الأرض

لِيُرِيَهُ كيف يواري سوءة أخيه، قال:
يا ويلتي أَعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾
ويضيئك القرآنُ،
فابحثْ عن قيامتنا، وحَلِّق يا غُرَابُ!

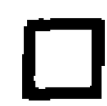
سنونو التتار

على قَدْرِ خَيْلي تكونُ السماءُ. حَلُمْتُ
بما سوف يحدُثُ بعد الظهيرة. كان التتارُ
يسيرون تحتي وتحت السماء، ولا يحلمون
بشيء وراء الخيام التي نصبوها. ولا يعرفون
مصائرَ ماعِزِنا في مهبٍّ الشتاء القريب.
على قدر خَيْلي يكون المساء. وكان التتارُ
يَدُسُّون أَسماءَهُمْ في سقوف القرى كالسنونو،
وكانوا ينامون بين سنابلنا آمنين،
ولا يحلمون بما سوف يحدث بعد الظهيرة، حين

تعودُ السماءُ، رُوَيْداً رُوَيْداً،
إلى أهلها في المساءْ

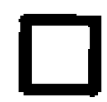


لنا حُلُمٌ واحد: أَن يمرَّ الهواءْ
صديقاً، وينشُرَ رائحةَ القهوةِ العربيّةِ
فوق التلال المحيطة بالصيف والغرباءْ ...

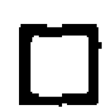


أَنا حُلُمي. كُلَّما ضاقت الأرضُ وَسَّعْتُها
بجناح سُنُونُوَّةٍ واتسعْتُ. أَنا حُلُمي...
في الزحام امتلأْتُ بمرآة نفسي وأَسئلتي
عن كواكب تمشي على قَدَمَيْ مَنْ أُحبُّ
وفي عزلتي طُرُقٌ للحجيج إلى أُورشليم ـ
الكلام المُنَتَّف كالريش فوق الحجارة،
كَمْ مِنْ نَبِيّ تريد المدينةُ كي تحفظ اسم
أَبيها وتندم: «من غير حرب سَقَطْتُ»؟
وكم من سماءٍ تُبَدِّل، في كل شَعْبٍ،

ليعجبَها شالُها القرمزيُّ؟ فيا حُلُمي ...
لا تُحدِّقْ بنا هكذا!
لا تَكُنْ آخِرَ الشُّهداء!

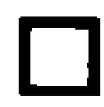


أَخافُ على حُلُمي من وضوح الفراشةْ
ومن بُقَعِ التوت فوق صهيل الحصان
أَخافُ عَلَيْهِ من الأب والابن والعابرينْ
على ساحل الأبيض المتوسِّط بحثاً عن الآلهة
وعن ذَهَب السابقين،
أَخاف على حُلُمي من يديَّ
ومن نجمةٍ واقفة
على كتفي في انتظار الغناء



لنا، نحن أَهْلَ الليالي القديمة، عاداتُنا
في الصعودِ إلى قَمَر القافيةْ
نُصَدِّقُ أحلامَنا ونكذِّبُ أيَّامَنا،

فأيَّامُنا لم تكن كُلُّها معنا منذ جاء التتارُ،
وها هم يُعِدُّون أنفسهم للرحيلِ
وينسون أَيَّامَنا خَلْفَهُمْ، وسنهبط عما قليل
إلى عمرنا في الحقول. ونصنع أَعلامنا
من شراشِفَ بيضاءَ، إنْ كانَ لا بُدَّ
من عَلَمٍ، فليكُنْ هكذا عارياً
من رُمُوزٍ تُجَعِّدُهُ ... ولنكُنْ هادئين
لئلاّ نُطَيِّرَ أَحلامَنا خلف قافلة الغرباء



لنا حُلُم واحد: أَن نَجِدْ
حُلُماً كان يحملنا
مثلما تحملُ النجمةُ الميتين!

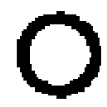
مَـرَّ القطار

مَرَّ القطارُ سريعاً،
كُنْتُ أنتظرُ
على الرصيف قطاراً مَرَّ،
وانصرَفَ المُسافرونَ إلى
أَيَّامِهِمْ ... وأَنا
ما زلتُ أَنتظرُ

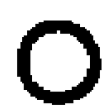
○

تبكي الكمنجاتُ عن بُعْدٍ،

فتحملني
سحابةٌ من نواحيها
وتنكسرُ



كان الحنينُ إلى أشياءَ غامِضَةٍ
يَنْأَى ويَدْنُو،
فلا النسيانُ يُقْصيني،
ولا التذكُّرُ يدنيني
من امرأة
إن مَسَّها قمرٌ
صاحَتْ: أَنا القَمَرُ



مَرَّ القطارُ سريعاً،
لم يكن زَمَني
على الرصيف معي،
فالسَّاعةُ اختلفتْ

ما الساعةُ الآن؟
ما اليومُ الذي حَدَثَتْ
فيه القطيعةُ بين الأمس والغدِ
لَمَّا هاجر الغَجَرُ؟

○

هنا وُلدتُ ولم أُولَدْ
سيُكْمِلُ ميلادي الحَزونَ إذاً
هذا القطارُ
ويمشي حوليَ الشَّجَرُ

○

هنا وُجدتُ ولم أُوجَدْ
سأعثُرُ في هذا القطارِ
على نفسي التي امتلأتْ
بضفّتينِ لنهرٍ مات بينهما
كما يموتُ الفتى
«ليت الفتى حَجَرُ ...»

○

مَرَّ القطارُ سريعاً
مَرَّ بي، وأَنا
مثل المحطَّة، لا أَدري
أُودِّعُ أَم أستقبلُ الناسَ:
أَهلاً، فوق أَرصفتي
مقهى،
مكاتبُ،
وردٌ
هاتفٌ،
صُحُفٌ
وسندويشاتٌ،
وموسيقى،
وقافيةٌ
لشاعرٍ آخرٍ يأتي وينتظرُ

○

مَرَّ القطار سريعاً
مَرَّ بي، وأَنا
ما زلتُ أَنتظرُ

III

فوضى على باب القيامة

البئر

أَختارُ يوماً غائماً لأَمُرَّ بالبئر القديمةِ.
رُبّما امتلأتْ سماءً. رُبَّما فاضَتْ عن المعنى وَعَنْ
أُمْثُولةِ الراعي. سأشربُ حفنةً من مائها.
وأَقولُ للموتى حوالَيْها: سلاماً، أَيُّها البَاقونَ
حول البئر في ماء الفراشةِ! أَرفَعُ الطَيُّونَ
عن حَجَرٍ: سلاماً أَيها الحَجَرُ الصغيرُ! لعلَّنا
كُنَّا جناحَيْ طائرٍ ما زال يوجعُنا. سلاماً
أَيها القَمَرُ المُحَلِّقُ حَوْلَ صُورَتِهِ التي لن يلتقي
أَبداً بها! وأَقول للسَّروِ: انتَبهْ ممّا يقولُ

لَكَ الغبارُ. لعلَّنا كنا هنا وَتَرَيْ كمانٍ
في وليمة حارساتِ اللازَوَرْدِ. لعلَّنا كُنَّا
ذراعَيْ عاشقٍ...
قد كنتُ أَمشي حَذْوَ نفسيْ: كُنْ قويّاً
يا قريني، وارفعِ الماضي كقرنَيْ ماعزٍ
بيديكَ، واجلسْ قرب بئرك. رُبَّما التفتتْ
إليكَ أَيائلُ الوادي... ولاح الصوتُ ـ
صوتُك صورةً حجريَّةً للحاضر المكسورِ ...
لم أُكْملح زيارتي القصيرة بَعْدُ للنسيانِ...
لم آخُذْ مَعي أَدواتِ قلبي كُلَّها:
جَرَسي على ريح الصنوبرِ
سُلَّمي قرب السماءِ
كواكبي حول السطوحِ
وبُحَّتي من لَسْعة الملح القديم...
وَقُلْتُ للذكرى: سَلاماً يا كلامَ الجَدّة العَفَوِيَّ
يأخُذُنا إلى أَيَّامنا البيضاءِ تحت نُعَاسها...
واسْمِيْ يرنُّ كليرة الذَّهَبِ القديمةِ عِنْدَ
باب البئرِ. أَسْمَعُ وَحْشَةَ الأَسلاف بين

الميم والواو السحيقة مثل وادٍ غير ذي
زرعٍ. وأُخفي تعبي الوديَّ. أَعرفُ أَنني
سأعود حيّاً، بعد ساعاتٍ، من البئر التي
لم أَلْقَ فيها يوسُفاً أَو خَوْفَ إخوتِهِ
مِنَ الأصداء. كُنْ حَذِراً! هنا وضعتْكَ
أُمُّكَ قرب باب البئر، وانصرَفَتْ إلى تَعْويذةٍ...
فاصنعْ بنفسكَ ما تشاءُ. صَنَعْتُ وحدي ما
أَشاءُ: كبرتُ ليلاً في الحكاية بين أَضلاعِ
المُثَلَّثِ: مصرَ، سوريّا، وبابلَ. ههنا
وحدي كبرتُ بلا إِلٰهات الزراعة. [كُنَّ
يَغْسِلْنَ الحصى في غابة الزيتون. كُنَّ مُبلَّلاتٍ
بالندى] ... ورأيتُ أَنِّي قد سقطتُ
عليَّ من سَفَرِ القوافلِ، قرب أَفعى. لم
أَجِدْ أَحداً لأُكْمِلَهُ سوى شَبَحي. رَمَتْني
الأرضُ خارجَ أَرضها، واسمي يَرِنُّ على خُطَايَ
كَحذْوةِ الفَرَسِ: اقتربْ ... لأَعود من هذا
الفراغ إليكَ يا جلجامشُ الأبديُّ في اسْمِكَ!..
كُنْ أَخي! واذْهَبْ معي لنصيحَ بالبئر

القديمة... ربما امتلأتْ كأنثى بالسماء،
ورُبَّما فاضت عن المعنى وعمَّا سوف
يحدُثْ في انتظارِ ولادتي من بئريَ الأُولى!
سنشرب حفنةً من مائها،
سنقول للموتى حواليها: سلاماً
أيها الأحياءُ في ماء الفَرَاشِ،
وأيُّها الموتى، سلاماً!

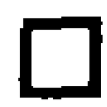
كالنون في سورة الرحمن

في غابة الزيتون، شَرْقَ
الينابيع انطوى جَدِّي على ظلِّهِ
المهجور. لم ينبت على ظلِّهِ
عُشْبٌ خرافيٌّ
ولا غيمةُ اللَّيْلَكِ
سالَتْ داخل المشهدْ

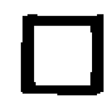
□

الأرضُ مثل الثوب منسوجةٌ

بإبرة السُّمَّاق في حُلْمِهِ
المكسور ... جدّي هَبَّ من نومِهِ
كي يجمَعَ الأَعشاب من كرمِهِ
المطمور تحت الشارع الأَسودْ ...

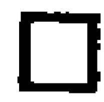


عَلَّمني القرآنَ في دوحة الريحانِ
شَرْقَ البئر،
من آدمٍ جئنا ومن حوَّاءَ
في جنة النسيانِ.
يا جدِّي! أَنا آخر الأحياء
في الصحراء، فلنصعدْ!

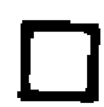


البحرُ والصحراءُ حول اسمِهِ
العاري من الحُرَّاسِ
لم يعرفا جدّيُ لا أَبناءَهُ
الواقفين الآن حول «النون»

في سورة «الرحمن»،
اللهم ... فلتشهَدْ!



أمَّا هُوَ المولود من نفسِهِ
الموءودُ، قرب النار،
في نفسه،
فليَمْنَحِ العنقاءَ من سرِّهِ
المحروق ما تحتاجُهُ بعده
كي تُشْعِلَ الأضواءَ في المَعْبَدْ



في غابة الزيتون، شَرْقَ الينابيعِ
انطوى جدِّي على ظلِّه
المهجور. لم تُشْرق على ظلِّه
شمسٌ. ولم يهبط على ظلِّه
ظلٌّ،
وجدّي دائماً، أَبعدْ ...

تعاليم حُوريَّة

I

فَكَّرتُ يوماً بالرحيل، فحطَّ حَسُّونٌ على
يدها ونام. وكان يكفي أَن أُداعِبَ غُصْنَ
دالِيَةٍ على عَجَلٍ ... لِتُدركَ أَنَّ كأسَ نبيذيَ
امتلأتْ. ويكفي أَن أنامَ مُبَكِّراً لتَرَى
منامِيَ واضحاً، فتطيلُ لَيْلَتَها لتحرسَهُ ...
ويكفي أَن تجيء رسالةٌ منّي لتعرف أَنَّ
عنواني تغيَّر، فوق قارِعَةِ السجون، وأَنَّ
أَيَّامي تُحَوِّمُ حَوْلَها ... وحيالها

II

أُمّي تَعُدُّ أَصابعي العشرينَ عن بُعْدِ.
تُمَشِّطُني بخُصْلَةِ شعرها الذَّهَبيّ. تبحثُ
في ثيابي الداخليّة عن نساءٍ أَجنبيَّاتٍ،
وَتَرْفُو جَوْربي المقطوعَ. لم أَكبرْ على يَدِها
كما شئنا: أَنا وَهِيَ، افترقنا عند مُنْحَدرِ
الرُّخام ... ولوَّحت سُحُبٌ لنا، ولماعزٍ
يَرِثُ المَكَانَ. وأَنْشَأَ المنفى لنا لغتين:
دارجةً... ليفهَمَها الحمامُ ويحفظَ الذكرى
وفُصْحى ... كي أُفسِّرَ للظلال ظِلاَلَها!

III

ما زلتُ حيّاً في خِضَمِّكِ. لم تَقُولي ما
تقولُ الأُمُّ للوَلَدِ المريضِ. مَرِضْتُ من قَمَرِ
النحاس على خيام البَدْوِ. هل تتذكرين
طريق هجرتنا إلى لبنانَ، حَيْثُ نسيتِني
ونسيتِ كيسَ الخُبْزِ [كان الخبزُ قمحيّاً].
ولم أَصرخْ لئلاَّ أُوقظَ الحُرَّاسَ. حَطَّتْني

على كَتِفَيكِ رائحةُ الندى. يا ظَبْيَةً فَقَدَتْ
هُنَاكَ كِنَاسَها وغزالها ...

IV

لا وَقْتَ حَوْلَكِ للكلام العاطِفيِّ.
عَجَنْتِ بالحَبَقِ الظهيرةَ كُلَّها. وَخَبَزْتِ للسُّمَّاقِ
عُرْفَ الدِّيك. أَعْرِفُ ما يُخرِّبُ قلبَكِ المَثْقُوبَ
بالطاووس، مُنْذُ طُرِدْتِ ثانيةً من الفردوس.
عالَمُنا تَغَيَّرَ كُلُّهُ، فتغيَّرتْ أَصواتُنا. حتّى
التحيَّةُ بيننا وَقَعَتْ كزرٍّ الثَّوْبِ فوق الرمل،
لم تُسْمِعْ صدىً. قولي: صباح الخير!
قولي أَيَّ شيء لي لتمنَحني الحياةُ دَلاَلَها.

V

هي أُختُ هاجَرَ. أُختُها من أُمِّها. تبكي
مع النايات مَوْتى لم يموتوا. لا مقابر حول
خيمتها لتعرف كيف تَنْفَتِحُ السماءُ، ولا
ترى الصحراءَ خلف أَصابعي لترى حديقَتَها
على وَجْه السراب، فيركُض الزَّمَنُ القديمُ

بها إلى عَبَثٍ ضروريٍّ: أَبوها طار مثلَ
الشَّرْكَسيِّ على حصان العُرْس. أَمَّا أُمُّها
فلقد أَعدَّتْ، دون أن تبكي، لِزَوْجَة زَوْجِها
حنَّاءَها، وتفحَّصَتْ خلخالها...

VI

لا نلتقي إلاّ وداعاً عند مُفْتَرَقِ الحديث.
تقول لي مثلاً: تزوّجْ أَيَّةَ امرأة مِنَ
الغُرَباء، أَجمل من بنات الحيِّ. لكنْ، لا
تُصَدِّقْ أَيَّةَ امرأة سوايَ. ولا تُصَدِّقْ
ذكرياتكَ دائماً. لا تَحْتَرِقْ لتضيء أُمَّكَ،
تلك مِهْنَتُها الجميلةُ. لا تَحِنَّ إلى مواعيد
الندى. كُنْ واقعيّاً كالسماء. ولا تَحِنّ
إلى عباءة جدِّكَ السوداءِ، أَو رَشَوَاتِ
جدّتكَ الكثيرةِ وانطلِقْ كالمُهْرِ في الدنيا.
وكُنْ مَنْ أَنت حيث تكون. واحملْ
عبءَ قلبِكَ وَحْدَهُ ... وارجع إذا
اتَّسَعَتْ بلادُكَ للبلاد وغيَّرتْ أَحوالَها...

VII

أُمِّي تضيء نُجُومَ كَنْعَانَ الأخيرةَ،
حول مرآتي،
وتَرْمي، في قصيدتيَ الأَخيرةِ، شَالَها!

أمشاط عاجيّة

مِنَ القَلْعَةِ انحدَرَ الغيمُ أَزرقَ
نحو الأَزِقّةِ ...
شالُ الحرير يطيرُ
وسربُ الحمام يطيرُ
وفي بِرْكَةِ الماء تمشي السماءُ قليلاً
على وجهها وتطيرُ
ورُوحي تطيرُ، كعاملة النَّحْلِ، بين الأَزِقّةِ
والبحرُ يأْكُلُ من خبزها، خبزِ عَكّا
ويفرُكُ خاتَمَها مُنْذُ خَمْسَةِ آلافِ عامٍ

ويرمي على خدِّها خَدَّهُ
في طقوس الزفاف الطويل الطويلْ

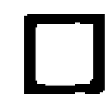
□

تقولُ القصيدةُ:
فلننتظرْ
ريثما تسقط النافذةْ
فوق «أَلْبُومِ» هذا الدليل السياحيّ

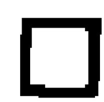
□

أَدخُلُ من إِبْطها الحجريِّ، كما
يدخُلُ الموجُ في الأبديّةِ. أَعبُرُ
بين العصور كأنّي أَعبُرُ بين الغُرَفْ
أَرى فيَّ محتوياتِ الزمانِ الأليفة:
مرآةَ بِنْتٍ لكنعانَ،
أَمشاطَ شَعْرٍ من العاجِ،
صَحْنَ الحَسَاءِ الأَشوريَّ،
سَيْفَ المُدافع عن نَوْمِ سَيِّده الفارسيِّ،

وقفزَ الصقور المفاجِىءَ من عَلَمٍ نحو آخرَ
فوق صواري الأَساطيل ...

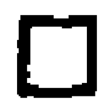


لو كان لي حاضرٌ آخرٌ
لامتلكتُ مفاتيحَ أَمسي
ولو كان أَمسي معي
لامتلكتُ غدي كُلَّهُ...

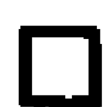


غامضٌ سَفَري في الزقاقِ الطويلِ
المؤدي إلى قَمَرٍ غامضٍ فوق سُوقِ
النحاس. هنا نخلةٌ تحمل البرجَ عنِّي،
وهاجَسُ أُغنيَّةٍ تنقُلُ الأدواتِ البسيطةَ
حولي، لصُنْعِ تْرَاجِيدْيا مُكَرَّرةٍ، والخيالُ
هنا بائعٌ جائعٌ يتجوَّلُ فوق الغبار أَليفاً،
كأنِّيَ لا شأن لي بالذي سوف يحدُثُ
لي في احتفالات يوليوس قَيْصَرَ... عمَّا قليل!

أَنا والحبيبةُ نشربُ
ماءَ المَسرَّةِ
من غيمةٍ واحدةْ
ونهبط في جَرَةٍ واحدةْ!



رَسَوْتُ بمينائها، لا لشيءٍ سوى
أَنَّ أُمّي أضاعت مناديلها ههنا...
لا خرافةَ لي ههنا. أُقايضُ
آلهةً أَو أُفاوضُ آلهةً. لا خرافةَ
لي ههنا كي أُعبِّىءَ ذاكرتي بالشعيرِ
وأسماءِ حُرَّاسها الواقفين على كتفيَّ
انتظاراً لفجر تُحُتْمُس. لا سيف لي،
لا خرافة لي هَهنا لأُطلِّق أُمِّي التي
حَمَّلتْني مناديلَها، غيمةً غيمةً، فوق
ميناء عكا القديمة... عند الرحيلْ!



ستحدث أشياءُ أخرى،
سيكذبُ هنري على
قَلاَوونَ، بعد قليلْ
سيرتفع الغيمُ أَحمرَ فوق صُفُوف النخيلْ...

أطوار أنات

الشِّعْرُ سُلَّمنا إلى قَمَرٍ تُعَلِّقُهُ أَناتُ
على حَدِيقتها، كمرآةٍ لعُشَّاقٍ بلا أَمَلٍ، وتمضي
في براري نفسها امرأتين لا تتصالحانِ:
هُنَالكَ امرأةٌ تُعيدُ الماءَ للينبوعِ،
وامرأةٌ تقودُ النارَ في الغاباتِ،
أَمَّا الخيلُ
فلترقُصْ طويلاً فوق هاوهيتَيْنِ،
لا مَوْتٌ هناك ... ولا حياةُ.
وقصيدتي زَبَدُ اللُّهاثِ وصرخَةُ الحيوانِ

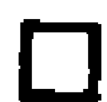
عند صُعُودِهِ العالي
وعند هبوطه العاري: أَناتُ!
أَنا أُريدُكُما معاً، حُبّاً وحرباً، يا أَناتُ
فإلى جَهَنَّمَ بيْ ... أُحبُّكِ يا أَناتُ!
وأَناتُ تقتُلُ نَفْسَها
في نَفْسها
ولنفسِها
وتُعيدُ تكوينَ المسافة كي تمرَّ الكائناتُ
أَمامَ صورتها البعيدة فوق أَرضِ الرافدينِ
فوق سُوريّا. وتأْتمرُ الجهاتُ
بصَوْلجانِ اللازَوَرْدِ وخاتَمِ العذراءِ: لا
تتأَخَّري في العالم السُّفليِّ. عُودي من هناكَ
إلى الطبيعةِ والطبائع يا أَناتُ!
جَفَّتْ مياهُ البئر بَعْدَكِ، جَفَّتِ الأَغوارُ
والأَنهارُ جَفَّتْ بعد موتكِ. والدموع
تَبَخَّرَتْ من جَرَّة الفخّار، وانكسرَ الهواءُ
من الجفاف كَقِطْعَةِ الخشب. انكسرنا كالسياجِ
على غيابكِ. جَفَّتِ الرغباتُ فينا. والصلاةُ

تكلَّسَتْ. لا شيءَ يحيا بعد موتكِ. والحياةُ
تَموتُ كالكلمات بين مُسَافِرَيْن إلى الجحيمِ،
فيا أَناتُ
لا تمكُثي في العالم السُّفليِّ أَكثَرَ! رُبَّما
هَبَطَتْ إلهاتٌ جديداتٌ علينا من غيابكِ
وامتَثلْنا للسرابِ، ورُبَّما وَجَدَ الرُّعاةُ
الماكرونَ إلهةً، قرب الهباء وصدَّقَتْها الكاهناتُ
فلتَرْجعي، ولتُرْجعي، ولتُرْجعي أَرضَ الحقيقةِ
والكنايةِ،
أَرضَ كَنْعانَ البدايةِ،
أَرضَ نَهْدَيْكِ المشاع،
وأَرض فَخْذَيْكِ المشاع، لكي تعودَ المعجزاتُ
إلى أَريحا،
عند باب المَعْبَدِ المهجور ... لا
موتٌ هناك ولا حياةُ
فَوْضى على باب القيامة. لا غَدٌ
يأتي. ولا ماضٍ يجيء مُودِّعاً.
لا ذكرياتُ
تطيرُ من أَنحاءِ بابلَ فوق نخلتنا، ولا

حُلُمٌ يُسَامِرُنا لنسكنَ نجمةً،
هِيَ زِرُّ ثوبِكِ، يا أَناتُ
وأَناتُ تخلق نفسَها
من نفسِها
ولنفسِها
وتطيرُ خَلْفَ مراكب الإغريقِ،
في اسمٍ آخَرَ،
إمرأتينِ لن تتصالحا أَبداً ...
وأَمَّا الخيلُ
فلترقُصْ طويلاً فوق هاويتين. لا
موتٌ هناك ولا حياةُ
لا أَنا أحيا هنالك، أَو أموتُ
ولا أَناتُ
ولا أَناتُ!

مصرع العنقاء

في الأناشيدِ التي نُنْشدُها
نايٌ،
وفي الناي يَسْكُنُنا
نارٌ،
وفي النار التي نُوقِدُها
عنقاءُ خضراءُ،
وفي مرثيَّة العنقاء لم أَعرفْ
رمادي من غبارِكْ



غيمةٌ من لَيْلَكِ تكفي
لتُخْفي
خيمة الصيَّاد عنَّا. فأمشِ
فوق الماء كالسيِّد ـ قالت لي:
فلا صحراءَ للذكرى التي أَحملها عنكَ
ولا أَعداءَ منذ الآن، للورد
الذي ييزُغ من أَنقاض دارِكْ!

□

كان ماءٌ يُشبهُ الخاتَمَ حول
الجبَلِ العالي. وكانت طبريّا
ساحةً خلفيّةً للجنَّة الأُولى،
وقلتُ: اكتملَتْ
صُورةُ العالم في عينين خضراوين
قالتْ: يا أَميري وأَسيري
ضَعْ خُموري في جرارِكْ!

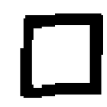
□

الغريبانِ اللذان احْتَرَقا فينا
هُما
مَنْ أَرادا قَتْلَنا قبل قليلٍ
وَهُما
مَنْ يعودان إلى سَيْفَيْهما بعد قليلٍ
وَهُما
مَنْ يقولان لنا: مَنْ أَنتما؟
ـ نحن ظلاَّن لِمَا كُنَّا هنا، واسمان
للقمحِ الذي ينبتُ في خبز المعاركْ

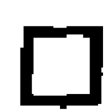
□

لا أُريدُ العودة الآن، كما
عاد الصليبيُّون منِّي، فأنا
كُلُّ هذا الصمت بين الجهتين: الآلهة
من جِهَةْ،
والذين ابتكرُوا أَسماءهم
من جِهَةٍ أُخرى،
أَنا الظلُّ الذي يمشي على الماءِ

أَنا الشاهدُ والمشهَدُ
والعابدُ والمَعْبَدُ
في أَرض حصاري وحصاركْ



كُنْ حبيبي بين حربين على المرآة ـ
قالت ـ لا أُريدُ العودةَ الآنَ إلى
حِضْنِ أَبي... خُذْني إلى كرمكَ، واجمعني
إلى أُمّك، عَطِّرني بماء الحبَق، انثرني
على آنية الفضَّة، مَشِّطني، وأَدخلني
إلى سِجْنِ اسمِكَ، اقتُلْني من الحبِّ،
تَزوَّجْني، وزَوِّجْني التقاليدَ الزراعيَّةَ،
دَرِّبني على الناي، واحرقني لكي أُولَدَ
كالعنقاءِ من ناري ونارك!



كان شيءٌ يُشبهُ العنقاءَ
يبكي دامياً،

قبل أَن يَسْقُطَ في الماء،
على مقربة من خَيْمَةِ الصيَّاد...

ما نَفْعُ انتظاري وانتظارِكْ؟

IV
غرفة للكلام مع النفس

تدابير شعريّة

لم يكُنْ للكواكب دَوْرٌ،
سوى أَنها
عَلَّمَتْني القراءةَ:
لي لُغَةٌ في السماءْ
وعلى الأرض لي لُغَةٌ
مَنْ أَنا؟ مَنْ أَنا؟

□

لا أُريدُ الجوابَ هنا

ربما وَقَعَتْ نجمةٌ فوق صورتها
ربما ارتفعتْ غايةُ الكستنا
بِيَ نَحْوَ المجرَّةِ، ليلاً،
وقالتْ: ستبقى هنا!

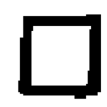
□

أَلقصيدةُ فوق، وفي وُسْعِها
أَن تُعَلِّمني ما تشاءُ
كأنْ أَفتح النافذةْ
وأُدير تدابيري المنزليَّةَ
بين الأساطير. في وسعها
أَن تزوِّجني نفسها ... زمناً

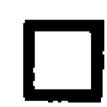
□

وأَبي تحت، يحملُ زيتونةً
عمرُها أَلفُ عامٍ،
فلا هِيَ شرقيَّةٌ
ولا هِيَ غربيةٌ.

رُبَّما يستريح من الفاتحين،
ويحنو عليَّ قليلاً،
ويجمَعُ ليْ سوسنا

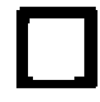


أَلقصيدةُ تبعد عنِّي،
وتدخل ميناءَ بحّارةٍ يعشقون النبيذَ
ولا يرجعون إلى امرأةٍ مَرَّتَيْنِ،
ولا يحملون حنيناً إلى أيِّ شيءٍ
ولا شَجَنا!

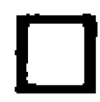


لم أَمُتْ بعد حُبّاً
ولكنَّ أُمّاً ترى نَظَراتِ ابنها
في القرنفل تخشى على المزهرية من جرحها،
ثُمَّ تبكي لتُبْعدَ حادثةً
قبل أَن تصِلَ الحادثةْ
ثم تبكي لتُرْجعني من طريق المصائدِ

حيّاً، لأحيا هنا



أَلقصيدةُ ما بين بين، وفي وُسْعِها
أَن تُضِيءَ الليالي بنَهْدَيْ فتاةٍ،
وفي وسعها أَن تضيء بتُفَّاحةِ جَسَدَيْنِ،
وفي وسعها أَن تُعيد،
بصرخة غاردينيا، وطناً!



ألقصيدةُ بين يديَّ، وفي وسعها
أَن تدير شؤون الأساطير،
بالعَمَل اليدويِّ، ولكنني
مذ وَجَدتُ القصيدةَ شرَّدتُ نفسي
وساءلتها:
من أنا
من أنا؟

من روميّات
أبي فراس الحمداني

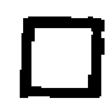
صدىً راجعٌ. شارعٌ واسعٌ في الصدى
خُطىً تَتَبادَلُ صَوْتَ السُّعَال، وتَدْنو
مِنَ الباب، شَيْئاً فشَيْئاً، وتَنْأَى
عن الباب. ثَمَّةَ أَهلٌ يَزُورُنَا
غداً، في خميس الزيارات. ثَمَّةَ ظِلٌّ
لنا في المَمَرِّ. وشمسٌ لنا في سلالِ
الفواكِهِ. ثَمَّةَ أُمٌّ تُعاتبُ سجَّانَنا:

لماذا أَرَقْتَ على العُشْب قهوَتنا يا
شَقيُّ؟ وثَمَّةَ مِلْحٌ يَهُبُّ من البحر،
ثمَّةَ بَحْرٌ يَهُبُّ من الملحِ. زنزانتي
اتَّسَعَتْ سنتيمتراً لصوت الحمامةِ: طيري
إلى حَلَبٍ، يا حمامةُ، طيري بِرُوميَّتي
واحملي لابنِ عمِّي سلامي!
صدىً
للصدى. للصدى سُلَّمٌ مَعْدَنيٌّ، شَفَافيَّةٌ، وندى
يعجُّ بمَنْ يَصْعَدون إلى فجرهم... وبمَنْ
ينزلون إلى قبرهم من ثُقُوب المَدَى...
خُذُوني إلى لُغَتي مَعَكُمْ! قلتُ:
ما ينفَعُ الناسَ يمكُثُ في كَلِماتِ القصيدِ
وأَمَّا الطُّبولُ فتطفو على جِلْدها زَبَدَا
وزنزانتي اتَّسَعَتْ، في الصدى، شرفةً
كَثَوْبِ الفتاة التي رافَقَتْني سُدى
إلى شُرُفات القطار، وقالتْ: أَبي
لا يُحبُّكَ. أُمِّي تُحبُّك. فاحذرْ سَدُومَ غدا
ولا تَنْتَظِرْني، صَبَاح الخميس، أَنا لا

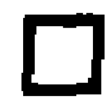
أُحبُّ الكثافَةَ حين تُخبِّئُ في سجنها
حَرَكات المعاني، وتتركُني جَسَدا
يَتَذكَّرُ غاباتِهِ وَحْدَهُ... للصدى غُرْفَةٌ
كزنزانتي هذه: غُرْفَةٌ للكلام مع النفسِ،
زنزانتي صُورَتي لم أَجِدْ حَوْلَها أَحدا
يُشَارِكني قهوتي في الصباح، ولا مِقْعَدا
يُشاركني عُزْلَتي في المساء، ولا مَشْهَدا
أُشارِكُهُ حَيْرتي لِبلُوغ الهُدَى.
فلأُكُنْ ما تريدُ لِيَ الخَيْلُ في الغَزَوات:
فإمَّا أَميراً
وإمَّا الردى!
وزنزانتي اتَّسَعَتْ شارعاً شارعين. وهذا الصدى
صدى، بارحاً سانحاً، سوف أخرُجُ من حائطي
كما يخرج الشَّبَحُ الحُرُّ من نفسه سَيِّدا
وأَمشي إلى حَلَبِ. يا حمامةُ طيري
برُوميَّتي، واحملي لابن عمِّي
سلامَ الندى!

من سماء إلى أختها
يعبر الحالمون

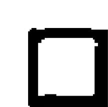
.. وتَرَكْنا طفولتنا للفراشة، حين تَرَكْنا
على الدَّرَجات قليلاً من الزيت، لكننا
نسينا تحيَّة نعناعنا حولنا، ونسينا
السلامَ السريعَ على غدنا بعدنا ...
كان حبرُ الظهيرة أَبيضَ، لولا
كتابُ الفراشة من حولنا ...



يا فراشةُ! يا أُخْتَ نفسك، كوني
كما شئتِ، قبلَ حنيني وبعد حنيني.
ولكنْ خُذيني أَخاً لجناحِكِ يَبْقَ جنوني
معي ساخناً! يا فراشةُ! يا أُمَّ
نفسك، لا تتركيني لما صَمَّمَ الحرفيّون
لي من صناديقَ ... لا تتركيني!

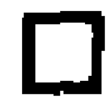


من سماءٍ إلى أُختها يعبُرُ الحالمونْ
حاملين مرايا من الماء حاشيةً للفراشةِ
في وسعنا أَن نكون
من سماءٍ
إلى أُختها
يعبُرُ الحالمونْ

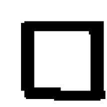


أَلفراشَةُ تنسجُ من إبرة الضوء
زينة ملهاتها

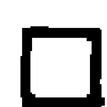
أَلفراشة تُولَدُ من ذاتها
والفراشةُ ترقص في نار مأساتها



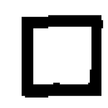
نصفُ عنقاءَ. ما مَسَّها مَسَّنا: شَبَهٌ
داكِنٌ بين ضوءٍ ونارٍ... وبين طريقين
لا. ليس طيشاً ولا حكمةً حُبُّنا
هكذا دائماً، هكذا ... هكذا
من سماءٍ
إلى أختها
يعبر الحالمون ...



أَلفراشةُ ماءٌ يحنُّ إلى الطيران. ويُفْلِتُ
من عَرَق الفتيات، وينبتُ في غيمةِ
الذكريات. الفراشة ما لا تقولُ القصيدةُ،
من فَرْطِ خِفَّتها تَكْسِرُ الكلماتِ، كما
يكسر الحُلْمُ الحالمين ...



وليكن ..
وليكن غدُنا حاضراً معنا
وليكن حاضراً أَمسُنا معنا
وليكن يَوْمُنا حاضراً
في وليمة هذا النهار المُعَدِّ
لعيد الفراشة، كي يعبر الحالمون
من سماءٍ إلى أُختها ... سالمين



من سماءٍ إلى أختها يعبُرُ الحالمون...

قال المسافر للمسافر: لن نعود كما ...

لا أَعرفُ الصحراءَ،
لكنّي نَبَتُّ على جوانبها كلاما...
قال الكلامُ، كلامَهُ، ومضيتُ
كامرأةٍ مُطَلَّقةٍ مضيتُ كزوجها المكسور،
لم أَحفظْ سوى الإيقاعِ
أَسمعُهُ
وأَتبعُهُ

وأَرفعُهُ يماما
في الطريق إلى السماء،
سماءِ أُغنيتي،
أَنا ابنُ الساحلِ السوري،
أَسكنُهُ رحيلاً أَو مُقاما
بين أَهل البحرِ،
لكنَّ السرابَ يشدُّني شرقاً
إلى البَدْو القُدامى،
أُوردُ الخيلَ الجميلةَ ماءَها،
وأَجسُّ نَبْضَ الأبجديَّة في الصدى،
وأَعودُ نافذةً على جِهَتَيْنِ...
أَنسى من أكونُ لكي أَكونَ
جماعةً في واحدٍ، ومُعَاصِراً
لمدائحِ البحّارة الغُرباءِ تحت نوافذي،
ورسالةَ المتحاربينَ إلى ذويهمْ:
لن نَعُودَ كما ذَهَبْنا
لن نَعُودَ ... ولو لماما!

لا أَعرفُ الصحراءَ،
مهما زُرْتُ هاجسَها،
وفي الصحراء قال الغَيْبُ لي:
أكتُبْ!
فقُلْتُ: على السراب كتابةٌ أُخرى
فقال: أكتُبْ ليخضرَّ السرابُ
فقُلتُ: ينقُصُني الغيابُ
وقُلْتُ: لم أَتعلَّمِ الكلماتِ بَعْدُ
فقال لي: أُكْتُبْ لتعرفها
وتعرفَ أَين كنتَ، وأَين أنتَ
وكيف جئتَ، ومَنْ تكونُ غداً،
ضعِ اسْمَكَ في يَدِيْ واكْتُبْ
لتعرف مَنْ أَنا، واذهبْ غماما
في المدى ...
فكتبتُ: مَنْ يكتُبْ حكايته يَرِثْ
أَرضَ الكلام، ويمْلُكِ المعنى تماما!

لا أَعرفُ الصحراءَ،
لكني أُودِّعُها: سلاماً
للقبيلةِ شَرْقَ أُغنيتي: سلاما
للسُّلالة في تَعدُّدِها على سَيْفٍ: سلاما
لابنِ أُمِّي تحت نَخْلَتِهِ: سلاما
للمُعَلَّقةِ التي حفظتْ كواكبنَا: سلاما
للسلام عليَّ بين قصيدتينِ:
قصيدةٍ كُتبَتْ
وأُخرى مات شاعرُها غراما!
أَأَنا؟
أَأَنا هنالك ... أم هنا؟
في كُلِّ «أَنتَ» أَنا،
أَنا أَنتَ المُخَاطَبُ، ليس منفى
أَن أكونَكَ. ليس منفى
أَن تكونَ أَنايَ أَنتَ. وليس منفى
أَن يكون البحرُ والصحراءُ

أُغنيةَ المسافرِ للمسافرِ:
لَنْ أَعودَ، كما ذَهَبْتُ،
ولن أَعُودَ ... ولو لماما!

قافية
من أجل المعلَّقات

ما دَلَّني أَحَدٌ عَلَيَّ. أَنا الدليلُ، أَنا الدليلُ
إليَّ بين البحر والصحراءِ. من لُغَتي وُلدتُ
على طريق الهند بين قبيلتَين صغيرتين عليهما
قَمَرُ الديانات القديمة، والسلامُ المستحيلُ
وعليهما أَن تحفظا فَلَكَ الجوار الفارسيِّ
وهاجسَ الروم الكبيرَ، ليهبط الزمن الثقيلُ
عن خيمة العربيِّ أَكْثَرَ. من أَنا؟ هذا

سؤالُ الآخرين ولا جوابَ له. أَنا لُغَتي أَنا،
وأَنا مُعَلَّقَةٌ ... مُعَلَّقتان ... عَشْرٌ، هذه لغتي
أَنا لغتي. أنا ما قالتِ الكلماتُ:
كُنْ
جَسَدي، فكُنْتُ لِنَبْرِها جَسَداً. أَنا ما
قُلْتُ للكلمات: كُوني ملتقى جَسَدي مع
الأبديَّة الصحراءِ. كُوني كي أكونَ كما أَقولُ!
لا أَرضَ فوق الأرض تحملني، فيحملني كلامي
طائراً متفرِّعاً مني، ويبني عشّ رحلته أَمامي
في حُطامي، في حطام العالم السحريِّ من حولي،
على ريح وَقَفْتُ. وطالَ بي ليلي الطويلُ
... هذه لغتي قلائد من نُجومٍ حول أَعناقِ
الأَحبَّة: هاجروا
أَخذوا المكان وهاجروا
أَخذوا الزمان وهاجروا
أَخذوا روائِحَهُمْ عَنِ الفخّارِ
والكَلأِ الشحيح، وهاجروا
أَخذوا الكلامَ وهاجَرَ القلبُ القتيلُ

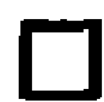
مَعَهُم. أَيَتَّسِعُ الصدى، هذا الصدى،
هذا السرابُ الأبيضُ الصوتيُّ لاسم تملأُ
المجهولَ بُحَّتُهُ، ويملأهُ الرحيلُ أُلوهةً؟
تَضَعُ السماءُ عليَّ نافذةً فأنظرُ: لا
أَرى أَحداً سوايَ ...
وجدتُ نفسي عند خارجها
كما كانت معي، ورؤايَ
لا تنأى عن الصحراء،
من ريحٍ ومن رملٍ خُطَايَ
وعالمي جَسَدي وما مَلَكَتْ يدايَ
أَنا المسافر والسبيلُ
يُطلُّ آلهةٌ عليَّ ويذهبون، ولا نُطيل
حدِيثَنا عمّا سيأتي. لا غَدٌ في
هذه الصحراء إلاّ ما رأينا أَمس،
فلأرفعْ مُعَلَّقتي لينكسرَ الزمانُ الدائريُّ
ويُولَدَ الوقتُ الجميلُ!
ما أَكْثَرَ الماضي يجيء غداً
تركتُ لنفسها نفسي التي امتلأتْ بحاضرها

وأَفرغني الرحيلُ
من المعابد. للسماءِ شعوبُها وحرُوبها
أَمَّا أَنا، فلِيَ الغزالةُ زوجةً، ولِيَ النخيلُ
معلقات في كتاب الرمل. ماضٍ ما أَرى
للمرء مملكَةُ الغُبار وتاجُهُ. فلتنتصرْ
لُغَتي على الدَّهْر العُدُوِّ، على سُلالاتي،
عليَّ، على أَبي، وعلى زَوَالٍ لا يزولُ
هذِهِ لُغَتي ومُعْجِزَتي. عصا سِحْري.
حدائقُ بابلي ومسَلَّتي، وهويتي الأولى،
ومعدَني الصقيلُ
ومقدَّسُ العربيِّ في الصحراءِ،
يعبُدُ ما يسيلُ
من القوافي كالنجوم على عَبَاءَتِهِ،
ويعبُدُ ما يقولُ

لا بُدَّ من نثرٍ إذاً،
لا بُدَّ من نَثْرٍ إلهيٍّ لينتصِرَ الرَّسُولُ ...

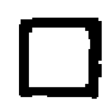
الدوري، كما هو كما هو...

حَيْرَة التقليد: هذا الغَسَقُ المُهْرَقُ
يَدْعُوني إلى خِفَّته خلف زُجاجِ
الضوءِ. لم أَحْلُمْ كثيراً بكَ، يا
دوريُّ. لم يحلُمْ جناحٌ بجناحٍ...
وكلانا قَلَقٌ

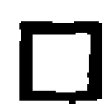


لَكَ ما ليس لِيَ: الزُّرْقَةُ أُنثاكَ
ومأواكَ رجوعُ الريح للريح،

فحلِّقْ! مثلما تعطشُ فيَّ الروحُ
للروحِ، وصَفِّقْ للنهارات التي ينسجها
ريشُكَ، واهجرني إذا شئتَ
فَبَيْتي، ككلامي ضَيِّقُ

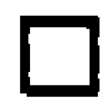


يألَفُ السَّقْفَ، كضيفٍ مَرِحٍ، يألَفُ
حَوْضَ الحَبَق الجالسَ، كالجدَّة، في
نافذةٍ ... يعرف أَين الماءُ والخبزُ،
وأَين الشَّرَكُ المنصوبُ للفأر...
ويهتزُّ جناحاهُ كشالِ امرأة تفلت منا،
ويطيرُ الأزرقُ...

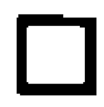


نَزِقٌ مِثْلِيَ هذا الاحتفالُ النَّزِقُ
يخمش القلب ويَرْمِيهِ على القشّ،
أَما من رَعْشَةٍ تمكُثُ في آنيةِ
الفضّة يوماً واحداً؟
وبريدي فارغٌ من أَيِّ مَلْهاةٍ،

ستأتي، أيها الدوريُّ، مهما
ضاقتِ الأرضُ وفاضَ الأُفُقُ



ما الذي يأخذُهُ مني جناحاكَ؟
توتَّرْ، وتبخَّرْ كنهارِ طائشٍ
لا بُدَّ من حبَّة قمح ليكون
الريشُ حُرّاً. ما الذي تأخذُهُ منك
مراياي؟ ولا بُدّ لروحي مِنْ
سماء، ليراها المُطْلَقُ



أَنتَ حُرٌّ. وأَنا حُرٌّ. كلانا يَعْشَقُ
الغائبَ. فلتبهطْ لكي أَصعَدَ. ولتصْعَدْ
لكي أَهبط. يا دوريُّ! هَبْني جَرَسَ
الضوء، أَهبْكَ المنزلَ المأهولَ بالوقتِ.
كلانا يُكْمِلُ الآخرَ،
ما بين سماءٍ وسماء،
عندما نفترقُ!

V

مطر فوق برج الكنيسة

هيلين، يا لَهُ من مطر

إِلتقَيْتُ بهيلينَ، يَوْمَ الثلاثاءِ
في الساعة الثالثةْ
ساعةِ الضَّجَر اللانهائيِّ،
لكنَّ صَوْتَ المَطَرْ
مَعَ أُنثى كهيلينَ
ترنيمةٌ للسَّفَرْ

مَطَرٌ،
يا لَهُ من حنينٍ ... حنينِ السماءِ

إلى نفسها!
مَطَرٌ،
يا لَهُ من أنينٍ ... أَنينِ الذئابِ
على جِنْسها!

مَطَرٌ فوق سقف الجفافِ،
الجفافِ المذَهَّبِ في أَيقُونات الكنائس،
ـ كم تَبْعُدُ الأرضُ عنِّي؟
وكَمْ يبعُدُ الحُبُّ عنكِ؟
يقولُ الغريبُ لبائعة الخبز، هيلينَ،
في شارعٍ ضَيِّقٍ مثل جَوْرَبها،
ـ ليس أكثرَ من لَفْظَةٍ ... ومَطَرْ!

مَطَرٌ جائعٌ للشَّجَرْ ...
مَطَرٌ جائعٌ للحَجَرْ ...

ويقولُ الغريبُ لبائعةِ الخبز:
هيلينُ هيلينُ! هل تصعَدُ الآنَ

رائحةُ الخبز منكِ، إلى شرفةٍ
في بلادٍ بعيدةْ ...
لتنسخَ أَقوالَ «هُومِيرَ»؟
هل يصعَدُ الماءُ من كتفَيْكِ إلى
شَجَرٍ يابسٍ في قصيدةْ؟

تقول لَهُ: يا لَهُ مِنْ مطرْ
يا لَهُ مِنْ مَطَرْ!

ويقولُ الغريبُ لهيلينَ: يَنْقُصُني
نَرْجِسٌ كي أُحَدِّقَ في الماءِ،
مائِكِ، في جَسَدي. حَدِّقي أَنتِ
هيلينُ، في ماء أَحلامنا... تَجدي
الميتين على ضَفَّتَيْك يُغَنُّون لاسْمِكِ:
هيلينُ ... هيلينُ! لا تتركينا
وَحِيدين مِثْلَ القَمَرْ

ـ يا لَهُ من مَطَرْ

يا لَهُ من مطرْ

ويقولُ الغريبُ لهيلينَ: كُنْتُ أُحاربُ
في خَنْدَقَيْكِ، ولم تَبْرَئي من دمي
الآسْيَوِيِّ. ولن تبرئي من دمٍ
مُبْهَمٍ في شرايين وَرْدِكِ. هيلينُ!
كَمْ كانَ إغريقُ ذاك الزمانِ قُسَاةً،
وكم كان «أُوليسُ» وَحْشاً يُحِبُّ السَّفَرْ
باحثاً عن خُرَافَتِهِ في السَّفَرْ!

الكلامُ الذي لم أَقُلْهُ لها
قُلتُهُ. والكلامُ الذي قُلْتُهُ
لم أَقُلْهُ لهيلينَ. لكنَّ هيلينَ
تعرفُ ما لا يقولُ الغريبُ...
وتعرفُ ماذا يقول الغريب لرائحةٍ
تتكسَّرُ تحت المَطَرْ،
فتقول لَهُ:
حَرْبُ طروادةٍ لم تَكُنْ

لم تكن أَبداً
أبداً ...
يا لَهُ مِنْ مطرْ
يا لَهُ من مَطَرْ!

ليلٌ يفيض من الجَسَد

ياسِمينٌ على لَيْلِ تَمّوزَ، أُغْنيَّةٌ
لِغَريبَيْنِ يلتقيانِ على شارعٍ
لا يؤدِّي إلى هَدَف ...
مَنْ أَنا بعد عينينِ لوزيَّتين؟ يقول الغريبْ
مَنْ أَنا بعد منفاكَ فيَّ؟ تقول الغريبةْ.
إذنْ، حسناً، فلنَكُنْ حَذِرَيْنِ لئلا
نُحَرِّكَ ملْحَ البحار القديمةِ في جَسَدٍ يتذكَّرُ..
كانت تُعيدُ لَهُ جَسَداً ساخناً،
ويُعيدُ لها جَسَداً ساخناً.

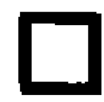
هكذا يترُكُ العاشقانِ الغريبانِ حُبَّهما
فَوْضَوِيّاً، كما يتركان ثيابَهما الداخليَّةَ
بين زُهور الملاءات...
ـ إن كُنْتَ حقاً حبيبي، فألِّفْ
نشيدَ أَناشيدَ ليْ، واحفُرِ اسمِي
على جِذْع رُمَّانةٍ في حدائِقِ بابلَ...
ـ إن كُنْتِ حقاً تُحِبينَني، فَضَعي
حُلُمي في يديَّ. وقولي لَهُ، لابنِ مريمَ،
كيف فَعَلْتَ بنا ما فعلتَ بنفسِكَ،
يا سيِّدي، هل لدينا من العَدْل ما سوف يكفي
ليجعلنا عادلين غداً؟
ـ كيف أُشفى من الياسمين غداً؟
ـ كيف أُشفى من الياسمين غداً؟
يُعْتِمانِ معاً في ظلالٍ تشعُّ على
سقف غُرْفَتِهِ: لا تكُنْ مُعْتِماً
بَعْدَ نهديَّ ـ قالت له ...
قال: نهداكِ ليلٌ يُضيءُ الضروريَّ
نهداكِ ليلٌ يُقَبِّلُني، وامتلأنا أَنا

والمكانُ بليلٍ يَفيضُ من الكأسِ ...
تَضْحَكُ من وَصْفِه. ثم تضحك أكثَرَ
حين تُخَبِّىءُ مُنْحَدَرَ الليل في يدها...
ـ يا حبيبيَ، لو كان لي
أَنْ أَكونَ صَبيّاً... لكُنْتُكَ أَنتَ
ـ ولو كان لي أنْ أكونَ فتاةً
لكنتُكِ أَنتِ! ...
وتبكي، كعادتها، عند عَوْدَتِها
من سماءٍ نبيذيّةِ اللون: خُذْني
إلى بَلَدٍ ليس لي طائرٌ أَزرقٌ
فوق صَفْصَافِهِ يا غريبُ!
وتبكي، لتَقْطَعَ غاباتِها في الرحيلِ
الطويلِ إلى ذاتها: مَنْ أَنا؟
مَنْ أَنا بعد مَنْفاكَ في جَسَدي؟
آه منِّي، ومنكَ، ومن بلدي
ـ مَنْ أَنا بعد عينين لوزيَّتين؟
أَرِيني غَدِي!...
هكذا يتركُ العاشقانِ وداعَهُما

فَوْضويّاً، كرائحةِ الياسمين على ليل تمُّوزَ ...
في كُلِّ تمُّوزَ يَحْملُني الياسمينُ إلى
شارعٍ، لا يؤدِّي إلى هَدَفٍ،
بَيْدَ أني أُتابعُ أغنيتي:
ياسمينٌ
على
ليل
تمّوز ......

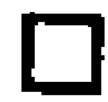
للغجرية، سماء مُدَرَّبة

تَتْرُكِينَ الهواءَ مريضاً على شَجَر التوتِ،
أَمَّا أَنا
فسأمشي إلى البحر كيف أَتنفَّسْ
لماذا فَعَلْتِ بنا ما فَعَلْتِ ... لماذا
مَلَلْتِ الإقامة، يا غجريَّةُ،
في حارة السَّوْسَنةْ؟

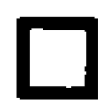


عِنْدَنا ما تُريدينَ مِنْ ذَهَبٍ ودمٍ

طائشٍ في السُّلالات. دُقِّي بكَعْبِ حذائكِ
أَيقونَةَ الكون تهبطْ إليك الطيورُ. هناك
ملائكةٌ... وسماءٌ مُدرَّبةٌ، فاصْنَعي ما
تشائين! دُقِّي القلوب ككسَّارة الجوز
يَنْزُغْ دَمُ الأحصنةْ!

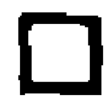


لا بلادَ لشعرِكِ. لا بَيْتَ للريح. لا
سَقْفَ لي في ثُرَيَّاتِ صَدْرِكِ. من لَيْلَكِ
ضاحِكٍ حول لَيْلِكِ أسْلُكُ دَرْبَ
الشُّعَيْرات وحدي. كأنَّكِ مِنْ صُنْعِ
نَفْسِكِ، يا غجريَّةُ،
ماذا صَنَعْتِ بصلصالنا منذ تلك السَّنَةْ؟

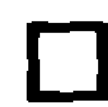


تَرْتَدِينَ المكانَ كما ترتدينَ سراويلَ نارٍ
على عَجَلٍ. لا وظيفةَ للأرض تحت يديكِ
سوى الالتفاتِ إلى أَدوات الرحيل: خلاخيلَ

للماءِ. جيتارة للهواء، وناي لتبتعدَ
الهندُ أكثرَ. يا غجريَّةُ لا تتركينا كما
يترُكُ الجيشُ آثارَهُ المُحْزِنَةْ!

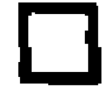


عندما، في نواحي السنونو، هبطتِ علينا
فَتَحْنا على الأبديَّةِ أَبوابَنا صاغرين. خيامُك
جيتارةٌ للصعاليك. نعلو ونرقص حتى مغيب
الغروب المُدَمَّى على قَدَمَيْكِ. خيامُك
جيتارةٌ لخيول الغُزاة القدامى تَكرُّ
لتصنع أُسطورَةَ الأمكنةْ



كُلَّما حَرَّكَتْ وَتَراً مَسَّنا جنُّها. وانتقلنا
إلى زَمَنٍ آخر. وكَسَرْنا أَباريقنا، واحداً
واحداً، لنُصاحِبَ إيقاعَها. لم نَكُنْ طيِّبينَ
ولا سيّئينَ، كما في الروايات. كانت
تُسَيِّرُ أَقدارنا بأَصابعها العَشْرِ،

دندنةً ... دندنةْ!



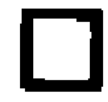
غيمةً، حَمَلَتْها اليماماتُ من نومنا
هل تعودُ غداً؟ لا. يقولون: لا
ترجِعُ الغجريَّةُ. لا تَعْبُرُ الغجريَّةُ في بَلَدٍ
مَرَّتين. فمن سيزفُّ، إذاً، خَيْلَ هذا
المكانِ إلى جِنْسِها؟ من يُلمِّعُ مِنْ
بعدها فِضَّةَ الأمكنةْ؟

تمارين أولى
على جيتارة إسبانية

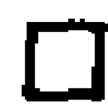
جيتارتانْ
تَتبادلانِ مُوَشَّحاً
وتُقَطِّعانْ
بحريرِ يَأْسهما
رُخامَ غيابنا
عن بابنا،
وتُرَقِّصانِ السنديانْ

□

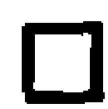
جيتارتانْ



أَبديَّةٌ زَرْقاءُ تحملُنا،
وتسقُطُ غيمتانْ
في البحر قُرْبَكِ،
ثم تصعَدُ مَوْجَتانْ
فوقَ السَّلالم، تَلْحَسَانِ خُطاكِ
فوقَ، وتُضْرِمانْ
مِلْحَ الشواطئ في دمي
وتُهَاجرانِ
إلى غيوم الأُرجوانْ!



جيتارتانْ



الماءُ يَبْكي، والحَصَى، والزعفرانْ

والريحُ تبكي:
«لم يَعُد غَدُنا لنا ...»
والظلُّ يبكي خَلْفَ هِسْتِيرْيا حصانٍ
مَسَّهُ وَتَرٌ، وضاقَ به المَدَى
بين المُدَى والهاويةْ،
فاخْتَار قَوْسَ العُنْفُوانْ

□

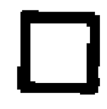
جيتارتانْ ...

□

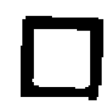
أغنيةٌ بيضاءُ للسمراءِ،
ينكسرُ الزمانْ
ليمُرَّ هَوْدَجُها على جَيْشَينِ:
مِصْرِيٌّ، وحِثّيٌّ
ويرتفعُ الدخانُ
دخانُ زِينَتِها المُلَوَّنُ
فوق أَنقاض المكانْ ...

□

جيتارتانْ ...



لا شيءَ يأخُذُ مِنْكِ أَندَلُسَ الزمانِ
ولا سَمَرْقَنْدَ الزمانْ
إلاّ خطى النَّهَوَنْدِ:
تلكَ غزالةٌ سَبَقَتْ جنازَتَها
وطارتْ في مَهَبّ الأُقحوانْ
يا حُبُّ! يا مَرَضِي المريضَ
كفى، كفى!
لا تَنْسَ قَبْرَكَ مَرَّةً أُخرى
على فَرَسي،
ستذبحُنا هنا جيتارتانْ



جيتارتان ...
جيتارتان ...

أيّام الحُبّ السبعة

الثلاثاء: عنقاء

يكفي مُرورُكِ بالألفاظ كي تَجِدَ
العنقاءُ صُورَتَها فينا، وكي تَلِدَ
الروحُ التي وُلدتْ من روحه جسدا ...
لا بُدَّ من جَسَدٍ للروح تُحْرِقُهُ
بنفسها ولها، لا بُدَّ من جَسَدِ
لتُظْهِرَ الروحُ ما أَخفتْ من الأَبدِ
فلنحترِقْ، لا لشيءٍ، بل لنتَّحِدا!

الأربعاء: نرجسَة

خمسٌ وعشرون أُنْثى عُمْرُها. وُلدتْ
كما تريدُ ... وتمشي حول صُورَتها
كأنها غيرُها في الماء: ينقُصُني
ليلٌ ... لأركض في نَفْسي. وينقصني
حُبٌّ لأَقفز فوق البرج ... وابتعَدَتْ
عن ظلِّها، ليمُرَّ البرقُ بينهما
كما يمرُّ غريبٌ في قصيدتِهِ ...

الخميس: تكوين

وجدتُ نَفْسِيَ في نفسي وخارجها
وأَنتِ بَيْنَهُما المرآةُ بينهما...
تَزُورُكِ الأرضُ أَحياناً لزينتها
وللصُّعود إلى ما سَبَّبَ الحُلُما.
أَمَّا أَنا، فَبِوُسْعي أَنْ أكونَ كما
تَرَكْتِني أَمسِ، قُرْبَ الماء، مُنْقَسِما
إلى سماءٍ وأرضٍ. آهِ... أَين هُما؟

الجمعة: شتاء آخر

إذا ذَهَبْتِ بعيداً، عَلِّقي حُلُمي
على الخزانة ذكرى مِنْكِ، أَو ذكرى
منِّي. سَيَأْتي شتاءٌ آخرٌ، وأَرى
حمَامَتَيْنِ على الكُرْسيِّ، ثُمَّ أَرى
ماذا صَنَعْتِ بِجَوْزِ الهند: من لُغتي
سالَ الحليبُ على سُجَّادة أُخرى

إذا ذهبتِ خُذي فصل الشتاء، إذاً!

السبت: زواج الحمام

أُصْغِي إلى جَسَدي: للنَّحْلِ آلِهَةٌ
وللصهيل رَبَاباتٌ بلا عَدَدِ
أَنا السحابُ، وأَنتِ الأرضُ، يُسْنِدُها
على السياج أَنينُ الرَّغْبَة الأَبدي
أُصْغي إلى جَسَدي: للموت فاكِهَةٌ
وللحياةِ حياةٌ لا تُجَدِّدُها
إلاّ على جَسَدٍ ... يصغي إلى جَسَدِ

الأَحد: مَقَامُ النَّهَوَنْد

يُحبُّكِ، اقْتَرِبي كالغَيْمَةِ... اقترِبي
مِنَ الغريب على الشُّبَّاك يجهش بي:
أُحِبُّها. انْحَدِري كالنجمة... انْحَدِري
على المُسَافر كي يبقى على سَفَرِ:
أُحبُّكِ. انْتَشِري كالعَتْمة... انتشري
في وردة العاشق الحمراء، وارْتَبِكي
كالخيمة، ارتبكي، في عُزْلَةِ المَلِكِ ...

الاثنين: مُوَشَّح

أَمُرُّ باسْمِكِ، إذْ أَخلُو إلى نَفَسِي
كما يَمُرُّ دِمَشْقِيٌّ بأَندَلُسِ

هنا أَضاءَ لَكِ الليمونُ مِلْحَ دَمِي
وههنا، وَقَعَتْ ريحٌ عن الفَرَسِ

أَمرٌ باسْمِكِ، لا جَيْشٌ يُحاصِرُني
ولا بلادٌ. كأَنِّي آخرُ الحَرَسِ
أَو شاعرٌ يَتَمشَّى في هواجسِهِ ...

VI

أغلقوا المشهد ...

شهادة من برتولت بريخت
أمام محكمة عسكرية

(١٩٦٧)

سيِّدي القاضي!
أَنا لستُ بجنديٍّ،
فماذا تطلبون الآنَ منِّي؟
وأَنا لا شأنَ لي في ما تقولُ المحكمةْ،
ذَهَبَ الماضي إلى الماضي سريعاً...
دون أَن يسمَعَ منِّي كَلِمَةْ.

مَضَتِ الحربُ إلى المقهى لترتاحَ...
وطيَّارُوك عادوا سالمينْ
والسماءُ انكسرتْ في لُغَتي، يا سيِّدي
القاضي ـ وهذا شأنيَ الشخصيُّ ـ
لكنَّ رعاياكَ يجرُّون سمائي خلفهُمْ ... مبتهجينْ
ويُطلُّون على قلبي، ويرمون قشورَ الموزِ
في البئر. ويمضون أَمامي مسرعينْ
ويقولونَ: مساء الخير، أَحياناً،
ويأتونَ إلى باحة بيتي... هادئينْ
وينامُونَ على غَيْمةِ نَوْمي ... آمنينْ
ويقولون كلامي نفسَهُ،
بَدَلاً مني،
لشُبَّاكي، وللصيف الذي يَعْرَق عطرَ الياسمينْ
ويُعيدون منامي نفسَهِ،
بَدَلاً منِّي،
ويبكون بعينيَّ مزاميرَ الحنينْ
ويُغنُّون، كما غنَّيْتُ للزيتونِ والتينِ
وللجزئيِّ والكُلّيِّ في المعنى الدفينْ

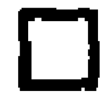
ويعيشون حياتي مثلما تعجبُهُمْ،
بَدَلاً مني،
ويمشون على اسمي حَذِرينْ
وأَنا، يا سيِّدي القاضي هنا
في قاعة الماضي، سجينْ
مَضَتِ الحربُ. وضُبَّاطُكَ عادوا سالمينْ
والكرومُ انتشرتْ في لغتي، يا سيِّدي
القاضي ـ وهذا شأنيَ الشخصيُّ ـ إنْ
ضاقتْ بيَ الزنزانةُ امتدَّتْ بِيَ الأرضُ،
ولكنَّ رعاياكَ يجُسُّون كلامي غاضبينْ
ويَصيحُون بآخابَ وإِيزابيلَ: قُوما، وَرِثا
بستانَ نابوتَ الثمين!
ويقولون: لنا اللهُ
وأَرضُ الله
لا للآخرينْ!
ما الذي تطلبه، يا سيدي القاضي،
من العابر بين العابرين؟
في بلادٍ يَطْلُبُ الجلاّدُ فيها

من ضحاياهُ مديحَ الأَوسمةْ!
آنَ لي أَن أَصرُخَ الآنَ
وأَن أُسْقِطَ عن صوتي قناعَ الكَلِمةْ:
هذه زنزانةٌ، يا سيِّدي، لا مَحْكَمةْ
وأَنا الشاهدُ والقاضي. وأَنت الهيئةُ المُتَّهمَةْ
فاتركِ المقعدَ، واذهب: أَنتَ حُرٌّ أَنتَ حُرٌّ،
أيها القاضي السجينْ
إنَّ طياريكَ عادوا سالمينْ
والسماءَ انكسرتْ في لُغَتي الأُولى ـ
وهذا شأنِيَ الشخصيُّ ـ كي يرجِعَ
موتانا إلينا ـ سالمينْ!

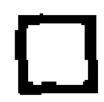
خلاف، غير لُغوي، مع امرىء القيس

أَغلقوا المَشْهَدَ
تاركين لنا فُسْحَةً للرجوع إلى غَيرنا
ناقصينَ. صَعِدْنا على شاشة السينما
باسمينَ، كما يَنْبَغي أَن نكونَ على
شاشة السينما، وارْتَجَلْنا كلاماً أُعِدَّ
لنا سَلَفاً، آسفين على فُرصَةِ
الشُّهَداءِ الأخيرةِ. ثم انْحَنَيْنَا نُسَلِّمُ

أَسماءَنا للمُشَاة على الجانبين. وَعُدْنا
إلى غَدِنا ناقصينْ ...

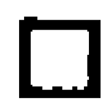


أَغلقوا المَشْهَدَ
انتصروا
عَبَروا أمسَنا كُلَّهُ،
غَفَروا
للضحيَّةِ أخطاءَها عندما اعتَذَرَتْ
عَنْ كلامٍ سيخطُرُ في بالها،
غيَّروا جَرَسَ الوقتِ
وانتصروا ...

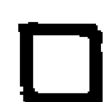


عندما أَوْصَلُونا إلى الفَصْلِ قبل الأخيرِ
التَفَتْنا إلى الخلف: كان الدخانُ
يُطِلُّ مِنَ الوقت أَبيضَ فوق الحدائق
من بَعْدنا. والطواويسُ تنشُرُ مروحةَ

اللون حول رسالة قَيْصَر للتائبينَ
عن الـمُفْرَدات التي اهتَرأَتْ. مثلاً:
وَصْفُ حُرّيَّةٍ لم تجدْ خُبْزَها. وَصْفُ
خُبْزٍ بلا مِلْحِ حُرّيَّةٍ، أَو مديحُ حمامٍ
يطيرُ بعيداً عن الشُّوقِ ...
كانت رسالةُ قَيْصَرَ شمبانيا للدخانِ
الذي يتصاعَدُ من شُرْفَةِ الوقت
أَبيض ...



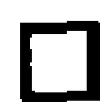
أَغلقوا الـمَشْهَدَ
انتظروا
صَوَّروا ما يريدونَهُ من سماواتنا
نجمةً .. نجمةً
صَوَّروا ما يريدونه من نهاراتنا
غيمةً غيمةً،
غَيَّروا جَرَسَ الوقتِ
وانتصروا ...



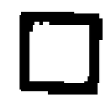
إلتفتنا إلى دَوْرِنا في الشريط المُلَوَّنِ،
لكننا لم نَجِدْ نجمةً للشمال ولا خيمةً
للجنوب. ولم نَتَعَرَّفْ على صوتنا أَبداً.
لم يكن دَمُنا يتكلَّمُ في الميكروفونات في
ذلك اليوم، يَوْمَ اتّكأْنا على لُغَةٍ
بَعْثَرَتْ قلبها عندما غيَّرتْ دَرْبَها. لم
يَقُلْ أَحدٌ لامرئ القيس: ماذا صنعتَ
بنا وبنفسكَ؟ فاذهبْ على درب
قَيْصَرَ، خلف دُخانٍ يُطلُّ مِنَ
الوقت أَسْوَدَ. واذْهَبْ على درب
قَيْصَرَ، وَحْدَكَ، وَحْدَكَ، وَحْدَكَ
واتركْ لنا، ههنا، لُغَتَكْ!

مُتَتاليات
لزمن آخر

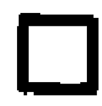
كانَ يوماً مُشرِعاً. أَنصتُّ للماءِ
الذي يأخُذُهُ الماضي ويمضي مُشرِعاً،
تَحْتَ،
أَرى نفسيَ تَنْشَقُّ إلى اثنين:
أَنا،
واسمي ...



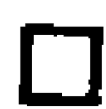
لكي أَحلُم لا يلزمُني شيءٌ: قليلٌ
من سماءٍ لزياراتي سيكفي لأَرى
الوقتَ خفيفاً وأَليفاً
حَوْلَ أَبراج الحمامْ



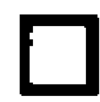
وقليلٌ من كلام الله للأَشجارِ
يكفيني لكي أَبنيَ بالألفاظِ
مأوى آمناً
للكراكيِّ التي أَخطأها الصيَّادُ ...



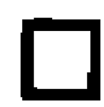
كَمْ كان على ذاكرتي أَن تحفَظَ
الأسماءَ. كَمْ أَخطأتُ في تَهْجِيَةِ
الأَفعال. لكنْ هذه النجمةُ من
صُنْعِ يدي فوق الرخامْ ...



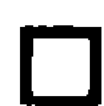
كان يوماً مُسْرِعاً. لم يَعْتَذِرْ
أَحَدٌ من أَحَدٍ فيه. ولم يسقُطْ
على الشارع غيمُ الشجر العالي
ولم يَلْمَعْ دَمٌ فوق الكلامْ



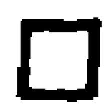
كلُّ شيءٍ هادئٌ في مُلْتَقَى البَحْرَين
لا تاريخَ للأيام منذ اليوم،
لا موتى ولا أَحياءَ. لا هُدْنَةَ،
لا حَرْبَ علينا أَو سلامْ



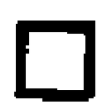
وحياتي في مكانٍ آخرٍ. ليس مُهِمّاً
وَصْفُ مقهى وحوارٍ بين شُبَّاكَيْنِ
مَهْجُورَيْنِ. أَو وَصْفُ خريفٍ يمضَغُ
العِلْكَةَ في هذا الزحامْ



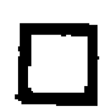
... ولكي أَحلُمَ لا يلزَمُني بَيْتٌ
كبيرُ. فقليلٌ من نُعاس الذئبِ
في الغابة يكفي لأرى، فوقَ،
سماءً لزياراتي ...



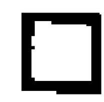
حياتي في مكانٍ آخرٍ. ليس مُهمّاً
أَن تراها بنتُ جنكيزخانَ في سروالها
أَو يراها قارىءٌ تدخُلُ في المعنى
كما يدخُلُ حبرٌ في الظلامْ



كان يوماً مُشرِعاً. والغَدُ ماضٍ
قادمٌ من حفلة الشاي. غداً كُنّا!
وكان الأمبراطورُ لطيفاً معنا. كنا
غداً... نشهَدُ تدشينَ الزُّكامْ ...



كُلُّ شيء هادئٌ. ليس مُهمّاً
وَصْفُ حدَّادينَ لم يُصْغوا إلى
التانْجُو، ولا موتي ينامون، كما
ناموا ولم يَعْتَذِروا للسيد التاريخ ...



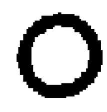
كي أَحلُم، لا يلزمُني لَيْلٌ كهذا ...
وقليلٌ من سماءٍ لزياراتي، سيكفي
لأرى الوقتَ خفيفاً،
وأَليفاً،
وأَنام ...

... عندما يبتعد

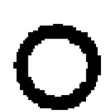
للعدُوِّ الذي يشربُ الشايَ في كوخنا
فَرَسٌ في الدخانِ. وبنْتٌ لها
حاجبان كثيفانِ. عينانِ بُنّيتان. وشَعْرٌ
طويلٌ كَلَيْلِ الأغاني على الكَتِفَيْنِ. وصورَتُها
لا تفارِقُهُ كُلَّما جاءنا يطلُبُ الشايَ. لكنَّهُ
لا يُحَدِّثنا عن مشاغلها في المساء، وَعَنْ
فَرَس تَرَكَتْهُ الأغاني على قمَّة التلِّ .../

○

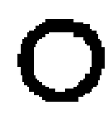
... في كوخنا يستريحُ العَدُوُّ من البُندقيَّة،
يترُكُها فوق كُرسيٍّ جَدِّي. ويأكُلُ من خبزنا
مثلما يفعَلُ الضيفُ. يغفو قليلاً على
مقعد الخَيْزَرانِ. ويحنُو على فَرْوِ
قِطَّتنا. ويقولُ لنا دائماً:
لا تلوموا الضحيَّةَ!
نسألُهُ: مَنْ هِيَ؟
فيقولُ: دَمٌ لا يُجَفِّفُهُ الليل .../



... تلمعُ أزرارُ سُتْرَتِهِ عندما يبتعدْ
عِمْ مساءً! وسَلِّمْ على بئرنا
وعلى جِهَةِ التين. وامشِ الهُوَيْنَى على
ظلِّنا في حقول الشعيرِ. وسَلِّمْ على سَرْونا
في الأعالي. ولا تَنْسَ بوَّابةَ البيت مفتوحةً
في الليالي. ولا تَنْسَ خَوْفَ
الحصان من الطائراتِ،
وسَلِّمْ علينا، هُنَاكَ، إذا اتَّسَعَ الوقتُ.../



هذا الكلامُ الذي كان في وُدِّنا
أَن نَقولَ على الباب ... يَسْمَعُهُ جيِّداً
جيِّداً، ويُخبِّئُهُ في السُّعال السريعِ
ويُلْقي به جانباً.
فلماذا يزورُ الضحيَّةَ كُلَّ مساءٍ؟
ويحفَظُ أَمثالَنا مِثْلَنا،
ويُعيدُ أَناشيدَنا ذاتها،
عن مواعيدنا ذاتها في المكان المُقدَّسِ؟
لولا المسدسُ لاختلط النايُ في الناي .../



... لن تنتهي الحربُ ما دامتِ الأَرضُ
فينا تدورُ على نفسها!
فلنَكُنْ طَيِّبينَ. ويقرأُ شِعراً
لطيّار «ييتْس: أَنا لا أُحبُّ الذينَ
أُدافعُ عنهُمْ، كما أَنني لا أُعادي

الذينَ أُحاربُهُمْ ...
ثم يخرجُ من كوخنا الخشبيِّ،
ويمشي ثمانينَ متراً إلى
بيتنا الحجريِّ هناك على طَرَفِ السَّهْلِ .../

○

سَلِّمْ على بيتنا يا غريبُ.
فناجينُ
قهوتنا لا تزال على حالها. هل تَشُمُّ
أَصابعَنَا فوقها؟ هل تقولُ لبنتك ذاتِ
الجديلةِ والحاجبين الكثيفين إنَّ لها
صاحباً غائباً،
يتمنَّى زيارَتَها، لا لِشيءٍ ...
ولكنْ ليدخل مِرْآتَها ويرى سِرَّهُ:
كيف كانت تُتابع من بعده عُمْرهُ
بدلاً منه؟ سَلِّمْ عليها
إذا اتَّسَعَ الوقت.../

○

هذا الكلامُ الذي كان في وُدِّنا
أَن نقولَ له، كان يسمعُهُ جيِّداً
جَيِّداً،
ويُخبِّئُهُ في سُعالٍ سريعٍ،
ويُلقى به جانباً، ثم تلمَعُ
أزرارُ سُتْرَتِهِ عندما يَبْتَعِدْ ...

محمـود درويـش

جداريـة



الطبعة الأُولى: حزيران/ يونيو ٢٠٠٠
الطبعة الثانية: شباط/ فبراير ٢٠٠١

قصيدة

[كتبت عام ١٩٩٩]

هذا هُوَ آسمُكَ/

قالتِ آمرأةٌ،

وغابتْ في المَمَرِّ اللولبيِّ ...

أَرى السماءَ هُنَاكَ في مُتَناوَلِ الأَيدي.

ويحملُني جناحُ حمامةٍ بيضاءَ صَوْبَ

طُفُولَةٍ أُخرى. ولم أَحلُمْ بأني

كنتُ أَحلُمُ. كُلُّ شيء واقعيٌّ. كُنْتُ

أَعلَمُ أَنني أُلْقي بنفسي جانباً ...

وأَطيرُ. سوف أكونُ ما سأَصيرُ في

الفَلَك الأَخيرِ. وكُلُّ شيء أَبيضُ،
اَلبحرُ المُعَلَّقُ فوق سقف غمامةٍ
بيضاءَ. واللَّا شيء أَبيضُ في
سماء المُطْلَق البيضاءِ. كُنْتُ، ولم
أَكُنْ. فأنا وحيدٌ في نواحي هذه
الأَبديَّة البيضاء. جئتُ قُبَيْل ميعادي
فلم يَظْهَرْ ملاكٌ واحدٌ ليقول لي:
«ماذا فعلتَ، هناك، في الدنيا؟»
ولم أَسمع هُتَافَ الطيِّبينَ، ولا
أَنينَ الخاطئينَ، أَنا وحيدٌ في البياض،
أَنا وحيدُ ...

لا شيء يُوجِعُني على باب القيامةِ.

لا الزمانُ ولا العواطفُ. لا
أُحِسُّ بخفَّةِ الأشياء أَو ثِقَلِ
الهواجس. لم أَجد أَحداً لأسأل:
أَين «أَيْني» الآن؟ أَين مدينةُ
الموتى، وأَين أنا؟ فلا عَدَمٌ
هنا في اللا هنا ... في اللا زمان،
ولا وُجُودُ

وكأنني قد متُّ قبل الآن ...
أَعرفُ هذه الرؤيا، وأَعرفُ أَنني
أَمضي إلى ما لَسْتُ أَعرفُ. رُبَّما
ما زلتُ حيّاً في مكانٍ ما، وأَعرفُ

ما أُريدُ ...

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ

سأَصير يوماً فكرةً. لا سَيْفَ يحملُها
إلى الأرضِ اليبابِ، ولا كتابَ ...
كأنَّها مَطَرٌ على جَبَلٍ تَصَدَّعَ من
تَفَتُّح عُشْبَةٍ،
لا القُوَّةُ انتصرتْ
ولا العَدْلُ الشريدُ

سأَصير يوماً ما أُريدُ

سأصير يوماً طائراً، وأَسُلُّ من عَدَمي

وجودي. كُلَّما آحترَقَ الجناحانِ
آقتربتُ من الحقيقةِ، وانبعثتُ من
الرمادِ. أَنا حوارُ الحالمين، عَزَفْتُ
عن جَسَدي وعن نفسي لأُكْمِلَ
رحلتي الأولى إلى المعنى، فأَحْرَقَني
وغاب. أَنا الغيابُ. أَنا السماويُّ
الطريدُ.

سأَصير يوماً ما أُريدُ

سأصيرُ يوماً شاعراً،
والماءُ رَهْنُ بصيرتي. لُغتي مجازٌ
للمجاز، فلا أَقولُ ولا أشيرُ

إلى مكانٍ. فالمكان خطيئتي وذريعتي.
أَنا من هناك. «هُنا»يَ يقفزُ
من خُطَايَ إلى مُخَيَّلتي ...
أَنا من كُنْتُ أَو سأكونُ
يَصْنَعُني ويَصْرعُني الفضاءُ اللانهائيُّ
المديدُ.

سأَصير يوماً ما أُريدُ

سأَصيرُ يوماً كرمةً،
فَلْيَعْتَصِرني الصيفُ منذ الآن،
وليشربْ نبيذي العابرون على
ثُرَيَّات المكان السُكَّريِّ!
أَنا الرسالةُ والرسولُ

أَنا العناوينُ الصغيرةُ والبريدُ

سأَصير يوماً ما أُريدُ

هذا هُوَ ٱسمُكَ/
قالتِ ٱمرأةٌ،
وغابتْ في مَمَرِّ بياضها.
هذا هُوَ ٱسمُكَ، فاحفظِ ٱسْمَكَ جَيِّداً!
لا تختلفْ مَعَهُ على حَرْفٍ
ولا تَعْبَأْ براياتِ القبائلِ،
كُنْ صديقاً لاسمك الأُفُقيِّ
جَرِّبْهُ مع الأحياء والموتى
ودَرِّبْهُ على النُطْق الصحيح برفقة الغرباء

واكتُبْهُ على إحدى صُخُور الكهف،
يا آسمي: سوف تكبَرُ حين أَكبَرُ
سوف تحمِلُني وأَحملُكَ
آلغريبُ أَخُ الغريب
سنأخُذُ الأُنثى بحرف العِلَّة المنذور للنايات
يا آسمي: أَين نحن الآن؟
قل: ما الآن، ما الغَدُ؟
ما الزمانُ وما المكانُ
وما القديمُ وما الجديدُ؟

سنكون يوماً ما نريدُ

لا الرحلةُ ابتدأتْ، ولا الدربُ آنتهى

لم يَبْلُغِ الحكماءُ غربتَهُمْ
كما لم يَبْلُغ الغرباءُ حكمتَهمْ
ولم نعرف من الأزهار غيرَ شقائقِ النعمانِ،
فلنذهب إلى أَعلى الجداريات:
أَرضُ قصيدتي خضراءُ، عاليةٌ،
كلامُ الله عند الفجر أَرضُ قصيدتي
وأَنا البعيدُ
أَنا البعيدُ

في كُلِّ ريحٍ تَعْبَثُ آمرأةٌ بشاعرها
ـ خُذِ الجهةَ التي أَهديتني
آلجهةَ التي انكَسَرتْ،
وهاتِ أُنوثتي،

لم يَبْقَ لي إلاّ التَأمُّلُ في
تجاعيد البُحَيْرَة. خُذْ غدي عنِّي
وهاتِ الأمس، واتركنا معاً
لا شيءَ، بعدَكَ، سوف يرحَلُ
أَو يَعُودُ

ـ وخُذي القصيدةَ إن أَردتِ
فليس لي فيها سواكِ
خُذي «أنا» كِ. سأُكْملُ المنفى
بما تركَتْ يداكِ من الرسائل لليمامِ.
فأيُّنا منا «أَنا» لأكون آخرَها؟
ستسقطُ نجمةٌ بين الكتابة والكلامِ
وتَنْشُرُ الذكرى خواطرها: وُلِدْنا

في زمان السيف والمزمار بين
التين والصُبَّار. كان الموتُ أَبطأَ.
كان أَوْضَح. كان هُدْنَةَ عابرين
على مَصَبِّ النهر. أَما الآن،
فالزرُّ الإلكترونيُّ يعمل وَحْدَهُ. لا
قاتلٌ يُصْغي إلى قتلى. ولا يتلو
وصيَّتَهُ شهيدُ

من أَيِّ ريح جئتِ؟
قولي ما آسمُ جُرْحِكِ أَعرفِ
الطُرُقَ التي سنضيع فيها مَرّتيْنِ!
وكُلُّ نَبْضٍ فيكِ يُوجِعُني، ويُرْجِعُني
إلى زَمَنٍ خرافيّ. ويوجعني دمي

والملحُ يوجعني ... ويوجعني الوريدُ

في الجرّة المكسورةِ انتحبتْ نساءُ
الساحل السوريّ من طول المسافةِ،
واحترقْنَ بشمس آبَ. رأيتُهنَّ على
طريق النبع قبل ولادتي. وسمعتُ
صَوْتَ الماء في الفخّار يبكيهنّ:
عُدْنَ إلى السحابة يرجعِ الزَمَنُ الرغيدُ

قال الصدى:
لا شيء يرجعُ غيرُ ماضي الأقوياء
على مِسلاَّت المدى ... [ذهبيّةٌ آثارُهُمْ

ذهبيّةٌ] ورسائلِ الضعفاءِ للغَدِ،
أَعْطِنا خُبْزَ الكفاف، وحاضراً أَقوى.
فليس لنا التقمُّصُ والحُلُولُ ولا الخُلُودُ

قال الصدى:
وتعبتُ من أَملي العُضَال. تعبتُ
من شَرَك الجماليّات: ماذا بعد
بابلَ؟ كُلَّما اتَّضَحَ الطريقُ إلى
السماء، وأَسْفَرَ المجهولُ عن هَدَفٍ
نهائيّ تَفَشَّى النثرُ في الصلوات،
وانكسر النشيدُ

خضراءُ، أَرضُ قصيدتي خضراءُ عاليةٌ ...

تُطِلُّ عليَّ من بطحاء هاويتي ...
غريبٌ أَنتَ في معناك. يكفي أَن
تكون هناك، وحدك، كي تصيرَ
قبيلةً ...
غَنَّيْتُ كي أَزِنَ المدى المهدُورَ
في وَجَع الحمامةِ،
لا لأَشْرَحَ ما يقولُ اللهُ للإنسان،
لَسْتُ أَنا النبيَّ لأَدَّعي وَحْياً
وأُعْلِنَ أَنَّ هاويتي صُعُودُ

وأَنا الغريب بكُلِّ ما أُوتيتُ من
لُغَتي. ولو أخضعتُ عاطفتي بحرف
الضاد، تخضعني بحرف الياء عاطفتي،
وللكلمات وَهْيَ بعيدةٌ أَرضٌ تُجاوِرُ

كوكباً أَعلى. وللكلمات وَهْيَ قريبةٌ
منفى. ولا يكفي الكتابُ لكي أَقول:
وجدتُ نفسي حاضراً مِلْءَ الغياب.
وكُلَّما فَتَّشْتُ عن نفسي وجدتُ
الآخرين. وكُلَّما فتَّشْتُ عَنْهُمْ لم
أَجد فيهم سوى نَفسي الغريبةِ،
هل أَنا الفَرْدُ الحُشُودُ؟

وأَنا الغريبُ. تَعِبْتُ من «درب الحليب»
إلى الحبيب. تعبتُ من صِفَتي.
يَضيقُ الشَّكْلُ. يَتّسعُ الكلامُ. أَفيضُ
عن حاجات مفردتي. وأَنْظُرُ نحو

نفسي في المرايا:
هل أَنا هُوَ؟
هَل أُؤدِّي جَيِّداً دَوْرِي من الفصل
الأخيرِ؟
وهل قرأتُ المسرحيَّةَ قبل هذا العرض،
أَم فُرِضَتْ عليَّ؟
وهل أَنا هُوَ من يؤدِّي الدَّوْرَ
أَمْ أَنَّ الضحيَّة غَيَّرتْ أَقوالها
لتعيش ما بعد الحداثة، بعدما
آنْحَرَفَ المؤلّفُ عن سياق النصِّ
وانصرَفَ المُمَثِّلُ والشهودُ؟

وجلستُ خلف الباب أَنظُرُ:
هل أَنا هُوَ؟

هذه لُغَتي. وهذا الصوت وَخْزُ دمي
ولكن المؤلِّف آخَرٌ ...
أَنا لستُ مني إن أَتيتُ ولم أَصِلْ
أَنا لستُ منِّي إن نَطَقْتُ ولم أَقُلْ
أَنا مَنْ تَقُولُ له الحُروفُ الغامضاتُ:
آكتُبْ تَكُنْ!
وآقرأْ تَجِدْ!
وإذا أردْتَ القَوْلَ فافعلْ، يَتَّحِدْ
ضِدَّاكَ في المعنى ...
وباطِنُكَ الشفيفُ هُوَ القصيدُ

بَحَّارَةٌ حولي، ولا ميناء
أَفرغني الهباءُ من الإشارةِ والعبارةِ،

لم أَجد وقتاً لأعرف أَين مَنْزِلَتي،
الهُنَيْهةَ، بين مَنْزِلَتَيْنِ. لم أَسأل
سؤالي، بعد، عن غَبَش التشابُهِ
بين بابَيْنِ: الخروج أم الدخول ...
ولم أَجِدْ موتاً لأَقْتَنِصَ الحياةَ.
ولم أَجِدْ صوتاً لأَصرخَ: أَيُّها
الزَمَنُ السريعُ! خَطَفْتَني مما تقولُ
لي الحروفُ الغامضاتُ:
ألواقعيُّ هو الخياليُّ الأَكيدُ

يا أيها الزَمَنُ الذي لم ينتظِرْ ...
لم يَنْتَظِرْ أَحداً تأَخَّر عن ولادتِهِ،
دَعِ الماضي جديداً، فَهْوَ ذكراكَ

الوحيدةُ بيننا، أيَّامَ كنا أَصدقاءك،
لا ضحايا مركباتك. واَترُكِ الماضي
كما هُوَ، لا يُقَادُ ولا يَقُودُ

ورأيتُ ما يتذكَّرُ الموتى وما ينسون ...
هُمْ لا يكبرون ويقرأون الوَقْتَ في
ساعات أيديهمْ. وَهُمْ لا يشعرون
بموتنا أَبداً ولا بحياتهِمْ. لا شيءَ
ممَّا كُنْتُ أو سأكونُ. تنحلُّ الضمائرُ
كُلُّها. «هو» في «أنا» في «أَنت».
لا كُلٌّ ولا جُزْءٌ. ولا حيٌّ يقول
لميِّتٍ: كُنِّي!

.. وتنحلُّ العناصرُ والمشاعرُ. لا

أَرى جَسَدي هُنَاكَ، ولا أُحسُّ
بعنفوان الموت، أَو بحياتيَ الأُولى.
كأنِّي لَسْتُ منّي. مَنْ أَنا؟ أأَنا
الفقيدُ أَم الوليدُ؟

ألوقْتُ صِفْرٌ. لم أُفكِّر بالولادة
حين طار الموتُ بي نحو السديم،
فلم أكُن حَيّاً ولا مَيْتاً،
ولا عَدَمٌ هناك، ولا وُجُودُ

تقولُ مُمَرِّضتي: أَنتَ أَحسَنُ حالاً.
وتحقُنُني بالمُخَدِّر: كُنْ هادئاً
وجديراً بما سوف تحلُمُ
عما قليل...

رأيتُ طبيبي الفرنسيَّ
يفتح زنزانتي
ويضربني بالعصا
يُعَاونُهُ آثنانِ من شُرْطة الضاحيةْ

رأيتُ أَبي عائداً
من الحجِّ، مُغمىً عليه

مُصَاباً بضربة شمسٍ حجازيّة
يقول لرفٍّ ملائكةٍ حَوْلَهُ:
أَطفئوني! ...

رأيتُ شباباً مغاربةً
يلعبون الكُرَةْ
ويرمونني بالحجارة: عُدْ بالعبارةِ
واَترُكْ لنا أُمَّنا
يا أَبانا الذي أخطَأَ المقبرةْ!

رأيت «ريني شار»
يجلس مع «هيدغر»
على بُعْدِ مترين منِّي،

رأيتهما يشربان النبيذَ
ولا يبحثان عن الشعر...
كان الحوارُ شُعَاعاً
وكان غدٌ عابرٌ ينتظرْ

رأيتُ رفاقي الثلاثَةَ ينتحبونَ
وَهُمْ
يَخيطونَ لي كَفَناً
بخُيوطِ الذَّهَبْ

رأيت المعريَّ يطرد نُقَّادَهُ
من قصيدتِهِ:
لستُ أَعمى
لأُبْصِرَ ما تبصرونْ،

فإنَّ البصيرةَ نورٌ يؤدِّي
إلى عَدَمٍ .... أَو جُنُونْ

رأيتُ بلاداً تعانقُني
بأَيدٍ صَبَاحيّة: كُنْ
جديراً برائحة الخبز. كُنْ
لائقاً بزهور الرصيفْ
فما زال تَنُّورُ أُمِّكَ
مشتعلاً،
والتحيَّةُ ساخنةً كالرغيفْ!

خضراءُ، أَرضُ قصيدتي خضراءُ. نهرٌ واحدٌ يكفي لأهمس للفراشة: آهِ، يا أُختي، ونَهْرٌ واحدٌ يكفي لإغواءِ الأساطير القديمة بالبقاء على جناح الصَّقْر، وَهْوَ يُبَدِّلُ الراياتِ والقممَ البعيدةَ، حيث أَنشأتِ الجيوشُ ممالِكَ النسيان لي. لا شَعْبَ أَصْغَرُ من قصيدته. ولكنَّ السلاحَ يُوَسِّعُ الكلمات للموتى وللأحياء فيها، والحُرُوفَ تُلَمِّعُ السيفَ المُعَلَّقَ في حزام الفجر، والصحراء تنقُصُ بالأغاني، أَو تزيدُ

لا عُمْرَ يكفي كي أَشُدَّ نهايتي لبدايتي.

أَخَذَ الرُّعَاةُ حكايتي وتَوَغَّلُوا في العشب فوق مفاتن الأنقاض، وانتصروا على النسيان بالأَبواق والسَّجع المشاع، وأورثوني بُحَّةَ الذكرى على حَجَرِ الوداع، ولم يعودوا...

رَعَويَّةٌ أَيَّامنا رَعَويَّةٌ بين القبيلة والمدينة، لم أَجد لَيْلاً خُصُوصِيّاً لهودجِكِ المُكَلَّلِ بالسراب، وقلتِ لي:
ما حاجتي لاسمي بدونكَ؟ نادني، فأنا خلقتُكَ عندما سَمَّيْتَني، وقتلتَني حين امتلكتَ الاسمَ ... كيف قتلتَني؟ وأَنا غريبةُ كُلِّ هذا الليل، أَدْخِلْني

إلى غابات شهوتك، آحتضنِّي واعْتَصِرْني، واسفُك العَسَلَ الزفافيَّ النقيَّ على قفير النحل. بعثرني بما ملكتْ يداك من الرياح ولُمَّني.

فالليل يُسْلِمُ روحَهُ لك يا غريبُ، ولن تراني نجمةٌ إلاّ وتعرف أَنَّ عائلتي ستقتلني بماء اللازوردِ، فهاتِني ليكونَ لي ـ وأَنا أُحطِّمُ جَرَّتي بيديَّ ـ حاضِريَ السعيدُ

ـ هل قُلْتَ لي شيئاً يُغَيِّر لي سبيلي؟
ـ لم أَقُلْ. كانت حياتي خارجي
أَنا مَنْ يُحَدِّثُ نفسَهُ:

وَقَعَتْ مُعَلَّقتي الأَخيرةُ عن نخيلي
وأَنا المُسَافِرُ داخلي
وأَنا المُحَاصَرُ بالثنائياتِ،
لكنَّ الحياة جديرَةٌ بغموضها
وبطائرِ الدوريِّ ...
لم أُولَدْ لأَعرفَ أَنني سأموتُ، بل لأُحبَّ
محتوياتِ ظلِّ اللهِ
يأخُذُني الجمالُ إلى الجميلِ
وأُحبُّ حُبَّك، هكذا متحرراً من ذاتِهِ وصفاتِهِ
وأَنا بديلي ...

أَنا من يُحَدِّثُ نَفْسَهُ:

مِنْ أَصغر الأشياءِ تُولَدُ أكبرُ الأفكار
والإيقاعُ لا يأتي من الكلمات،
بل مِنْ وحدة الجَسَدَيْنِ
في ليلٍ طويلٍ ...

أَنا مَنْ يحدِّثُ نَفْسَهُ
ويروِّضُ الذكرى ... أَأَنتِ أنا؟
وثالثُنا يرفرف بيننا «لا تَنْسَيَاني دائماً»
يا مَوْتَنا! خُذْنَا إليكَ على طريقتنا، فقد نتعلَّمُ الإشراق ...
لا شَمْسٌ ولا قَمَرٌ عليَّ
تركتُ ظلِّي عالقاً بغصون عَوْسَجَةٍ
فخفَّ بِيَ المكانُ

وطار بي روحي الشَّرُودُ

أَنا مَنْ يحدِّثُ نفسَهُ:
يا بنتُ: ما فَعَلَتْ بكِ الأشواقُ؟
إن الريح تصقُلُنا وتحملنا كرائحة الخريفِ،
نضجتِ يا امرأتي على عُكَّازَتيَّ،
بوسعك الآن الذهابُ على «طريق دمشق»
واثقةً من الرؤيا. مَلاَكٌ حارسٌ
وحمامتان ترفرفان على بقيَّة عمرنا، والأرضُ عيدُ
...

الأرضُ عيدُ الخاسرين [ونحن منهُمْ]

نحن من أَثَرِ النشيد الملحميِّ على المكان، كريشةِ النَّسْرِ العجوز خيامُنا في الريح. كُنَّا طيِّبين وزاهدين بلا تعاليم المسيح. ولم نكُنْ أَقوى من الأعشابِ إلاّ في ختام الصَيْفِ،

أَنتِ حقيقتي، وأَنا سؤالُكِ
لم نَرِثْ شيئاً سوى آسْمَيْنَا
وأَنتِ حديقتي، وأَنا ظلالُكِ
عند مفترق النشيد الملحميِّ ...

ولم نشارك في تدابير الإلٰهات اللواتي كُنَّ يبدأن النشيد بسحرهنَّ وكيدهنَّ. وكُنَّ يَحْمِلْنَ المكانَ على قُرُون الوعل من زَمَنِ المكان إلى زمان آخرٍ...

كنا طبيعيِّين لِو كانت نجومُ سمائنا أَعلى قليلاً من حجارة بئرنا، والأَنبياءُ أَقلَّ إلحاحاً، فلم يسمع مدائحَنا الجُنُودُ ...

خضراءُ، أرضُ قصيدتي خضراءُ
يحملُها الغنائيّون من زَمَنٍ إلى زَمَنٍ كما هِيَ في
خُصُوبتها.
ولي منها: تأمُّلُ نَرْجسٍ في ماء صُورَتِهِ
ولي منها وُضُوحُ الظلِّ في المترادفات
ودقَّةُ المعنى ...
ولي منها: التَّشَابُهُ في كلام الأَنبياءِ
على سُطُوح الليلِ
لي منها: حمارُ الحكمةِ المنسيُّ فوق التلِّ
يسخَرُ من خُرافتها وواقعها ...
ولي منها: احتقانُ الرمز بالأضدادِ

لا التجسيدُ يُرجِعُها من الذكرى
ولا التجريدُ يرفَعُها إلى الإشراقة الكبرى
ولي منها: «أَنا» الأُخرى
تُدَوِّنُ في مُفَكِّرَة الغنائيِّين يوميَّاتها:
«إن كان هذا الحُلْمُ لا يكفي
فلي سَهَرٌ بطوليٌّ على بوابة المنفى ...»
ولي منها: صَدَى لُغتي على الجدران
يكشِطُ مِلْحَهَا البحريَّ
حين يخونني قَلْبٌ لَدُودُ ...

أَعلى من الأَغوار كانت حكمتي
إذ قلتُ للشيطان: لا. لا تَمْتَحِنِّي!

لا تَضَعْني في الثُّنَائيّات، واتركني
كما أَنا زاهداً برواية العهد القديم
وصاعداً نحو السماء، هُنَاكَ مملكتي
خُذِ التاريخَ، يا ابنَ أَبي، خُذِ
التاريخَ ... وآصنَعْ بالغرائز ما تريدُ

وَلِيَ السكينةُ. حَبَّةُ القمح الصغيرةُ
سوف تكفينا، أَنا وأَخي العَدُوّ،
فساعتي لم تَأْتِ بَعْدُ. ولم يَحِنْ
وقتُ الحصاد. عليَّ أَن أَلِجَ الغيابَ
وأَن أُصدِّقَ أوَّلاً قلبي وأتبعَهُ إلى
قانا الجليل. وساعتي لم تأتِ بَعْدُ.

لَعَلَّ شيئاً فيَّ ينبُذُني. لعلِّي واحدٌ
غيري. فلم تنضج كُرومُ التين حول
ملابس الفتيات بَعْدُ. ولم تَلِدْني
ريشةُ العنقاء. لا أَحَدٌ هنالك
في انتظاري. جئْتُ قبل، وجئتُ
بعد، فلم أَجد أحداً يُصَدِّق ما
أرى. أنا مَنْ رأى. وأَنا البعيدُ
أَنا البعيدُ

مَنْ أَنتَ، يا أَنا؟ في الطريقِ
اثنانِ نَحْنُ، وفي القيامة واحدٌ.
خُذْني إلى ضوء التلاشي كي أَرى
صَيْرُورتي في صُورَتي الأُخرى. فَمَنْ

سأكون بعدَكَ، يا أَنا؟ جَسَدي
ورائي أم أَمامَكَ؟ مَنْ أنا يا
أَنت؟ كَوِّنّي كما كَوَّنْتُكَ، آدْهَنّي
بزيت اللوز، كَلِّلني بتاج الأرز.
واحملني من الوادي إلى أَبديّةٍ
بيضاءَ. عَلِّمني الحياةَ على طريقتِكَ،
آختَبِرْني ذَرَّةً في العالم العُلْوِيِّ.
ساعِدْني على ضَجَر الخلود، وكُنْ
رحيماً حين تجرحني وتبزغ من
شراييني الورودُ ...

لم تأت ساعتُنا. فلا رُسُلٌ يَقِيسُونَ

الزمانَ بقبضة العشب الأخير. هل استدار؟ ولا ملائكةٌ يزورون المكانَ ليتركَ الشعراءُ ماضِيَهُمْ على الشَّفَق الجميل، ويفتحوا غَدَهُمْ بأيديهمْ.

فغنِّي يا إلٰهتيَ الأَثيرةَ، يا عناةُ،
قصيدتي الأُولى عن التكوين ثانيةً ...
فقد يجدُ الرُّوَاةُ شهادةَ الميلاد
للصفصاف في حَجَرٍ خريفيّ. وقد يجدُ
الرعاةُ البئرَ في أَعماق أُغنية. وقد
تأتي الحياةُ فجاءةً للعازفين عن
المعاني من جناح فراشةٍ عَلِقَتْ
بقافيةٍ، فغنِّي يا إلٰهتيَ الأَثيرةَ
يا عناةُ، أَنا الطريدةُ والسهامُ،

أَنا الكلامُ. أَنا المؤبِّنُ والمؤذِّنُ
والشهيدُ

ما قلتُ للطَّلَلِ: الوداع. فلم أَكُنْ
ما كُنْتُ إلاّ مَرَّةً. ما كُنْتُ إلاّ
مرَّةً تكفي لأَعرف كيف ينكسرُ الزمانُ
كخيمة البدويِّ في ريح الشمال،
وكيف يَنْفَطِرُ المكانُ ويرتدي الماضي
نُثَارَ المعبد المهجور. يُشبهُني كثيراً
كُلُّ ما حولي، ولم أُشْبِهْ هنا
شيئاً. كأَنَّ الأرض ضَيِّقَةٌ على
المرضى الغنائيِّين، أَحفادِ الشياطين

المساكين المجانين الذين إذا رأوا
حُلْماً جميلاً لَقَّنُوا الببغاءَ شِعْر
الحب، وانفتَحتْ أَمامَهُمُ الحُدُودُ ...

وأُريدُ أَن أَحيا ...
فلي عَمَلٌ على ظهر السفينة. لا
لأُنقذ طائراً من جوعنا أَو من
دُوَارِ البحر، بل لأُشاهِدَ الطُوفانَ
عن كَثَبٍ: وماذا بعد؟ ماذا
يفعَلُ الناجونَ بالأرض العتيقة؟
هل يُعيدونَ الحكايةَ؟ ما البدايةُ؟
ما النهايةُ؟ لم يعد أَحَدٌ من
الموتى ليخبرنا الحقيقة .../

أيُّها الموتُ انتظرني خارج الأرض،
انتظرني في بلادِكَ، ريثما أُنهي
حديثاً عابراً مَعَ ما تبقَّى من حياتي
قرب خيمتكَ، انتظِرْني ريثما أُنهي
قراءةَ طَرْفَةَ بنِ العَبْد. يُغْريني
الوجوديّون باستنزاف كُلِّ هُنَيْهَةٍ
حريةً، وعدالةً، ونبيذَ آلهةٍ .../
فيا مَوْتُ! انتظرني ريثما أُنهي
تدابيرَ الجنازة في الربيع الهَشّ،
حيث وُلدتُ، حيث سأمنع الخطباء
من تكرار ما قالوا عن البلد الحزين
وعن صُمُود التينِ والزيتونِ في وجه
الزمان وجيشِهِ. سأقول: صُبُّوني

بحرف النون، حيث تَعُبُّ روحي
سورةُ الرحمٰن في القرآن. وآمشوا
صامتين معي على خطوات أَجدادي
ووقع الناي في أَزلي. ولا
تَضَعُوا على قبري البنفسجَ، فَهْوَ
زَهْرُ المُحْبَطين يُذَكِّرُ الموتى بموت
الحُبِّ قبل أَوانِهِ. وَضَعُوا على
التابوتِ سَبْعَ سنابلٍ خضراءَ إنْ
وُجِدَتْ، وبَعْضَ شقائقِ النُعْمانِ إنْ
وُجِدَتْ. وإلاّ، فاتركوا وَرْدَ
الكنائس للكنائس والعرائس/
أَيُّها الموت آنتظر! حتى أُعِدَّ
حقيبتي: فرشاةَ أسناني، وصابوني

وماكنة الحلاقةِ، والكولونيا، والثيابَ.
هل المناخُ هُنَاكَ مُعْتَدِلٌ؟ وهل
تتبدَّلُ الأحوالُ في الأبدية البيضاء،
أم تبقى كما هِي في الخريف وفي
الشتاء؟ وهل كتابٌ واحدٌ يكفي
لِتَسْلِيَتي مع اللاَّ وقتِ، أمْ أَحتاجُ
مكتبةً؟ وما لُغَةُ الحديث هناك،
دارجةٌ لكُلِّ الناس أَم عربيّةٌ
فُصْحى/
.. ويا مَوْتُ انتظرْ، يا موتُ،
حتى أستعيدَ صفاءَ ذِهْني في الربيع
وصحّتي، لتكون صيَّاداً شريفاً لا
يَصيدُ الظَّبْيَ قرب النبع. فلتكنِ العلاقةُ
بيننا وُدّيَّةً وصريحةً: لَكَ أَنتَ

ما لَكَ من حياتي حين أَملأها..
ولي منك التأمُّلُ في الكواكب:
لم يَمُتْ أَحَدٌ تماماً. تلك أَرواحٌ
تغيِّر شَكْلَها ومُقَامَها/
يا موت! يا ظلِّي الذي
سيقودُني، يا ثالثَ الاثنين، يا
لَوْنَ التردُّد في الزُمُرُّد والزَّبَرْجَدِ،
يا دَمَ الطاووس، يا قَنَّاصَ قلب
الذئب، يا مَرَض الخيال! آجلسْ
على الكرسيّ! ضَعْ أَدواتِ صيدكَ
تحت نافذتي. وعلِّقْ فوق باب البيت
سلسلةَ المفاتيح الثقيلةَ! لا تُحَدِّقْ
يا قويُّ إلى شراييني لترصُدَ نُقْطَةَ

الضعف الأَخيرةَ. أَنتَ أقوى من
نظام الطبّ. أَقوى من جهاز
تَنَفُّسي. أَقوى من العَسَلِ القويّ،
ولَسْتَ محتاجاً ـ لتقتلني ـ إلى مَرَضي.
فكُنْ أَسْمَى من الحشرات. كُنْ مَنْ
أَنتَ، شفَّافاً بريداً واضحاً للغيب.
كن كالحُبِّ عاصفةً على شجر، ولا
تجلس على العتبات كالشحّاذ أو جابي
الضرائبِ. لا تكن شُرطيّ سَيْرٍ في
الشوارع. كن قويّاً، ناصعَ الفولاذ، واخلَعْ عنك
أَقنعةَ الثعالب. كُنْ
فروسياً، بهياً، كامل الضربات. قُلْ
ما شِئْتَ: «من معنى إلى معنى
أَجيءُ. هِيَ الحياةُ سُيُولَةٌ، وأَنا

أكتِّفُها، أُعزِّفُها بسُلْطاني وميزاني» ../
ويا مَوْتُ انتظرْ، وآجلس على
الكرسيّ. خُذْ كأسَ النبيذ، ولا
تفاوِضْني، فمثلُكَ لا يُفاوِضُ أَيَّ
إنسانٍ، ومثلي لا يعارضُ خادمَ
الغيبِ. آسترح... فَلَرُبَّما أُنْهِكْتَ هذا
اليوم من حرب النجوم. فمن أَنا
لتزورني؟ أَلَدَيْكَ وَقْتٌ لاختبار
قصيدتي. لا. ليس هذا الشأنُ
شأنَكَ. أَنت مسؤولٌ عن الطينيِّ في
البشريِّ، لا عن فِعْلِهِ أو قَوْلِهِ/
هَزَمَتْكَ يا موتُ الفنونُ جميعُها.
هزمتك يا موتُ الأغاني في بلاد
الرافدين. مِسَلَّةُ المصريّ، مقبرةُ الفراعنةِ،

النقوشُ على حجارة معبدٍ هَزَمَتْكَ
وانتصرتْ، وأَفْلَتَ من كمائنك
الخُلُودُ ...
فاصنع بنا، واصنع بنفسك ما تريدُ

وأَنا أُريدُ، أريدُ أَن أَحيا ...
فلي عَمَلٌ على جغرافيا البركان.
من أَيام لوط إلى قيامة هيروشيما
واليبابُ هو اليبابُ. كأنني أَحيا
هنا أَبداً، وبي شَبَقٌ إلى ما لست
أَعرف. قد يكونُ «الآن» أَبعَدَ.
قد يكونُ الأمس أَقربَ. والغَدُ الماضي.
ولكني أَشدُّ «الآن» من يَدِهِ ليعبُرَ
قربيَ التاريخُ، لا الزَّمَنُ المُدَوَّرُ،

مثل فوضى الماعز الجبليِّ. هل
أَنجو غداً من سرعة الوقت الإلكترونيّ،
أَم أَنجو غداً من بُطْء قافلتي
على الصحراء؟ لي عَمَلٌ لآخرتي
كأني لن أَعيش غداً. ولي عَمَلٌ ليومٍ
حاضرٍ أَبداً. لذا أُصغي، على مَهَلٍ
على مَهَل، لصوت النمل في قلبي:
أَعينوني على جَلَدي. وأَسمع صَرْخَةَ
الحَجَر الأسيرةَ: حَرِّروا جسدي. وأُبصرُ
في الكمنجة هجرةَ الأشواق من بَلَدٍ
تُرَابيٍّ إلى بَلَدٍ سماويّ. وأَقبضُ في
يد الأُنثى على أَبَدِي الأليفِ: خُلِقْتُ
ثم عَشِقْتُ، ثم زهقت، ثم أَفقتُ
في عُشْبٍ على قبري يدلُّ عليَّ من

حينٍ إلى حينٍ. فما نَفْعُ الربيع
السمح إن لم يُؤْنسِ الموتى ويُكْمِلْ
بعدهُمْ فَرَحَ الحياةِ ونَضْرةَ النسيان؟
تلك طريقةٌ في فكِّ لغزِ الشعرِ،
شعري العاطفيّ على الأَقلِّ. وما
المنامُ سوى طريقنا الوحيدة في الكلام/
وأَيُّها الموتُ آلتَبِسْ وآجلسْ
على بلَّوْرِ أَيامي، كأَنَّكَ واحدٌ من
أَصدقائي الدائمين، كأَنَّكَ المنفيُّ بين
الكائنات. ووحدك المنفيُّ. لا تحيا
حياتَكَ. ما حياتُكَ غير موتي. لا
تعيش ولا تموت. وتخطف الأَطفالَ
من عَطَشِ الحليب إلى الحليب. ولم

تكن طفلاً تهزُّ له الحساسينُ السريرَ،
ولم يداعِبْكَ الملائكةُ الصغارُ ولا
قُرونُ الأيِّل الساهي، كما فَعَلَتْ لنا
نحن الضيوفَ على الفراشة. وحدك
المنفيُّ، يا مسكين، لا آمرأةٌ تَضُمُّك
بين نهديها، ولا آمرأةٌ تقاسِمُك
الحنين إلى اقتصاد الليل باللفظ الإباحيِّ
المرادفِ لاختلاط الأرض فينا بالسماءِ.
ولم تَلِدْ وَلَداً يجيئك ضارعاً: أَبتي،
أُحبُّكَ. وحدك المنفيُّ، يا مَلِكَ
الملوك، ولا مديحَ لصولجانكَ. لا
صُقُورَ على حصانك. لا لآلىءَ حول
تاجك. أَيُّها العاري من الرايات
والبُوق المُقَدَّسِ! كيف تمشي هكذا

من دون حُرَّاسٍ وجَوْقَةِ منشدين،
كَمِشْيَة اللصِّ الجبان. وأَنتَ مَنْ
أَنتَ، المُعَظَّمُ، عاهلُ الموتى، القويُّ،
وقائدُ الجيش الأَشوريِّ العنيدُ
فاصنع بنا، واصنع بنفسك ما تريدُ

وأَنا أُريدُ، أُريد أَن أَحيا، وأَن
أَنساك ... أَن أَنسى علاقتنا الطويلة
لا لشيءٍ، بل لأَقرأ ما تُدَوِّنُهُ
السماواتُ البعيدةُ من رسائلَ. كُلَّما
أَعددتُ نفسي لانتظار قدومِكَ
آزددتَ ابتعاداً. كلما قلتُ: ابتعدْ
عني لأُكمل دَوْرَةَ الجَسَدَيْنِ، في جَسَدٍ

يفيضُ، ظهرتَ ما بيني وبيني
ساخراً: «لا تَنْسَ مَوْعِدَنا ...»
ـ متى؟ ـ في ذِرْوَة النسيان
حين تُصَدِّقُ الدنيا وتعبُدُ خاشعاً
خَشَبَ الهياكل والرسومَ على جدار الكهف،
حيث تقول: «آثاري أَنا وأَنا آبنُ نفسي». ـ أَين موعدُنا؟
أَتأذن لي بأن أَختار مقهىً عند
باب البحر؟ ـ لا .... لا تَقْتَرِبْ
يا آبنَ الخطيئةِ، يا آبن آدمَ من
حدود الله! لم تُولَدْ لتسأل، بل
لتعمل... ـ كُن صديقاً طَيِّباً يا
موت! كُنْ معنىً ثقافياً لأُدرك
كُنْهَ حكمتِكَ الخبيئةِ! رُبَّما أَسْرَعْتَ

في تعليم قابيلَ الرمايةَ. رُبَّما
أَبطأتَ في تدريب أَيُّوبٍ على
الصبر الطويل. وربما أَسْرَجْتَ لي
فَرَساً لتقتُلَني على فَرَسي. كأني
عندما أَتذكَّرُ النسيانَ تُنقِذُ حاضري
لُغَتي. كأني حاضرٌ أَبداً. كأني
طائر أَبداً. كأني مُذْ عرفتُكَ
أَدمنتْ لُغَتي هَشَاشَتَها على عرباتك
البيضاءِ، أَعلى من غيوم النوم،
أَعلى عندما يتحرَّرُ الإحساس من عبء
العناصر كُلِّها. فأنا وأَنتَ على طريق
الله صوفيَّانِ محكومان بالرؤيا ولا يَرَيَان/
عُدْ يا مَوْتُ وحدَكَ سالماً،

فأنا طليق هٰهنا في لا هنا
أو لا هناك. وَعُدْ إلى منفاك
وحدك. عُدْ إلى أدوات صيدك،
وانتظرني عند باب البحر. هَيِّئ لي
نبيذاً أَحمراً للاحتفال بعودتي لِعِيادَةِ
الأرضِ المريضة. لا تكن فظّاً غليظ
القلب! لن آتي لأَسخر منك، أَو
أَمشي على ماء البُحَيْرَة في شمال
الروح. لكنّي ـ وقد أَغويتَني ـ أَهملتُ
خاتمةَ القصيدةِ: لم أَزفَّ إلى أَبي
أُمِّي على فَرَسي. تركتُ الباب مفتوحاً
لأندلُسِ الغنائيِّين، واخترتُ الوقوفَ
على سياج اللوز والرُمَّان، أَنفُضُ

عن عباءة جدِّيَ العالي خُيُوطَ
العنكبوت. وكان جَيْشٌ أَجنبيٌّ يعبر
الطُرُقَ القديمةَ ذاتها، ويَقِيسُ أَبعادَ
الزمان بآلة الحرب القديمة ذاتها.../

يا موت، هل هذا هو التاريخُ،
صِنْوُكَ أَو عَدُوُّك، صاعداً ما بين
هاويتين؟ قد تبني الحمامة عُشَّها
وتبيضُ في خُوَذ الحديد. وربما ينمو
نباتُ الشِّيحِ في عَجَلاتِ مَرْكَبَةٍ مُحَطَّمةٍ.
فماذا يفعل التاريخُ، صنوُكَ أو عَدُوُّكَ،
بالطبيعة عندما تتزوَّجُ الأرضَ السماءُ
وتذرفُ المَطَرَ المُقَدَّسَ؟/
أَيها الموت، انتظرني عند باب

البحر في مقهى الرومانسيِّين. لم
أَرجِعْ وقد طاشَتْ سهامُكَ مَرَّةً
إلاّ لأُودِعَ داخلي في خارجي،
وأُوزِّعَ القمح الذي امتلأتْ به رُوحي
على الشحرور حطَّ على يديَّ وكاهلي،
وأُودِّعَ الأرضَ التي تمتصُّني ملحاً، وتنثرني
حشيشاً للحصان وللغزالة. فانتظرني
ريثما أُنهي زيارتي القصيرة للمكان وللزمان،
ولا تُصَدِّقْني أَعودُ ولا أَعودُ
وأَقول: شكراً للحياة!
ولم أكن حَيّاً ولا مَيْتاً
ووحدك، كنتَ وحدك، يا وحيدُ!

تقولُ مُمَرِّضتي: كُنْتَ تهذي
كثيراً، وتصرخُ: يا قلبُ!
يا قَلْبُ! خُذْني
إلى دَوْرَة الماءِ .../

ما قيمةُ الروح إن كان جسمي
مريضاً، ولا يستطيعُ القيامَ
بواجبه الأوليِّ؟
فيا قلبُ، يا قلبُ أَرجعْ خُطَايَ
إليَّ، لأَمشي إلى دورة الماء
وحدي!

نسيتُ ذراعيَّ، ساقيَّ، والركبتين
وتُفَّاحةَ الجاذبيَّةْ
نسيتُ وظيفةَ قلبي
وبستانَ حوَّاءَ في أَوَّل الأبديَّةْ
نسيتُ وظيفةَ عضوي الصغير
نسيتُ التنفُّسَ من رئتيّ.
نسيتُ الكلام
أَخاف على لغتي
فاتركوا كُلَّ شيء على حالِهِ
وأَعيدوا الحياة إلى لُغَتي! ..

تقول مُمَرِّضتي: كُنْتَ تهذي
كثيراً، وتصرخ بي قائلاً:

لا أُريدُ الرجوعَ إلى أَحَدِ
لا أُريدُ الرجوعَ إلى بلدِ
بعد هذا الغياب الطويل ...
أُريدُ الرجوعَ فَقَطْ
إلى لغتي في أقاصي الهديل

تقولُ مُمَرِّضتي:
كُنْتَ تهذي طويلاً، وتسألني:
هل الموتُ ما تفعلين بي الآنَ
أَم هُوَ مَوْتُ اللُغَةْ؟

خضراءُ، أَرضُ قصيدتي خضراءُ، عاليةٌ ...
على مَهَلٍ أُدوِّنُها، على مَهَلٍ، على
وزن النوارس في كتاب الماءِ. أَكتُبُها
وأُورِثُها لمنْ يتساءلون: لمنْ نُغَنِّي
حين تنتشرُ المُلُوحَةُ في الندى؟ ...
خضراءُ، أكتُبُها على نَثْرِ السنابل في
كتاب الحقلِ، قَوَّسَها امتلاءٌ شاحبٌ
فيها وفيَّ. وكُلَّما صادَقْتُ أَو
آخَيْتُ سُنْبُلةً تَعَلَّمْتُ البقاءَ من
الفَنَاء وضدَّه: «أَنا حَبَّةُ القمح
التي ماتت لكي تَخْضَرَّ ثانيةً. وفي
موتي حياةٌ ما ...»

كأني لا كأنّي
لم يمت أَحَدٌ هناك نيابةً عني.
فماذا يحفظُ الموتى من الكلمات غيرَ
الشُّكْرِ: «إنَّ اللّه يرحَمُنا» ...
ويُؤْنِسُني تذكُّرُ ما نَسِيتُ مِنَ
البلاغة: «لم أَلِدْ وَلَداً ليحمل مَوْتَ
والِدِهِ» ...
وآثَرْتُ الزواجَ الحُرَّ بين المُفْرَدات ...
سَتَعْثُرُ الأُنثى على الذَّكَر المُلائِم
في جُنُوح الشعر نحو النثر ...
سوف تشُبُّ أَعضائي على جُمَّيزَةٍ،
ويصُبُّ قلبي ماءَهُ الأَرضيَّ في
أَحَدِ الكواكب ... مَنْ أَنا في الموت
بعدي؟ مَنْ أَنا في الموت قبلي

قال طيفٌ هامشيٌّ: «كان أوزيريسُ
مثْلَكَ، كان مثلي. وآبنُ مَرْيَمَ
كان مثلَكَ، كان مثلي. بَيْدَ أَنَّ
الجُرْحَ في الوقت المناسب يُوجِعُ
العَدَمَ المريضَ، ويَرْفَعُ الموتَ المؤقَّتَ
فكرةً ...».
من أَين تأتي الشاعريَّةُ؟ من
ذكاء القلب، أَمْ من فِطْرة الإحساس
بالمجهول؟ أَمْ من وردةٍ حمراءَ
في الصحراء؟ لا الشخصيُّ شخصيٌّ
ولا الكونيُّ كونيٌّ ...

كأني لا كأني .../
كلما أَصغيتُ للقلب آمتلأتُ

بما يقول الغَيْبُ، وارتفعتْ بِيَ
الأشجارُ. من حُلْم إلى حُلْمٍ
أَطيرُ وليس لي هَدَفٌ أَخيرٌ.
كُنْتُ أُولَدُ منذ آلاف السنين
الشاعريَّةِ في ظلامٍ أَبيض الكتّان
لم أَعرف تماماً مَنْ أَنا فينا ومن
حُلْمي. أَنا حُلْمي
كأني لا كأني ...
لم تَكُنْ لُغتي تُودِّعُ نَبْرها الرعويَّ
إلاّ في الرحيل إلى الشمال. كلابُنا
هَدَأَتْ. وماعِزُنا توشَّح بالضباب على
التلال. وشجَّ سَهْمٌ طائش وَجْهَ
اليقين. تعبتُ من لغتي تقول ولا

تقولُ على ظهور الخيل ماذا يصنعُ
الماضي بأيَّامِ آمرىء القيس المُوَزَّعِ
بين قافيةٍ وقَيْصَرَ .../
كُلَّما يَمَّمْتُ وجهي شَطْرَ آلهتي،
هنالك، في بلاد الأرجوان أَضاءني
قَمَرٌ تُطَوِّقُهُ عناةُ، عناةُ سيِّدَةُ
الكِنايةِ في الحكايةِ. لم تكن تبكي على
أَحَدٍ، ولكنْ من مَفَاتِنِها بَكَتْ:
هَلْ كُلُّ هذا السحرِ لي وحدي
أَما من شاعرٍ عندي
يُقَاسِمُني فَرَاغَ التَخْتِ في مجدي؟
ويقطفُ من سياج أُنوثتي
ما فاض من وردي؟

أَما من شاعر يُغْوي
حليبَ الليل في نهدي؟
أَنا الأولى
أَنا الأُخرى
وحدِّي زاد عن حدِّي
وبعدي تركُضُ الغِزلانُ في الكلمات
لا قبلي ... ولا بعدي/

سأحلُمُ، لا لأُصْلِحَ مركباتِ الريحِ
أَو عَطَباً أَصابَ الروحَ
فالأسطورةُ اتَّخَذَتْ مكانَتَها / المكيدةَ
في سياق الواقعيّ. وليس في وُسْعِ القصيدة

أَن تُغَيِّرَ ماضياً يمضي ولا يمضي
ولا أَنْ تُوقِفَ الزلزالَ
لكنني سأحلُمُ،
رُبَّما آتسَعَتْ بلادٌ لي، كما أَنا
واحداً من أَهل هذا البحر،
كفَّ عن السؤال الصعب: «مَنْ أَنا؟ ...
هٰهنا؟ أَأَنا آبنُ أُمي؟»
لا تساوِرُني الشكوكُ ولا يحاصرني
الرعاةُ أو الملوكُ. وحاضري كغدي معي.
ومعي مُفَكِّرتي الصغيرةُ: كُلَّما حَكَّ
السحابةَ طائرٌ دَوَّنتُ: فَكَّ الحُلْمُ
أَجنحتي. أنا أَيضاً أطيرُ. فَكُلُّ
حيّ طائرٌ. وأَنا أَنا، لا شيءَ

آخَرَ/

واحدٌ من أَهل هذا السهل ...
في عيد الشعير أَزورُ أَطْلالي
البهيَّة مثل وَشْم في الهُوِيَّةِ.
لا تبدِّدُها الرياحُ ولا تُؤَبِّدُها.../
وفي عيد الكروم أَعُبُّ كأساً
من نبيذ الباعة المتجوِّلينَ ... خفيفةٌ
روحي، وجسمي مُثْقَلٌ بالذكريات وبالمكان/
وفي الربيع، أكونُ خاطرةً لسائحةٍ
ستكتُبُ في بطاقات البريد: «على
يسار المسرح المهجور سَوْسَنَةٌ وشَخْصٌ
غامضٌ. وعلى اليمين مدينةٌ عصريَّةٌ»/

وأَنا أَنا، لا شيء آخَرَ ...

لَسْتُ من أَتباع روما الساهرينَ
على دروب الملحِ. لكنّي أسَدِّدُ نِسْبَةً
مئويَّةً من ملح خبزي مُرْغَماً، وأَقول
للتاريخ: زَيِّنْ شاحناتِكَ بالعبيد وبالملوك الصاغرينَ،
ومُرَّ ... لا أَحَدٌ يقول
الآن: لا.

وأَنا أَنا، لا شيء آخر
واحدٌ من أَهل هذا الليل. أَحلُمُ
بالصعود على حصاني فَوْقَ، فَوْقَ ...
لأَتبع اليُنْبُوعَ خلف التلِّ.
فاصمُدْ يا حصاني. لم نَعُدْ في الريح مُخْتَلِفَيْنِ
...
أَنتَ فُتُوَّتي وأَنا خيالُكَ. فانتصِبْ
أَلِفاً، وصُكَّ البرقَ. حُكَّ بحافر

الشهوات أَوعيةَ الصَدَى. واصعَدْ،
تَجَدَّدْ، وانتصبْ أَلفاً، توتَّرْ يا
حصاني وانتصبْ أَلفاً، ولا تسقُطْ
عن السفح الأَخير كرايةٍ مهجورةٍ في
الأَبجديَّة. لم نَعُدْ في الريح مُخْتَلِفَيْنِ،
أَنت تَعِلَّتي وأَنا مجازُكَ خارج الركب
المُرَوَّضِ كالمصائرِ. فاندفِعْ واحفُرْ زماني
في مكاني يا حصاني. فالمكانُ هُوَ
الطريق، ولا طريقَ على الطريق سواكَ
تنتعلُ الرياحَ. أَضِئْ نُجوماً في السراب!
أَضِئْ غيوماً في الغياب، وكُنْ أَخي
ودليلَ برقي يا حصاني. لا تَمُتْ
قبلي ولا بعدي عَلى السفح الأَخير
ولا معي. حَدِّقْ إلى سيَّارة الإسعافِ

والموتى ... لعلّي لم أَزل حيّاً/

سأَحلُمُ، لا لأُصْلِحَ أَيَّ معنىً خارجي.
بل كي أُرمِّمَ داخلي المهجورَ من أَثر
الجفاف العاطفيِّ. حفظتُ قلبي كُلَّهُ
عن ظهر قلبٍ: لم يَعُدْ مُتَطفِّلاً
ومُدَلّلاً. تَكْفيهِ حَبَّةُ «أَسبرين» لكي
يلينَ ويستكينَ. كأَنَّهُ جاري الغريبُ
ولستُ طَوْعَ هوائِهِ ونسائِهِ. فالقلب
يَصْدَأُ كالحديدِ، فلا يئنُّ ولا يَحِنُّ
ولا يُجَنُّ بأَوَّل المطر الإباحيِّ الحنينِ،
ولا يرنُّ كعشب آبَ من الجفافِ.

كأنَّ قلبي زاهدٌ، أَو زائدٌ
عني كحرف «الكاف» في التشبيهِ.
حين يجفُّ ماءُ القلب تزدادُ الجمالياتُ
تجريداً، وتدَّثرُ العواطف بالمعاطفِ،
والبكارةُ بالمهارةِ/

كُلَّما يَمَّمْتُ وجهي شَطْرَ أُولى
الأغنيات رأيتُ آثارَ القطاة على
الكلام. ولم أَكن ولداً سعيداً
كي أَقولَ: الأمس أَجملُ دائماً.
لكنَّ للذكرى يَدَيْنِ خفيفتين تُهَيِّجانِ
الأرضَ بالحُمَّى. وللذكرى روائحُ زهرةٍ
ليليَّةٍ تبكي وتُوقظُ في دَمِ المنفيِّ

حاجتَهُ إلى الإنشاد: «كُوني
مُرْتَقى شَجَني أَجدْ زمني» ... ولستُ
بحاجةٍ إلاّ لِخَفْقَةِ نَوْرَسٍ لأتابعَ
السُفُنَ القديمةَ. كم من الوقت
انقضى منذ اكتشفنا التوأمين: الوقتَ
والموتَ الطبيعيَّ المُرَادِفَ للحياة؟
ولم نزل نحيا كأنَّ الموتَ يُخطئنا،
فنحن القادرين على التذكُّر قادرون
على التحرُّر، سائرون على خُطى
جلجامشَ الخضراءِ من زَمَنٍ إلى زَمَنٍ.../

هباءٌ كاملُ التكوينِ ...
يكسرُني الغيابُ كجرَّةِ الماءِ الصغيرة.
نام أَنكيدو ولم ينهض. جناحي نام
مُلْتَفّاً بحَفْنَةِ ريشِهِ الطينيِّ. آلهتي
جمادُ الريح في أَرض الخيال. ذِراعِيَ
اليُمْنى عصا خشبيَّةٌ. والقَلْبُ مهجورٌ
كبئرٍ جفَّ فيها الماءُ، فاتَّسَعَ الصدى
الوحشيُّ: أنكيدو! خيالي لم يَعُدْ
يكفي لأُكملَ رحلتي. لا بُدَّ لي من
قُوَّةٍ ليكون حُلْمي واقعيّاً. هاتِ
أَسْلِحتي أُلَمِّعْها بمِلح الدمعِ. هاتِ
الدمعَ، أنكيدو، ليبكي المَيْتُ فينا
الحيَّ. ما أنا؟ مَنْ ينامُ الآن
أنكيدو؟ أَنا أَم أَنت؟ آلهتي

كقبض الريحِ. فانهَضْ بي بكامل
طيشك البشريِّ، وآحلُمْ بالمساواةِ
القليلةِ بين آلهة السماء وبيننا. نحن
الذين نُعَمِّرُ الأرضَ الجميلةَ بين
دجلةَ والفراتِ ونحفَظُ الأسماءَ. كيف
مَلَلْتَني، يا صاحبي، وخَذَلْتَني، ما نفْعُ حكمتنا
بدون فُتُوّةٍ... ما نفعُ حكمتنا؟ على باب المتاهِ
خذلتني،
يا صاحبي، فقتلتَني، وعليَّ وحدي
أَن أرى، وحدي، مصائرنا. ووحدي
أَحملُ الدنيا على كتفيَّ ثوراً هائجاً.
وحدي أُفتِّشُ شاردَ الخطوات عن
أَبديتي. لا بُدَّ لي من حَلٍّ هٰذا

اللُغْزِ، أنكيدو، سأحملُ عنكَ
عُمْرَكَ ما استطعتُ وما استطاعت
قُوَّتي وإرادتي أَن تحملاكَ. فمن
أَنا وحدي؟ هَبَاءٌ كاملُ التكوينِ
من حولي. ولكني سأُسْنِدُ ظلَّك
العاري على شجر النخيل. فأين ظلُّكَ؟
أَين ظلُّكَ بعدما انكسرَتْ جُذُوعُك؟
قمَّةُ
الإنسان
هاويةٌ ...
ظلمتُكَ حينما قاومتُ فيكَ الوَحْشَ،
بآمرأةٍ سَقَتْكَ حليبَها، فأنِسْتَ ...
واستسلمتَ للبشريِّ. أَنكيدو، ترفَّقْ
بي وعُدْ من حيث مُتَّ، لعلَّنا

نجدُ الجوابَ، فمن أَنا وحدي؟
حياةُ الفرد ناقصةٌ، وينقُصُني
السؤالُ، فمن سأسألُ عن عبور
النهر؟ فانهَضْ يا شقيقَ الملح
واحملني. وأَنتَ تنامُ هل تدري
بأنك نائمٌ؟ فانهض ... كفى نوماً!
تحرَّكْ قبل أَن يتكاثَرَ الحكماءُ حولي
كالثعالب: [كُلُّ شيء باطلٌ، فاغنَمْ
حياتَكَ مثلما هِيَ برهةً حُبْلَى بسائلها،
دَمِ العُشْبِ المُقَطَّرِ. عِشْ ليومك لا
لحلمك. كلُّ شيء زائلٌ. فاحذَرْ
غداً وعشِ الحياةَ الآن في آمرأةٍ
تحبُّكَ. عِشْ لجسمِكَ لا لِوَهْمِكَ.

وانتظرْ
ولداً سيحمل عنك رُوحَكَ.
فالخلودُ هُوَ التَّنَاسُلُ في الوجود.
وكُلُّ شيءٍ باطلٌ أو زائل، أو
زائل أو باطلٌ]

مَنْ أَنا؟
أَنشيدُ الأناشيد
أم حِكْمَةُ الجامعةْ؟
وكلانا أَنا ...
وأَنا شَاعرٌ
ومَلِكْ
وحكيمٌ على حافّة البئرِ
لا غيمةٌ في يدي
ولا أَحَدَ عَشَرَ كوكباً
على معبدي
ضاق بي جَسَدي
ضاق بي أَبدي
وغدي
جالسٌ مثل تاج الغبار

على مقعدي

باطلٌ، باطلُ الأباطيل ... باطلْ
كُلُّ شيء على البسيطة زائلْ

أَلرياحُ شماليَّةٌ
والرياحُ جنوبيَّةٌ
تُشْرِقُ الشمسُ من ذاتها
تَغْرُبُ الشمسُ في ذاتها
لا جديدَ، إذاً
والزَمَنْ
دائريُّ الخطى.
ما يكونُ غداً

كان أَمسِ،
سُدىً في سُدَى.
ألهياكلُ عاليةٌ
والسنابلُ عاليةٌ
والسماءُ إذا انخفضت مَطَرتْ
والبلادُ إذا ارتفعت أَقفرت
كُلُّ شيء إذا زاد عن حَدِّهِ
صار يوماً إلى ضدِّهِ.
والحياةُ على الأرض ظلٌّ
لما لا نرى ...

باطلٌ، باطلُ الأباطيل ... باطلْ
كلُّ شيء على البسيطة زائلْ

١٤٠٠ مركبة
و ١٢,٠٠٠ فرس
تحمل آسمي المُذَهَّبَ من
زَمَنٍ نحو آخر ...
عشتُ كما لم يَعِشْ شاعرٌ
مَلكاً وحكيماً ...
هَرِمْتُ، سَئِمْتُ من المجدِ
لا شيءَ ينقصني
أَلهٰذا إذاً
كلما آزداد علمي
تعاظَمَ هَمِّي؟
فما أُورشليمُ وما العَرْشُ؟
لا شيءَ يبقى على حالِه

للولادة وَقْتٌ
وللموت وقتٌ
وللصمت وَقْتٌ
وللنُّطق وقْتٌ
وللحرب وقْتٌ
وللصُّلحِ وقْتٌ
وللوقتِ وقْتٌ
ولا شيءَ يبقى على حالِهِ ...
كُلُّ نَهْرٍ سيشربُهُ البحرُ
والبحرُ ليس بملآنَ،
لا شيءَ يبقى على حالِهِ
كُلُّ حيّ يسيرُ إلى الموت
والموتُ ليس بملآنَ،
لا شيءَ يبقى سوى آسمي المُذَهَّبِ

بعدي:
«سُلَيمانُ كانَ» ...
فماذا سيفعل موتى بأسمائهم
هل يُضيءُ الذَّهَبْ
ظلمتي الشاسعةْ
أَم نشيدُ الأناشيد
والجامعةْ؟

باطلٌ، باطلُ الأباطيل ... باطلْ
كُلُّ شيء على البسيطة زائلْ/ ...

مثلما سار المسيحُ على البُحَيْرَةِ،
سرتُ في رؤيايَ. لكنِّي نزلتُ عن
الصليب لأَنني أَخشى العُلُوَّ، ولا
أُبَشِّرُ بالقيامةِ. لم أُغيِّرْ غَيْرَ
إيقاعي لأَسمَعَ صوتَ قلبي واضحاً.
للملحميِّين النُّسُورُ ولي أَنا: طوقُ
الحمامةِ، نجمةٌ مهجورةٌ فوق السطوح،
وشارعٌ مُتَعرِّجٌ يُفْضي إلى ميناءِ
عكا ـ ليس أكثرَ أَو أَقلَّ ـ
أُريد أَن أُلقي تحيَّاتِ الصباح عليَّ
حيث تركتُني ولداً سعيدا [لم
أَكَنْ ولداً سَعيدَ الحظِّ يومئذٍ،

ولكنَّ المسافةَ، مثلَ حدَّادينَ ممتازينَ،
تصنَعُ من حديدٍ تافهٍ قمراً]
ـ أَتعرفني؟
سألتُ الظلَّ قرب السورِ،
فانتبهتْ فتاةٌ ترتدي ناراً،
وقالت: هل تُكَلِّمني؟
فقلتُ: أُكَلِّمُ الشَبَحَ القرينَ
فتمتمتْ: مجنونُ ليلى آخرٌ يتفقَّدُ
الأطلالَ،
وانصرفتْ إلى حانوتها في آخر السُوق
القديمةِ ...
هٰهنا كُنَّا. وكانت نَخْلَتانِ تحمِّلان
البحرَ بعضَ رسائلِ الشعراءِ ...
لم نكبر كثيراً يا أَنا. فالمنظرُ

البحريُّ، والسُّورُ المُدَافِعُ عن خسارتنا،
ورائحةُ البَخُور تقول: ما زلنا هنا،
حتى لو انفصَلَ الزمانُ عن المكانِ.
لعلَّنا لم نفترق أَبداً
ـ أَتعرفني؟
بكى الوَلَدُ الذي ضيَّعتُهُ:
«لم نفترق. لكننا لن نلتقي أَبداً» ...
وأَغْلَقَ موجتين صغيرتين على ذراعيه،
وحلَّق عالياً ...
فسألتُ: مَنْ منَّا المُهَاجِرُ؟/
قلتُ للسّجَّان عند الشاطىء الغربيّ:
ـ هل أَنت ٱبنُ سجّاني القديمِ؟
ـ نعم!

ـ فأين أَبوك؟
قال: أَبي توفِّيَ من سنين.
أُصيبَ بالإحباط من سَأَم الحراسة.
ثم أَوْرَثَني مُهمَّتَهُ ومهنته، وأوصاني
بأن أَحمي المدينةَ من نشيدكَ ...
قُلْتُ: مَنْذُ متى تراقبني وتسجن
فيَّ نفسَكَ؟
قال: منذ كتبتَ أُولى أُغنياتك
قلت: لم تَكُ قد وُلِدْتَ
فقال: لي زَمَنٌ ولي أَزليَّةٌ،
وأُريد أن أَحيا على إيقاعِ أمريكا
وحائطِ أُورشليمَ
فقلتُ: كُنْ مَنْ أَنتَ. لكني ذهبتُ.
ومَنْ تراه الآن ليس أنا، أنا شَبَحي

فقال: كفى! أَلسْتَ آسمَ الصدى
الحجريِّ؟ لم تذهَبْ ولم تَرْجِعْ إذاً.
ما زلتَ داخلَ هذه الزنزانة الصفراءِ.
فاتركني وشأني!
قلتُ: هل ما زلتُ موجوداً
هنا؟ أأَنا طليقٌ أَو سجينٌ دون
أن أدري. وهذا البحرُ خلف السور بحري؟
قال لي: أَنتَ السجينُ، سجينُ
نفسِكَ والحنينِ. ومَنْ تراهُ الآن
ليس أَنا. أَنا شَبَحي
فقلتُ مُحَدِّثاً نفسي: أَنا حيٌّ.
وقلتُ: إذا التقى شَبَحانِ
في الصحراء، هل يتقاسمانِ الرملَ،

أَم يتنافسان على احتكار الليل؟/

كانت ساعَةُ الميناءِ تعمَلُ وحدها.
لم يكترثْ أَحَدٌ بليل الوقت، صَيَّادو
ثمار البحر يرمون الشباك ويجدلون
الموجَ. والعُشَّاقُ في الـ «ديسكو».
وكان الحالمون يُرَبِّتُون القُبَّراتِ النائماتِ
ويحلمون ...
وقلتُ: إن متُّ انتبهتُ ...
لديَّ ما يكفي من الماضي
وينقُصُني غَدٌ ...
سأسيرُ في الدرب القديم على

خُطَايَ، على هواءِ البحر. لا
آمرأةٌ تراني تحت شرفتها. ولم
أملكْ من الذكرى سوى ما ينفَعُ
السَّفَرَ الطويلَ. وكان في الأيام
ما يكفي من الغد. كُنْتُ أصْغَرَ
من فراشاتي ومن غَمَّازتينِ:
خُذي النُّعَاسَ وخبّئيني في
الرواية والمساء العاطفيِّ/
وَخبّئيني تحت إحدى النخلتين /
وعلِّميني الشِعْرَ / قد أَتعلَّمُ
التجوال في أنحاء «هومير» / قد
أُضيفُ إلى الحكاية وَصْفَ
عكا / أقدمِ المدنِ الجميلةِ،

أَجملِ المدن القديمةِ/ علبَةٌ
حَجَريَّةٌ يتحرَّكُ الأحياءُ والأمواتُ
في صلصالها كخليّة النحل السجين
ويُضْرِبُونَ عن الزهور ويسألون
البحر عن باب الطوارىء كُلَّما
اشتدَّ الحصارُ / وعلِّمني الشِعْرَ /
قد تحتاجُ بنتٌ ما إلى أُغنية
لبعيدها: «خُذْني ولو قَسْراً
إليكَ، وضَعْ منامي في
يَدَيْكَ». ويذهبان إلى الصدى
مُتَعانِقَيْنِ / كأنَّني زوَّجتُ ظبياً
شارداً لغزالةٍ / وفتحتُ أبوابَ
الكنيسةِ للحمام ... / وعَلِّمني

الشِعْرَ / مَنْ غزلتْ قميصَ
الصوف وانتظرتْ أمام الباب
أَوْلَى بالحديث عن المدى، وبخَيْبَةِ
الأَمَلِ: اَلمُحاربُ لم يَعُدْ، أو
لن يعود، فلستَ أَنتَ مَن
انتظرتُ ... /

ومثلما سار المسيحُ على البحيرة ...
سرتُ في رؤيايَ. لكنِّي نزلتُ عن
الصليب لأنني أَخشى العُلُوَّ ولا
أُبشِّرُ بالقيامة. لم أُغيِّر غيرَ إيقاعي

لأَسمع صوتَ قلبي واضحاً ...
للملحميِّين النُسُورُ ولي أَنا طَوْقُ
الحمامة، نَجْمَةٌ مهجورةٌ فوق السطوح،
وشارعٌ يُفضي إلى الميناء ... /
هذا البحرُ لي
هذا الهواءُ الرَّطْبُ لي
هذا الرصيفُ وما عَلَيْهِ
من خُطَايَ وسائلي المنويِّ ... لي
ومحطَّةُ الباصِ القديمةُ لي. ولي
شَبَحي وصاحبُهُ. وآنيةُ النحاس
وآيةُ الكرسيّ، والمفتاحُ لي
والبابُ والحُرّاسُ والأجراسُ لي

لِيَ حَذْوَةُ الفَرَسِ التي
طارت عن الأَسوار ... لي
ما كان لي. وقصاصَةُ الوَرَقِ التي
انتُزِعَتْ من الإنجيل لي
والمِلْحُ من أَثر الدموع على
جدار البيت لي ...
وآسمي، وإن أخطأتُ لَفْظَ آسمي
بخمسة أَحْرُفٍ أُفُقيّةِ التكوين لي:
ميمُ/ المُتَيَّمُ والمُيتَّمُ والمتمِّمُ ما مضى
حاءُ/ الحديقةُ والحبيبةُ، حيرتانِ وحسرتان
ميمُ/ المُغَامِرُ والمُعَدُّ المُسْتَعدُّ لموته
الموعود منفيّاً، مريضَ المُشْتَهَى

واو/ الوداعُ، الوردةُ الوسطى،
ولاءٌ للولادة أَينما وُجدَتْ، وَوَعْدُ الوالدين
دال / الدليلُ، الدربُ، دمعةُ
دارةٍ دَرَسَتْ، ودوريّ يُدَلِّلُني ويُدْميني /
وهذا الاسمُ لي ...
ولأصدقائي، أينما كانوا، ولي
جَسَدي المُؤَقَّتُ، حاضراً أم غائباً ...
مِتْرانِ من هذا التراب سيكفيان الآن ...
لي مِتْرٌ و٧٥ سنتمتراً ...
والباقي لِزَهْرٍ فَوْضَويّ اللونِ،
يشربني على مَهَلٍ، ولي
ما كان لي: أَمسي، وما سيكون لي

غَدِيَ البعيدُ، وعودة الروح الشريدِ
كأنَّ شيئاً لم يَكُنْ
وكأنَّ شيئاً لم يكن
جرحٌ طفيف في ذراع الحاضر العَبَثيِّ ...
والتاريخُ يسخر من ضحاياهُ
ومن أَبطالِهِ ...
يُلْقي عليهمْ نظرةً ويمرُّ ...
هذا البحرُ لي
هذا الهواءُ الرَّطْبُ لي
واسمي ـ
وإن أخطأتُ لفظ آسمي على التابوت ـ
لي.
أَما أَنا ـ وقد امتلأتُ

بكُلِّ أَسباب الرحيل -
فلستُ لي.
أَنا لَستُ لي
أَنا لَستُ لي ...

محمود درويش

سرير الغريبة


رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩
الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٠

القصائد

كان ينقصنا حاضر	٥٤٧
سوناتا [I]	٥٥٤
سماء منخفضة	٥٥٦
نمشي على الجسر	٥٦٢
ليلك من ليلك	٥٦٧
سوناتا [II]	٥٦٩
وقوع الغريب على نفسه في الغريب	٥٧١
غيمة من سدوم	٥٧٤
شادنا ظبية توأمان	٥٧٧
سوناتا [III]	٥٨٠
خذي فرسي واذبحيها...	٥٨٢
أرض الغريبة/ أرض السكينة	٥٨٥
حليب إنانا	٥٨٩
سوناتا [IV]	٥٩٤
لا أقل ولا أكثر	٥٩٦

أغنية زفاف	٦٠١
تدبير منزلي	٦٠٥
سوناتا [V]	٦٠٩
طائران غريبان في ريشنا	٦١١
لم أنتظر أحداً	٦١٥
جفاف	٦١٩
سوناتا [VI]	٦٢٢
رزق الطيور	٦٢٤
ربما، لأن الشتاء تأخر	٦٢٨
من أنا، دون منفى؟	٦٤٨
أنا، وجميل بثينة	٦٥٢
قناع لمجنون ليلى	٦٥٧
درس من كاما سوطرا	٦٦١
طوق الحمامة الدمشقي	٦٦٥

كُتبت هذه المجموعة
في عامي ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧

كان ينقصنا حاضر

لِنَذْهَبْ كما نَحْنُ:
سيِّدةً حُرَّةً
وصديقاً وفيّاً،
لنذهبْ معاً في طريقَيْنِ مُخْتَلِفَيْنْ
لنذهَبْ كما نحنُ مُتَّحِدَيْن
ومُنْفَصِلَيْن،
ولا شيءَ يُوجِعُنا
لا طلاقُ الحمام ولا البردُ بين اليَدَيْن
ولا الريحُ حول الكنيسة تُوجِعُنا...

لم يكن كافياً ما تفتَّح من شَجَر اللوز
فابتسمي يُزْهِرِ اللوزُ أكثرَ
بين فراشات غمازَتَيْن.

وعمَّا قليلٍ يكونُ لنا حاضرٌ آخَرٌ
إن نَظَرْتِ وراءك لن تبصري
غيرَ منفى وراءك:
غُرْفَةُ نومِكِ،
صفصافةُ الساحةِ،
النهرُ خلف مباني الزجاج،
ومقهى مواعيدنا... كُلُّها، كُلّها
تَسْتَعِدُّ لتصبح منفىً، إذاً
فلنكن طيّبين!

لِنَذْهَبْ كما نَحْنُ:

إنسانةً حُرّةً
وصديقاً وفيّاً لناياتها،
لم يكن عُمْرُنا كافياً لنشيخ معاً
ونسيرَ إلى السينما متعبين
ونَشْهَدَ خاتمةَ الحرب بين أَثينا وجاراتها
ونرى حفلة السلم ما بين روما وقرطاج
عمَّا قليل.
فعمَّا قليلٍ ستنتقل الطَيْرُ من زَمَنٍ نحو آخرَ،
هل كان هذا الطريقُ هباءً
على شَكْل معنى، وسار بنا
سَفَراً عابراً بين أسطورتين
فلا بُدَّ منه، ولا بُدَّ منا
غريباً يرى نَفْسَهُ في مرايا غريبته؟
«لا، ليس هذا طريقي إلى جَسَدي
«لا حُلول ثقافيَّةً لهُمُومٍ وُجوديَّةٍ

«أَينما كنتَ كانت سمائي
حَقِيقيَّةً
«مَنْ أَنا لأُعيد لَكَ الشَمْسَ والقَمَرَ السابقين
فلنكن طيّبين ...

لنذهبْ، كما نحن:
عاشقةً حُرَّةً
وشاعِرَها.
لم يكن كافياً ما تساقط من
ثلج كانون أَوَّلَ، فابتسمي
يندف الثلج قطناً على صلوات المسيحيِّ،
عمَّا قليلٍ نعود إلى غَدِنا، خَلْفَنا،
حَيْثُ كُنَّا هناك صغيرين في أوَّل الحب،
نلعب قصة روميو وجولييت
كي نتعلَّم مُعْجَمَ شكسبير...

طار الفَرَاشُ مِنَ النَوْمِ
مثل سرابِ سلامٍ سريع
يُكَلِّلُنا نجمتين
ويَقتلُنا في الصراع على الاسم
ما بين نافذتين
لنذهب، إذاً
ولنكن طيِّبين

لِنَذْهَبْ، كما نَحْنُ:
إنسانةً حُرَّة
وصديقاً وفيّاً،
لنذهَبْ كما نحن. جئنا
مَعَ الريح من بابلٍ
ونسيرُ إلى بابلٍ ...
لم يَكُنْ سَفَرِي كافياً
ليصير الصُنَوْبَرُ في أَثَري

لفظةً لمديح المكان الجنوبيّ
نحن هنا طَيِّبونَ. شَماليَّةٌ
ريحُنا، والأغاني جَنُوبيَةٌ
هل أَنا أنتِ أُخرى
وأَنت أنا آخر؟
«ليس هذا طريقي إلى أرض حُريَّتي
ليس هذا طريقي إلى جَسَدي
وأَنا، لن أكون «أنا» مَرَّتين
وقد حلَّ أَمسِ مَحَلَّ غدي
وانقَسَمْتُ إلى آمرأتين
فلا أَنا شرقيَّةٌ
ولا أنا غربيَّةٌ،
ولا أَنا زيتونةٌ ظَلَّلَتْ آيَتَيْن
لِنَذْهَبْ، إذاً.
«لا حلولَ جماعيَّةً لهواجسَ شخصيَّةٍ
لم يكن كافياً أَن نكون معاً

لنكون معاً...
كان ينقُصُنا حاضرٌ لنرى
أَين نحن. لنذْهَبْ كما نحن،
إنسانةً حُرَّةً
وصديقاً قديماً
لنذهبْ معاً في طريقين مختلفين
لنذهب معاً،
ولنكن طيِّبين...

سوناتا [I]

إذا كُنْتِ آخرَ ما قالَهُ اللهُ لي، فليكُنْ
نزولُكِ نُونَ الـ «أَنا» في الـمُثَنَّى. وطوبى لنا
وقد نَوَّر اللوزُ بَعْدَ خُطَى العابرين، هنا
على ضفتيك، ورفَّ عليك القطا واليمامُ

بقَرْنِ الغزال طَعَنْتِ السماء، فسال الكلامُ
ندى في عروق الطبيعة. ما آسمُ القصيدةْ
أَمام ثُنَائيَّة الـخَلْقِ والحق، بين السماء البعيدة
وأَرْزِ سريركِ، حين يحنُّ دَمٌ لدمٍ، ويئنُّ الرخامُ؟

ستحتاجُ أسطورةٌ للتشمُّس حولك. هذا الزحامُ
إلٰهاتُ مِصْرَ وسُومَرَ تحت النخيل يُغيِّرن أَثوابهنَّ
وأَسماءَ أَيامهن، ويُكْملن رحلاتهنَّ إلى آخر
القافية...

وتحتاج أنشودتي للتنفُّسِ: لا الشعرُ شعرٌ
ولا النثرُ نثرٌ. حلمت بأَنَّكِ آخرُ ما قالَهُ
ليَ اللهُ حين رأيتكما في المنام، فكان الكلامُ...

سماء منخفضة

هُنَالِكَ حُبٌّ يسيرُ على قَدَمَيْهِ الحَرِيرِيَّتَيْنْ
سعيداً بغُرْبَتِهِ في الشوارع،
حُبٌّ صغيرٌ فقيرٌ يُبَلِّلُهُ مَطَرٌ عابرٌ
فيفيض على العابرين:
«هدايايَ أكبرُ منّي
كُلُوا حِنْطَتي
وآشربوا خَمْرَتي
فسمائي على كتفيَّ وأَرضي لَكُمْ...

هَلْ شَمَمْتِ دَمَ الياسمينِ المَشَاعَ
وفكَّرْتِ بي
وانتظرتِ معي طائراً أَخضرَ الذَيْلِ
لا آسْمَ لَهُ؟

هُنَالِكَ حُبٌّ فقيرٌ يُحدِّقُ في النهرِ
مُسْتَسْلِماً للتداعي: إلى أَين تَرْكُضُ
يا فَرَسَ الماءِ؟
عما قليل سيمتصُّكَ البحرُ
فامش الهوينى إلى مَوْتكَ الاختياريِّ،
يا فَرَسَ الماء!

هل كنتِ لي ضَفَّتَينْ
وكان المكانُ كما ينبغي أن يكون
خفيفاً خفيفاً على ذكرياتِكِ؟

أَيَّ الأغاني تُحِبِّينَ
أيَّ الأغاني؟ أَتلك التي
تتحدَّثُ عن عَطَشِ الحُبِّ،
أَمْ عن زمانٍ مضى؟

هنالك حُبّ فقير، ومن طَرَفٍ واحدٍ
هادىءٌ هادىءٌ لا يُكَسِّرُ
بِلَّوْرَ أَيَّامِكِ المُنْتَقَاةِ
ولا يُوقدُ النارَ في قَمَرٍ باردٍ
في سريرِكِ،
لا تشعرينَ بهِ حينَ تبكينَ من هاجسٍ،
رُبَّما بدلاً منه،
لا تعرفين بماذا تُحِسِّين حين تَضُمِّينَ
نفسَكِ بين ذراعيكِ!
أَيَّ الليالي تريدين، أيَّ الليالي

وما لوْنُ تِلْكَ العيونِ التي تحلُمينَ
بها عندما تحلمين؟
هُنَالِكَ حُبٌّ فقيرٌ، ومن طرفين
يُقَلِّلُ من عَدَد اليائسين
ويرفَعُ عَرْشَ الحَمَام على الجانبين.
عليكِ، إذاً، أَن تَقُودي بنفسِكِ
هذا الربيعَ السريعَ إلى مَنْ تُحبّينَ
أَيَّ زمانٍ تريدين، أَيَّ زمان
لأُصبحَ شاعِرَهُ، هكذا هكذا: كُلَّما
مَضَتِ آمرأةٌ في المساء إلى سرِّها
وَجَدَتْ شاعراً سائراً في هواجسها.
كُلَّما غاص في نفسه شاعرٌ
وَجَدَ امرأةً تتعرَّى أَمام قصيدتِهِ...

أَيَّ منفىً تريدينَ؟

هل تذهبين معي، أَمْ تسيرين وَحْدَكِ
في آسْمك منفىً يُكَلِّلُ منفىً
بِلأْلاَئِهِ؟

هُنَالِكَ حُبٌّ يَمُرُّ بنا،
دون أَن نَنْتَبِهْ،
فلا هُوَ يَدْري ولا نحن نَدْري
لماذا تُشرِّدُنا وردةٌ في جدارٍ قديم
وتبكي فتاةٌ على مَوْقف الباص،
تَقْضِمُ تُفَّاحَةً ثم تبكي وتضحَكُ:
«لا شيءَ، لا شيءَ أكثر
من نَحْلَةٍ عَبَرَتْ في دمي...

هُنالِكَ حُبّ فقيرٌ، يُطيلُ
التأمُّلَ في العابرين، ويختارُ

أَصغَرَهُمْ قمراً: أَنتَ في حاجةٍ
لسماءٍ أَقلَّ ارتفاعاً،
فكن صاحبي تَتَّسعْ
لأَنانيَّةِ آثنين لا يعرفان
لمن يُهْدِيانِ زُهُورَهُما ...
ربَّما كان يَقْصِدُني، رُبَّما
كان يقصدُنا دون أَن نَنْتَبِهْ

هُنَالِكَ حُبّ ...

نمشي على الجسر

تُصابين، مثلي، برحلةِ طَيْرٍ
ويحدُثُ ذلك بعد الظهيرةِ،
حيث تقولين: خُذْني إلى النهرِ
يا أَجنبيٌّ، إلى النهر خذني
فإنَّ طريقي على ضَفَّتَيْكَ طويلُ

ونُصغي إلى ما يَقُولُ المُشَاةُ
على الجسر:
«لي عَمَلٌ آخرٌ غيرُ هذا،

«ولي مقعدٌ في السفينة
«لي حصَّةٌ في الحياة
«وأَمَّا أَنا،
فعليَّ اللحاقُ بمترو الضواحي
«تأخَّرتُ عن ذكرياتي
وعن موعد الساكسفون،
وَلَيْلي قليلُ

ونُصغي إلى ما بنا من حنينٍ خفيّ
إلى شارعٍ غامضٍ: لي حياتي هناك
حياتي التي صنعَتْها القوافلُ وانصرَفَتْ،
وهنا لي حياتي على قَدْر خبزي
وأَسئلتي عن مصيرٍ يُعَذِّبُه حاضرٌ
عابرٌ، وغَدٌ فوضويٌ جَميلُ

صدىً للصدى، أَيُّنا قال هذا الكلام، أَنا
أَمِ الأَجنبيَّةُ؟ لا أَحَدٌ يستطيعُ
الرجوع إلى أَحد. تصنع الأَبديَّةُ
أَشغالها اليدويَّةَ من عمرنا وتُعَمِّرُ...
فليكُنِ الحُبُّ ضرباً من الغَيْبِ، وليكُنِ
الغيبُ ضرباً من الحُبِّ. إني عجبتُ
لمن يعرفُ الحبَّ كيف يُحِبُّ! فقد
يتعَبُ الحُبّ فينا من الانتظار ويمرَضُ،
لكنَّهُ لا يَقُولُ

لدى غدنا ما سيكفي من الوقت، يكفي
لنمشي على الجسر عَشْرَ دقائقَ أُخرى،
فقد نتغيَّرُ عما قليلٍ وننسى ملامح
ثالثِنا/ الموتِ، ننسى الطريقَ إلى البيت
قرب السماء التي خذلتنا كثيراً،

خذيني إلى النهر، يا أَجنبيَّةُ،
قد نتغيَّر عمَّا قليل. وقد يحدثُ
المستحيلُ

كما في الكتابة، يأتي الضروريُّ
في حينه قمراً أُنثوياً لملء فراغ
القصيدة. لا تتركيني تماماً، ولا
تأخذيني تماماً. ضعي في المكان الصحيح
الزمانَ الصحيح. فأنتِ السبيلُ وأَنتِ الدليلُ

بلاد حقيقيَّةٌ، لا مجاز، ذراعاك
حولي... هنالك قرب الكتاب المُقَدَّس
أَو هٰهنا. أَيُّنا قال: قد تحفَظُ
اللغةُ الأَرضَ مما يُلِمُّ بها من
غيابٍ إذا انتصر الشعرُ؟ مَنْ

قال منا: سأنسى، وأَغفر للقلب
أكثر من خطأ واحد، كلما طال
هذا الرحيلُ...

ليلُكِ من ليلكِ

يجلسُ الليلُ حيث تكونين. ليلُك من
لَيْلَكِ. بين حين وآخرَ تُفْلتُ إيماءةٌ
من أَشعَّة غمَّازتَيْك فتكسر كأسَ النبيذ
وتُشْعل ضوء النجوم. وليلُك ظِلُّكِ -
قطعةُ أرضٍ خرافيَّةٍ للمساواة ما بين
أَحلامنا. ما أَنا بالمسافر أَو بالـمُقيم على
لَيْلِكِ الليلكيِّ، أَنا هُوَ مَنْ كان يوماً
أَنا، كُلَّما عَسْعَسَ الليلُ فيك حَدَسْتُ
بمَنْزِلَةِ القلب ما بين مَنْزِلَتَيْن: فلا

النفسُ ترضى، ولا الروحُ ترضى. وفي
جَسَدَيْنا سماءٌ تُعانق أَرضاً. وكُلُّك
ليلُكِ... لَيْلٌ يشعُّ كحبر الكواكب. لَيْلٌ
على ذمَّة الليل، يزحف في جسدي
خَذَراً كنُعاس الثعالب. ليل ينثُّ غموضاً
مضيئاً على لُغَتي، كُلَّما اتَّضَحَ آزدَدْتُ
خوفاً من الغد في قبضة اليد. ليلٌ
يُحدِّقُ في نفسه آمناً مطمئناً إلى لا
نهاياته، لا تحفُّ به غيرُ مرآته
وأَغاني الرُعاة القُدَامى لصيف أَباطرةٍ
يمرضون من الحبِّ. ليل ترعرع في شِعْرِهِ
الجاهليِّ على نزوات آمرىء القيس والآخرين،
ووسَّع للحالمين طريقَ الحليب إلى قمرٍ
جائعٍ في أَقاصي الكلامْ...

سوناتا [II]

لعلَّكِ حين تُديرينِ ظِلَّكِ للنهر لا تطلبين
مِنَ النهر غيرَ الغُموض. هُناكَ خريفٌ قليلْ
يَرُشُّ على ذَكَرِ الأَيِّلِ الماءَ من غيمةٍ شاردةْ
هُناكَ، على ما تَرَكْتِ لنا من فُتَاتِ الرحيلْ

غموضُك دَرْبُ الحليب. غبارُ كواكبَ لا آسم لها
وَلَيْلٌ غُمُوضُكِ في لُؤْلُؤ لا يُضيءُ سوى الماء،
أَمَّا الكلامُ فمن شأنه أَن يضيء بمفردةٍ واحدةْ

«أُحبُّكِ» لَيْلَ المهاجر بين مُعَلَّقَتَيْن وَصَفَّيْ نخيلْ

أَنا مَنْ رأى غَدَهُ إذْ رآكِ. أَنا مَنْ رأى
أَناجيلَ يكتبها الوثنيُّ الأَخيرُ على سفحِ جلعادَ
قبل البلادِ القديمةِ أَو بعدها. وأنا الغيمةُ العائدةْ
إلى تِينَةٍ تحملُ آسمي، كما يحملُ السيفُ وَجْهَ القتيلْ

لعلَّكِ، حين تُديرين ظلَّك لي، تمنحين المجاز
وقائعَ معنىً لما سوف يحدث عمَّا قليلْ...

وقوع الغريب على نفسه في الغريب

واحدٌ نحن في اثنين/
لا اسمَ لنا، يا غريبةُ، عند وُقُوع
الغريب على نفسه في الغريب. لَنَا من
حديقتنا خلفنا قُوَّةُ الظلِّ. فلتُظْهري
ما تشائين من أرض ليلك، ولتُبْطِني
ما تشائين. جئنا على عَجَلٍ من غروب
مكانين في زمن واحد، وبحثنا معاً
عن عناويننا: فاذهبي خَلْف ظلِّك،

شَرْقَ نشيد الأَناشيد، راعيةً للقطا،
تجدي نجمةً سَكَنَتْ موتها، فاصعدي جَبَلاً
مُهْمَلاً تجدي أَمسِ يُكْمِلُ دورتَهُ في غدي.
تجدي أَين كنا وأَين نكون معاً،
واحدٌ نحن في آثنين/
فاذهب إلى البحر، غَرْبَ كتابك،
واغطُسْ خفيفاً خفيفاً كأَنَّك تحمل
نَفْسَكَ عند الولادة في موجتين،
تجدْ غابةً من حشائش مائيةٍ وسماءً
من الماء خضراءَ ، فاغطسْ خفيفاً
خفيفاً كأنك لا شيء في أَيِّ شيء،
تجدنا معاً...
واحدٌ نحن في آثنين/
ينقُصُنا أَن نرى كيف كنا هنا، يا
غريبةُ، ظلّين ينفتحانِ وينغلقانِ على ما

تشكَّل من شكلنا: جَسَداً يختفي ثم يظهَرُ
في جَسَدٍ يختفي في التباس الثنائية
الأَبدية. ينقُصُنا أَن نعودَ إلى آثنين
كي نتعانق أكثر. لا اسم لنا يا غريبة
عند وقوع الغريب على نفسه في الغريب!

غيمة من سدوم

بَعْدَ لَيْلِكِ، ليلِ الشتاء الأَخير
خَلاَ شارعُ البحر من حَرَسِ الليل،
لا ظلَّ يتبعُني بعدما جَفَّ لَيْلُكِ
في شمس أُغنيتي. مَنْ يقول لي
الآن: دعك من الأَمس واحْلُمْ بكامل
لا وعيك الحُرّ؟
حُرّيتي تجلس الآن قربي، معي، وعلى
ركبتيَّ كقطٍ أليف. تُحدِّق بي وبما
قد تركتِ من الأمس لي: شالكِ

الليلكيَّ، شرائطَ فيديو عن الرقص بين الذئاب، وعقداً
من
الياسمين على طُحْلُب القلب...

ماذا ستصنع حُرِّيتي، بعد ليلك،
ليل الشتاء الأَخير؟
«مَضَتْ غَيْمَةٌ من سَدُومَ إلى بابلٍ،
من مئات السنين، ولكن شاعرها «بول
تسيلان» آنتحر، اليومَ، في نهر باريس.
لن تأخذيني إلى النهر ثانية. لن يسائلني
حارسٌ: ما آسمُكَ اليومَ؟ لن نَلْعَنَ
الحربَ. لن نَلْعَنَ السلْمَ. لن نتسَلَّقَ سُورَ
الحديقة بحثاً عن الليل ما بين صفصافتين
ونافذتين، ولن تسأليني: متى يفتح
السِلْمُ أَبوابَ قلعتنا للحمام؟

بعد ليلك، ليل الشتاء الأخير
أقام الجنودُ معسكرهم في مكان بعيد
وحطَّ على شرفتي قمر أبيض
وجلست وحُرّيتي صامتين نُحَدِّقُ في ليلنا
مَنْ أَنا؟ مَنْ أنا بعد لَيْلِكِ
ليلِ الشتاءِ الأَخير؟

شادنا ظبية توأمان

مساءاً، على نَمَش الضوء ما بين
نهديك، يقتربُ الأَمسُ والغدُ مِنِّي.
وُجِدْتُ كما ينبغي للقصيدة أَن تُوَجَدَ...
آلليلُ يُولَدُ تحت لِحَافِك، والظلُّ
مُرْتَبِكٌ هٰهنا وهنالك بين ضفافك
والكلماتِ التي أَرْجَعَتْنا إلى نَبْرِها:
«وضعتُ يميني على شَعْرِها
وشِمالي على شادِنَيْ ظَبْيَةٍ توأمين
وَسِرْنا إلى لَيْلنا الخاصِّ...»

هل أَنتِ حقاً هنا؟ أَمِ أَنا
عاشقٌ سابقٌ يتفقَّدُ أَحوالَ ماضِيهِ؟
نامي على نفسك المطمئنَّةِ بين
زُهُور الملاءات. نامي يداً فوق صدري
وأُخرى على ما سيَنْبُتُ من زَغَبٍ لِفِراخ
اليمامات. نامي كما ينبغي للحديقة من
حولنا أَن تنام... امتلأنا بأَمسِ،
امتلأنا بوسواس جيتارةٍ لا سرير لها.
يا لها... مِنْ فَتَاةٍ خُلاَسيَّةٍ تبعت ظلَّها.
يا لها... من هياجٍ يُمزِّقُ ما يتناثر من
وَرَقِ الورد حول السياج. فنامي
على نَفَسي نَفَساً ثانياً قبل أَن يفتح
الأَمسُ نافذتي كُلَّها. ليس لي طائرٌ
وطنيٌّ، ولا شَجَرٌ وطنيٌّ، ولا زَهْرَةٌ
في حديقة منفاك. لكنني ـ ونبيذي

يُسَافِرُ مثلي ـ أُقاسِمُكِ الغَدَ والأَمس.
لولاك لولا الرذاذُ الذي يتلألأ في نَمَش
الضوء ما بين نهديك، لانحرفتْ لُغتي
عن أُنوثتها. كم أَنا والقصيدة أُمُّك،
وآبناك، نغفو على شَادِنَيْ ظَبْيَةٍ
تَوْأَمَيْن!

سوناتا [III]

أُحبُّ من الليل أَوَّلَهُ، عندما تأتيان معا
يداً بيد، ورويداً رويداً تَضُمَّانِني مَقْطَعاً مقطعا
تطيران بي، فوق. يا صاحبيَّ أَقيما ولا تُسْرِعا
وناما على جانبيَّ كمثل جناحيْ سُنُونُوَّة مُتْعَبَهْ

حريرُكما ساخِنٌ. وعلى الناي أَن يتأَنَّى قليلا
ويصقُلَ سُوناتَةً، عندما تقعان عليَّ غموضاً جميلا
كمعنى على أُهْبَةِ العُرْيِ، لا يستطيعُ الوصولا

ولا الانتظارَ الطويلَ أَمامَ الكلام، فيختارني عَتَبهْ
أُحبُّ من الشعر عَفْوِيَّةَ النثر والصورةَ الخافيةْ
بلا قَمَرٍ للبلاغةِ: حين تسيرين حافيةً تترُكُ القافية
جِماعَ الكلام، وينكسِرُ الوَزْنُ في ذروة التجربةْ

قليلٌ من الليل قربك يكفي لأخرج من بابلي
إلى جوهري ـ آخري. لا حديقةَ لي داخلي
وكُلُّكِ أَنتِ. وما فاض منك «أَنا» الحُرَّةُ الطيِّبةْ

خُذي فرسي
وآذبحيها ...

أَنتِ، لا هَوَسي بالفتوحات، عُرْسي
تَرَكْتُ لنفسي وأقرانها من شياطين نفسِكِ
حُريَّةَ الامتثال لما تطلبين،
خُذي فَرَسي
وآذبحيها،
لأَمشي مثلَ المُحَارِبِ بَعْدَ الهزيمةِ
من غَيْرِ حُلم وحسٍّ ...
سلاماً على ما تُريدين من تَعَبِ

للأَمير الأسير، ومن ذهبٍ لاحتفال
الوصيفات بالصيف. أَلْفَ سلام عَلَيْكِ
جميعك حافلةً بالمُريدين من كُلِّ جنٍّ وإنسٍ،
سلاماً على ما صَنَعْتِ بنفسك من
أَجل نفسك: دَبُّوسُ شَعْرِكِ يكسر
سيفي وتُرْسي
وزرُّ قميصك يحمل في ضَوْئه
لفظةَ السرِّ للطير من كُلِّ جنسٍ،
خُذي نَفَسِي أَخْذَ جيتارَةٍ تستجيبُ
لما تطلبين من الريح. أَندلسي كُلُّها
في يديك، فلا تَدَعي وَتَراً واحداً
للدفاع عن النفس في أَرْض أَندَلُسِي
سوف أُدرك، في زمن آخر،
سوف أدرك أَني انتصرتُ بيأسي
وأَني وجدت حياتي، هنالك

خارجها، قرب أَمسي
خذي فَرسي
وآذبحيها، لأَحمل نفسيَ حيّاً ومَيْتاً،
بنفسي...

أذَرض الغريبة/
أرض السكينة

فيَّ، مثلكِ، أَرضٌ على حافَّةِ الأرضِ
مأهُولَةٌ بكِ أَو بغيابكِ. لا أَعرفُ
الأُغنيات التي تجْهَشين بها، وأَنا سائرٌ
في ضبابكِ. فلتَكُنِ الأَرضُ ما
تومئين إليه... وما تفعلينَهْ

جنوبيَّةٌ،
لا تكفُّ عن الدَوَران على نفسها
وعليك. لها موعدانِ قصيرانِ حول

السماء: شتاءٌ وصَيْفٌ. وأَمَّا الربيعُ
وأَطوارُهُ، فَهْوَ شَأْنُكِ وَحْدَكِ.
قُومي إلى أَيَّةِ آمرأةٍ فيك تنتشرِ
المرغريتا على كُلّ نافِذَةٍ في المدينهْ

مُذهَّبَةٌ،
مثل صَيْفِ الأميرِ الصغير. وأَمَّا
الخريفُ وتأويلُهُ ذَهَباً مُتْعَباً، فهو
شأني أَنا، حين أُطْعِمُ طَيْرَ الكنائسِ
خُبْزي. وأنسى وأَنتِ تسيرين بين
التماثيل حريَّةَ الحَجَرِ المرمرِيّ، وأَتْبَعُ
رائحةَ المندرينهْ

مسافرةٌ،
حول صُورَتها في مراياكِ: «لا

أُمَّ لي يا ٱبْنَتي فَلِدِيني هنا»
هكذا تَضَعُ الأرضُ في جَسَدٍ سرّها،
وتُزوِّجُ أُنثى إلى ذَكَرٍ. فخذيني
إليها إليكِ إليَّ. هُنَاكَ هُنا. داخلي
خارجي. وخُذيني لتَسْكُنَ نفسي
إليكِ، وأَسْكُنَ أَرضَ السكينهْ

سَمَاوِيَّةٌ،
لَيْس لِي ما أَقولُ عن الأرض فيكِ
سوى ما يقولُ الغريبُ: سَمَاوِيَّةٌ ...
رُبَّما يُخْطىءُ الغُرَباءُ بلفظِ حُروفِ آراميَّةٍ.
رُبَّما يَصْنَعُون إلٰهَتَهُمْ من مَوَادَّ
بدائيَّةٍ وَجَدوها على ضفَّة النهر،
لكنهُم يُتْقِنُونَ الغناءَ: سماويَّةٌ
هٰذِهِ الأرضُ مِثْلُ سَحابٍ خَفِيفٍ

تَبَخَّرَ من ياسمينهْ

مجازِيَّةٌ،
كالقصيدةِ قبل الكتابةِ: «لا أَبَ
لي يا بُنَيَّ، فَلِدْني» تقولُ لِيَ الأرضُ
حين أَمرُّ خفيفاً على الأرض، في
لَيْل بِلَّوْرِكِ المتلالىء بين الفراشات.
لا دَمَ فوق المحاريثِ. عُذْرِيَّةٌ تتجدَّدُ
لا آسمَ لما ينبغي أن تكون عليه
الحياةُ سوى ما صَنَعْتِ بروحي وما تصنعينه...

حليب إنانا

لَكِ التَوْأمانِ: لَكِ النثرُ والشعرُ يَتَّحدان، وأَنتِ
تطيرين من زَمَنٍ نحو آخَرَ، سالمةً كاملةْ
على هَوْدَجٍ من كواكب قَتْلاَكِ ـ حُرَّاسِكِ الطّيبين
وَهُمْ يحملون سماواتِكِ السَبْعَ قافلةً قافلةْ.
رُعاةُ خُيُولِكِ بين نخيلِ يَدَيْكِ ونَهْرَيْكِ يقتربون
مِنَ الماء «أُولى الإلٰهات أكثرُهُنَّ آمتلاءً
بنا». خالِقٌ عاشِقٌ يَتَأمَّلُ أَفعالَهُ، فيُجَنُّ
بها ويَحِنُّ إليها: أَأَفعَلُ ثانيةً ما فَعَلْتُ؟
وكُتّابُ بَرْقِكِ يحترقون بحِبْرِ السماء، وأَحفادُهُمْ

يَنْشُرون السنونو على مَوْكب السُومريّة...
صاعدةً كانتِ السومريَّةُ، أَمْ نازلة

لَكِ، أَنتِ المَدِيدَة في البَهْوِ
ذاتِ القميص المُشَجَّر، والبنطلونِ
الرماديٍّ، لا لمجازك، أوقظُ
برِّيَتي، وأَقولُ لنفسي: سيطلع
من عَتْمتي قَمَرُ...

دَعِي الماءَ ينزلْ من الأُفُق السومريّ
علينا، كما في الأَساطير. إنْ كانَ
قلبي صحيحاً كهذا الزجاجِ المحيطِ بنا
فامْلَئِيهِ بغيمكِ حتى يَعُودَ إلى أَهله
غائماً حالماً كصلاة الفقيرِ. وإنْ كانَ
قلبي جريحاً فلا تَطْعَنيه بقَرْنِ الغزال،

فلم تَبْقَ حول الفُرَات زهورٌ طبيعيَّةٌ
لـحُلُول دمي في الشقائق بعد الحروب.
ولم تَبْقَ في معبدي جَرَّةٌ لنبيذ الإلهاتِ
في سُومَرَ الأَبديَّة، في سُومَرَ الزائلةْ

لَكِ، أَنت الرشيقة في البَهْوِ
ذاتِ اليَدَيْنِ الـحَرِيرِيَّتَيْنِ
وخاصرة اللَهْوِ،
لا لرموزك،
أُوقظُ بريَّتي، وأَقول:
سأَستلُّ هٰذي الغزالَةَ من سِرْبها
وأَطعن نفسي... بها!

لا أُريد لأُغنيَّة أَن تكون سريرك،
فليَصْقُلِ الثورُ، ثورُ العراقِ

المُجَنَّحُ قَرْنَيْهِ بالدَهْر والهَيْكَل المُتَصَدِّعِ
في فضّة الفجرِ. وليَحْمِلِ الموتُ آلَتَهُ
المعدنيَّةَ في جَوْقة المنشدين القُدامى
لشمسِ نَبُوخَذنَصَّر. أَما أَنا، المتحدِّر
من غير هذ الزمان، فلا بُدَّ لي
من حِصَانٍ يُلائم هذا الزفاف. وإنْ كانَ
لا بُدَّ من قَمَرٍ فَليكُنْ عالياً... عالياً
ومن صُنْعِ بَغْدادَ، لا عربيّاً ولا فارسياً
ولا تدَّعِيهِ الإلهاتُ من حولنا. وليَكُنْ خالياً
من الذكريات وَخَمْرِ المُلُوك القدامى،
لِنُكْمِلَ هذا الزفافَ المُقَدَّسَ، نكملُهُ يا آبْنَةَ
القمر الأَبَديِّ هنا في المكان الذي نَزَّلَتْهُ
يداكِ على طَرَفِ الأرض من شُرْفَة الجنَّة الآفلة! ...

لَكِ، أنت التي تَقْرَئينَ

الجريدةَ في البَهْو،
أَنتِ المُصَابةِ بالإنفلُوَنْزا
أَقولُ: خُذِي كأسَ بابُونجٍ ساخنٍ
وَخُذي حَبَّتَيْ «أسبرين»
ليهدأ فيكِ حليبُ إِنانا،
ونعرفَ ما الزَمَنُ الآن
في مُلْتَقى الرافِدَيْن!

سوناتا [IV]

بِبُطءٍ أُمسِّدُ نومَكِ. يا آسَمَ الذي أَنا فيهِ
من الحُلْم نامي. سيلتحِفُ الليلُ أَشجارَهُ، وسيغفو
على أَرضه سيّداً لغيابٍ قليل. ونامي لأَطفو
على نُقَط الضوء ترشَحُ من قَمَرٍ أَحتويه...

يُخيِّمُ شَعْرُكِ فوق رُخَامك بَدْواً ينامون سَهْواً
ولا يحلمون. يُضِيئُك زَوْجا يَمَامِك من كَتِفَيْكِ
إلى أُقحوان منامك. نامي عليك وفيك. عليك
سلامُ السماوات والأرض تفتحُ أَبهاءها لَكِ بَهْواً فبهوا

يُغَلِّفُك النوم بي. لا ملائكةٌ يحملون السرير
ولا شَبَحٌ يُوقِظ الياسمينة. يا آسميْ المؤنَّثَ، نامي
فلا نايَ يبكي على فَرَسٍ هاربٍ من خيامي

كما تحلمين تكونين، يا صَيْفَ أرضٍ شماليَّةٍ
يُخَدِّرُ غاباته الألفَ في سَطْوَةِ النوم. نامي
ولا توقظي جَسَداً يشتهي جَسَداً في منامي

لا أقل، ولا أكثر

أَنا آمرأةٌ. لا أَقلَّ ولا أَكثرَ
أَعيشُ حياتي كما هِيَ
خَيْطاً فَخَيْطاً
وأَغزِلُ صُوفي لألبسَهُ، لا
لأُكملَ قصَّةَ «هُوميرَ»، أَو شمسَهُ
وأَرى ما أَرى
كما هُوَ، في شَكْلِهِ
بيد أَنِّي أُحدِّقُ ما بين حينٍ
وآخرَ في ظلِّهِ

لأُحِسَّ بنبض الخسارةِ،
فاكتُبْ غداً
على وَرَقِ الأمس: لا صَوْتَ
إلاّ الصدى.
أُحبُّ الغموضَ الضروريَّ في
كلمات المسافر ليلاً إلى ما آختفى
من الطير فوق سُفُوح الكلام
وفوق سُطُوح القُرى
أَنا امرأة، لا أَقلَّ ولا أكثرَ

تُطَيِّرُني زَهْرَةُ اللوز،
في شهر آذار، من شرفتي
حنيناً إلى ما يقول البعيدُ:
«آلمسيني لأُوردَ خيليَ ماء الينابيع»
أَبكي بلا سَبَبٍ واضح، وأُحبُّكَ

أَنْتَ كما أَنتَ، لا سَنَداً
أَو سُدَى
ويطلع من كتفيَّ نهارٌ عليك
ويهبط، حين أَضمُّكَ، ليلٌ إليك
ولستُ بهذا ولا ذاك
لا، لستُ شمساً ولا قمراً
أَنا امرأةٌ، لا أَقلَّ ولا أكثرَ

فكُنْ أَنتَ قَيْس الحنين،
إذا شئتَ. أَمَّا أَنا
فيُعجِبُني أَن أُحَبَّ كما أَنا
لا صُورَةً
مُلَوَّنَةً في الجريدة، أو فكرةً
مُلَحّنةً في القصيدة بين الأَيائلِ...
أَسْمَعُ صرخة ليلى البعيدة

من غرفة النوم: لا تتركيني
سجينةَ قافيةٍ في ليالي القبائلِ
لا تتركيني لهم خبرا...
أَنا آمرأةٌ، لا أَقلَّ ولا أكثرَ

أَنا مَن أَنا، مثلما
أَنت مَنْ أَنت: تسكُنُ فيَّ
وأَسكُنُ فيك إليك ولَكْ
أُحبّ الوضوح الضروريَّ في لغزنا المشترك
أَنا لَكَ حين أَفيضُ عن الليل
لكنني لَسْتُ أَرضاً
ولا سَفَراً
أَنا آمرأةٌ، لا أَقَلَّ ولا أكثرَ

وَتُتْعبُني

دَوْرَةُ القَمَر الأنثويّ
فتمرضُ جيتارتي
وَتَراً
وَتَراً
أنا آمرأةٌ،
لا أَقلَّ
ولا أكثرَ!

أغنية زفاف

وانتقلتُ إليكَ، كما انتقل الفلكيّونَ
من كوكبٍ نحو آخرَ. روحي تُطلُّ
على جسدي من أَصابعك العَشْر.
خُذْني إليك، آنطلق باليمامة حتى
أَقاصي الهديل على جانبيك: المدى
والصدى. وَدَعِ الخَيْلَ تركُضْ ورائي
سدى. فأنا لا أَرى صورتي، بَعْدُ،
في مائها... لا أَرى أَحدا

لا أَرى أَحداً، لا أَراكَ. فماذا
صنعتَ بحريتي؟ مَنْ أَنا خلف
سُورِ المدينةِ؟ لا أُمَّ تعجنُ شَعْري
الطويلَ بحنّائها الأَبديّ، ولا أُخْتَ
تضفِرُهُ. مَنْ أَنا خارج السور بين
حقولٍ حياديَّةٍ وسماء رماديّةٍ. فلتكن
أَنتَ أُمِّيَ في بَلَد الغُرَبَاء. وخذني
برفق إلى مَنْ أَكونُ غدا

مَنْ أكونُ غداً؟ هل سأُولَدُ من
ضلعِكَ آمرأةً لا هُمُومَ لها غيرُ زينةِ
دُنْيَاكَ. أمْ سوف أَبكي هناك على
حَجَرٍ كان يُرْشِدُ غيمي إلى ماء بئرك؟
خذني إلى آخر
الأرض قبل طلوع الصباح على قَمَرٍ كان

يبكي دماً في السرير، وخُذْني برفق
كما تأخُذُ النجمةُ الحالمين إليها سُدىً
وسُدى

وسدىً، أَتطلَّعُ خلف جبال مُؤَاب،
فلا ريح تُرْجعُ ثوب العروس. أُحبُّكَ
لكنَّ قلبي يرنّ برجع الصدى ويحنُّ
إلى سَوْسَنٍ آخر. هل هنالك حُزْنٌ أَشدُّ
التباساً على النفس من فَرَح البنت
في عُرْسها؟ وأُحبك مهما تذكَّرْتُ
أَمسِ، ومهما تذكرتُ أَني نسيتُ
الصدى في الصدى

أَلصدى في الصدى، وانتقلتُ إليكَ
كما انتقلَ الاسمُ من كائنٍ نحو آخر.

كنا غريبين في بلدين بعيدين قبل قليل،
فماذا أكون غداةَ غد عندما أُصبحُ
اثنين؟ ماذا صَنَعْتَ بحُريَّتي؟ كلما
ازداد خوفيَ منك اندفعتُ إليك،
ولا فضل لي يا حبيبي الغريب سوى
وَلَعي، فلتكن ثعلباً طيِّباً في كرومي،
وحدِّق بخُضْرة عينيك في وجعي. لن
أعود إلى آسمي وبرِّيتي، أَبداً
أَبداً
أَبدا.

تدبير منزلي

ـ ١ ـ

كم أَنا
في الصباح ذهبتُ إلى سوق يوم
الخميس. اشتريتُ حوائجنا المنزليّة،
واخترتُ أُوركيدَةً وبعثتُ الرسائل.
بلَّلني مَطَرٌ فامتلأتُ برائحة البرتقالة.
هل قُلْتَ ليْ مَرَّةً إنني نَخْلَةٌ حاملٌ،
أَم تخيَّلْتُ ذلك؟ إن لم تجدني
أَرفُّ عليك، فلا تَخْشَ ضَعْفَ الهواءِ،
وَنَمْ يا حبيبيَ نَوْمَ الهنا...

ـ ٢ ـ

كم أَنا؟
في الظهيرة، لَمَّعْتُ كُلَّ مراياي. أَعددتُ
نفسي لعيدٍ سعيدٍ. ونهدايَ، فَرْخا
يمامٍ لياليكَ يمتلئان بشهوة أَمس.
أَرى في عُروق الرخام حليبَ الكلام
الإباحي يجري ويصرخ بالشُعَراء
آكتبوني، كما قال ريتسوس. أَين
اختفيت وأَخفيت منفايَ عن رغبتي؟
لا أرى صُورَتي في المرايا، ولا صُورَةَ
آمرأةٍ من نساء أَثينا تُدِيرُ تَدَابِيرَها
العاطفيَّةَ مثلي هُنا.

- ٣ -

كم أَنا؟
في المساء، ذهبتُ إلى السينما
مع إحدى الصديقات. كان الهُنُودُ
القدامى يطيرون في زمن الحرب والسلم
كالشُّهُب الأَثريَّة، مثلي ومثلك.
حدَّقْتُ في طائرٍ فرأيتُ جناحَيْكَ
يرتديان جناحيّ في شجر الأكاليبتوس.
ها نحن ننجو نجاة الغبار من
النهر. مَنْ كان فينا الضحيّةَ فليْحلُمِ
الآن أكثرَ من غيره، بيننا.

ـ ٤ ـ

كم أَنا؟
بعد مُنْتَصفِ الليل، أَشْرَقَتِ
الشمسُ في دمنا
كم أنا أنْتَ، يا صاحبي
كم أَنا! مَنْ أَنا!

سوناتا [V]

أَمسُّكِ مَسَّ الكمان الوحيد ضواحي المكان البعيد
على مَهلٍ يطلب النهرُ حصَّته من رذاذ المطرْ
ويدنو، رويداً رويداً، غَدٌ عابرٌ في القصيد
فأحملُ أَرضَ البعيد وتحملني في طريق السفرْ

على فَرَسٍ من خصالك تنسجُ روحي
سماء طبيعيَّة من ظلالك، شرنقةً شرنقةْ
أَنا آبن فعالك في الأرض، وآبنُ جروحي
وقد أَشعلَتْ وحدها جُلَّنارَ بساتينك المغلقة

من الياسمين يسيل دمُ الليل أَبيضَ. عطرُكِ
ضعفي وسرُّكِ، يتبعني مثل لدغة أَفعى. وشَعْرُكِ
خيمةُ ريحٍ خريفيَّة اللونِ. أَمشي أَنا والكلامْ
إلى آخر الكلمات التي قالها بدويٌّ لزوجي حمام

أَجسُّكِ جَسَّ الكمان حريرَ الزمان البعيدْ
وينبت حولي وحولك عُشْبُ مكانٍ قديمٍ ـ جديدْ

طائران غريبان
في ريشنا

سمائي رماديَّةٌ. حُكَّ ظهري. وفُكَّ
على مَهَلٍ، يا غريبُ، جدائلَ شعري. وقُلْ
ليَ في مَ تُفَكِّرُ. قُلْ ليَ ما مَرَّ
في بال يُوسُفَ. قل ليَ بعضَ الكلام
البسيطِ... الكلامِ الذي تشتهي امرأةٌ
أَن يُقَالُ لها دائماً. لا أُريدُ العبارةَ
كاملةً. أَكتفي بالإشارة تنثُرُني في مَهَبِّ
الفراشاتِ بين الينابيع والشمس. قُل ليَ

إِنِّي ضرورِّيةٌ لَكَ كالنوم، لا لامتلاء
الطبيعة بالماء حولي وحولك. وأبسُطْ
عليَّ جناحاً من الأزرق اللانهائيِّ...
إنَّ سمائي رماديَّةٌ،
ورماديَّةٌ مثل لَوْحِ الكتابة، قبل
الكتابة. فآكتُبْ عليها بحبر دمي أَيَّ
شيء يُغيِّرُها: لفظةً... لفظتين بلا
هَدَفٍ مُسْرِفٍ في المجاز. وقُلْ إنَّنا
طائرانِ غريبانِ في أَرضِ مِصْرَ وفي
الشام.
قل إننا طائران غريبان في
ريشنا. واكتُبِ آسميَ وآسمَكَ تحت
العبارةِ. ما الساعة الآن؟ ما لَوْنُ
وجهي ووجهك فوق المرايا الجديدةِ؟
ما عُدْت أَملكُ شيئاً ليُشْبِهَني. هل

أَحبَّتك سيِّدةُ الماء أكثرَ؟ هل راوَدَتْك
على صخرة البحر عن نفسِكَ، آعْتَرِفِ
الآن أَنَّكَ مَدَّدْتَ تِيهَكَ عشرين عاماً
لتبقى أَسيرَ يديها. وقُلْ ليَ في مَ
تُفَكِّرُ حين تصيرُ السماءُ رماديَّة اللون...
إنَّ سمائي رماديَّةٌ
صرتُ أُشْبهُ ما ليس يشبهني.
هل تريدُ الرجوع إلى ليل منفاك
في شَعْر حُوريّةٍ؟ أَم تريد الرجوع
إلى تين بيتك. لا عَسَلٌ جارحٌ للغريب
هنا أَو هناك. فما الساعَةُ الآن؟
ما آسمُ المكان الذي نحن فيه؟ وما
الفرق بين سمائي وأَرضك. قل ليَ
ما قال آدَمُ في سَرِّه. هل تَحَرَّرَ
حين تَذَكَّرَ. قل أَيّ شيء يُغَيِّر لون

السماء الرماديَّ. قُلْ ليَ بعضَ الكلام
البسيط، الكلام الذي تشتهي آمرأةٌ
أَن يُقال لها بين حينٍ وآخرَ. قُلْ
إنَّ في وسع شخصين، مثلي ومثلك،
أَن يحملا كل هذا التشابه بين الضباب
وبين السراب، وأَن يَرْجِعَا سالمين. سمائي
رماديَّةٌ، فبماذا تفكِّرُ حين تكونُ السماءُ
رماديَّةً؟

لم أنتظر أحداً

سأَعرفُ، مهما ذَهَبْتَ مَعَ الريح، كيفَ
أُعيدُكَ. أَعرفُ من أَين يأتي بعيدُكَ.
فاذهَبْ كما تذهبُ الذكرياتُ إلى بئرها
الأَبديَّةِ، لن تَجِدَ السومريَّةَ حاملةً جَرَّة
للصدى في انتظارِكَ
أَمَّا أَنا، فسأعرف كيف أُعيدُكَ
فاذهبْ تقودُكَ ناياتُ أَهل البحار القدامى
وقافلةُ الملح في سَيْرِها اللانهائيِّ. واذهبْ
نشيدُكَ يُفْلِتُ منِّي ومنك ومن زَمَني،

باحثاً عن حصان جديدٍ يُرَقِّصُ إيقاعَهُ
الحُرَّ. لن تجد المستحيلَ، كما كان يَوْمَ
وَجَدْتُكَ، يوم وَلَدْتُكَ من شهوتي
جالساً في انتظارِك،
أَمَّا أَنا، فسأعرف كيف أُعيدُكَ،
وآذهب مع النهر من قَدَرٍ نحو
آخر، فالريحُ جاهزةٌ لاقتلاعك من
قمري، والكلامُ الأخيرُ على شجري جاهزٌ
للسقوط على ساحة التروكاديرو. تَلَفَّتْ
وراءك كي تجد الحُلْمَ، واذهب
إلى أَيِّ شَرْقٍ وغربٍ يزيدُك منفىً،
ويُبْعدُني خطوةً عن سريري وإحدى
سماوات نفسي الحزينةِ. إنَّ النهاية
أُختُ البداية، فاذهبْ تَجِدْ ما تركتَ
هنا، في انتظارك

لم أَنتظِرْكَ، ولم أَنتظر أَحداً.
كان لا بُدَّ لي أَن أُمشِّطَ شعري
على مَهَلٍ أُسْوَةً بالنساء الوحيدات
في ليلهنَّ، وأَن أَتدبَّرَ أَمري، وأكسِرَ
فوق الرخام زجاجةَ ماء الكولونيا، وأَمنعَ
نفسي من الانتباه إلى نفسها في
الشتاء، كأني أَقولُ لها: دَفِّئيني
أُدفِّئْكِ يا آمرأتي، وآعْتَني بيديك،
فما هو شأنُهما بنزول السماء إلى
الأرض أَو رحْلةِ الأرض نحو السماء،
آعتني بيديك لكي تَحْمِلاَك «يَدَاكِ
هُما سَيِّداكِ» كما قال إيلور.. فاذهب
أُريدُكَ أو لا أريدُك.

لمَ أنتظِرْكَ، ولم أنتظر أَحداً.

كان لا بُدَّ لي أَن أَصبَّ النبيذَ
بكأسين مكسورتين، وأَمنعَ نفسي من
الانتباه إلى نفسها في انتظارك!

جفاف

هذه سَنَةٌ صَعْبَةٌ
لم يَعِدْنا الخريف بشيءٍ
ولم ننتظرْ رُسُلاً
والجفافُ كما هُوَ: أَرضٌ مُعَذَّبَةٌ
وسماءٌ مُذَهَّبَةٌ،
فليكُنْ جَسَدي مَعْبَدِي

... وَعَلَيْكَ الوُصُولُ إلى خبز روحي
لتعرف نفسَكَ. لا حدَّ لي

إن أَردتُ:
أُوَسِّعُ حقلي بسنبلَةٍ
وأُوسِّعُ هذا الفضاء بتَرْغَلَّةٍ،
فليكن جَسَدي بَلَدي

والجفاف يُحَدِّقُ في النهر،
أَو يتطلَّعُ نحو النخيلِ
ويُخْطِىءُ بئري العميقة،
لا حَدَّ لي بكَ...
إنَّ السماءَ حقيقيَّةٌ في الخريف
تخيَّلْ، ولو مَرَّةً، أَنَّكَ آمرأةٌ
لترى ما أَرى.
جسدي سيِّدي

والجفافُ على حاله: كُلَّما

جَفَّتِ الفكرةُ ازدهَرَتْ جوقةُ
المنشدين المريدين: ماء، وماء
فما حاجتي للنُبُوءةِ؟ إنَّ الملائكةَ
الطيِّبين ضيوفٌ على غيمة الحالمين.
وما حاجتي لكتابِكَ ما دام ما بكَ... بي؟
جَسَدي يَتَفَتَّحُ في جَسَدي

والجفافُ يودِّعُ سَبْعَ السنين العجاف
فلا بُدَّ من هُدْنَةٍ في المدينة،
لا بُدَّ من ماعز يَقْضِمُ العُشْبَ
من كُتُب البابليين أَو غيرهم،
كي تصير السماءُ حقيقيةً...
فأَضِيءْ عَتْمتي ودمي بنبيذكَ
وأسْكُنْ، معي، جسدي!

سوناتا [VI]

صُنَوْبَرَةٌ في يمينك. صَفْصَافَةٌ في شمالك. هذا
هُوَ الصيفِ: إحدى غزالاتك المائةِ استسلمت للندى
ونامت على كَتِفِي، قُرْبَ إحدى جهاتك، ماذا
لو انتبَهَ الذئبُ، واحترقتْ غابةٌ في المدى

نعاسُك أَقوى من الخوف. بريَّةٌ من جمالكِ
تغفو، ويصحو ليحرس أَشجارَها قمرٌ من ظلالك
ما ٱسمُ المكان الذي وَشمَتْهُ خُطَاكِ على الأرض
أَرضاً سماويَّة لسلام العَصَافير، قرب الصدى؟

وأَقوى من السيف نومُك بين ذراعيك مُنْسَابَتَيْنِ
كنهرينِ في جنَّة الحالمينَ بما تصنعينَ على الجانبين
بنفسِكِ محمولةً فوق نفسك. قد يحمل الذئبُ ناياً
ويبكي على ضفَّة النهر: ما لم يُؤَنَّثْ... سُدَى

قليلٌ من الضعف في الاستعارة يكفي غدا
لينضج توتُ السياج، وينكسِرَ السَيْفُ تحت الندى

رزق الطيور

رُزقتُ مع الخبز حُبَّكْ
ولا شأن لي بمصيريَ،
ما دام قُرْبَكْ
فخُذْهُ إلى أَيِّ معنى تريدُ
معي، أَو وحيداً
ولا بَيْتَ أَقرَبَ ممَّا أُحِسُّ به
هٰهُنا في الربيع السريع
على شجر الآخرين...

رُزِقْتُكَ أُماً، أَباً، صاحباً
وأَخاً للطريق، ولا تحمل الطَيْرُ
أكثرَ من وُسْعها: ريشَها والحنين
وحبَّةَ قمحٍ ضروريَّةً للغناء، فكن
في سمائي كما
أَنا في سمائك، أَو بعض ذلك،
كُنْ يا غريب المُوَشَّح لي. مثلما
أَنا لَكَ: مائي لمائك، ملحي
لملحك، وآسمي على آسمكَ تعويذةٌ
قد تُقَرِّبنا من تلال سَمَرقَنْدَ
في عصرها الذهبيِّ. فلا بُدَّ مني
ولا بُدَّ منك، ولا بُدَّ من آخرين
لنسمع أَبواق إخوتنا السابقين
وهم يمتطون ظهور الخيول، من الجانبين
ولا يرجعون. فكن يا غريبُ سلامَ

الغريبةِ في هُدْنَةِ المُتْعَبين
وكن حُلْمَ يقظتها، كُلَّما
أَلـمَّ بها قَمَرٌ عائدٌ من أَريحا، كما
تعود الإلٰهاتُ بعد الحروب إلى الحالمين
فكُلٌّ هُنَاكَ هنا. وأَنا
لا أُحبّ الرجوع إلى نجمتي
بعدما كبرت حكمتي، هاتِ
هات البعيد إلى خيمتي سُلّماً
لنصعد أَعلى كغُصْنَيْ بَتُولا على
حائط الآخرين [ونحن نصير غداً آخرين]
فلا بَيْتَ أَقرَبَ مما أُحسُّ به هٰهنا
وأَنا حاملٌ بالربيع السريع
رَزقت مع الخبز حُبَّكْ
ولا شأن لي بمصيرِيَ
ما دام قُرْبَكْ

ويا ليتني لم أُحبَّك
يا ليتني لم أُحبَّكْ!

رُبَّما، لأَن الشتاء تأخَّر

ـ ١ ـ

أَقَلُّ من الليل تحت المَطَرْ
حنينُ خُمَاسِيّةٍ
إلى أَمسها المُنْتَظَر،
وأكثرُ ممَّا تقولُ يَدٌ لِيَدٍ
على عَجَلٍ في مَهَبِّ السَفَرْ

- ٢ -

شِماليَّةٌ هٰذِهِ الريحُ
فليكتبِ العاطفيّون، أَهْلُ الكلامِ الجريح،

رسائلَ أُخرى إلى ما وراءَ الطبيعةِ
أَمَّا أَنا
فَسَأَرْمي بنفسيْ إِلى الريح.../

ـ ٣ ـ

لا لَيْلَ عِنْدَكِ، إذ تَدْلِفينَ
إلى الليل وَحْدَكِ. أَنتِ هُنا
تَكْسِرينَ بنظرتِكِ الوَقْتَ. أَنتِ
هنا في مكانك بعدي وبعدك
لا أَنْتِ تنتظرين، ولا أَحَدٌ يَنْتَظِرْ

- ٤ -

لَعَلَّ خياليَ أَوضحُ من واقعي
والرياحُ شماليَّةٌ. لن أُحبَّكِ أَكْثَرَ
إنْ لم تكوني معي
هنا، الآن ما بين أَيْقُونَتَيْنِ
وجيتارةٍ فَتَحَتْ جُرْحَها للقَمَرْ

- ٥ -

أَنا والمسيحُ على حالنا:
يَمُوتُ ويحيا، وفي نَفْسِهِ مريمُ
وأَحيا، وأَحْلُمُ ثانيةً أَنني أَحلُمُ
ولكنَّ حُلْمي سريعٌ كبرقيَّةٍ
تُذَكِّرُني بالأُخُوَّةِ بين السماوات والأرض.../

- ٦ -

مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ،
يصيرُ الحصى لُغَةً أَو صدى
والعواطفُ في مُتَنَاوَلِ كُلِّ يَدٍ.
ربما كان هذا الحنينُ طريقَتَنا في البقاء
ورائحة العُشْب بعد المَطَرْ

- ٧ -

بلا غايةٍ، وَضَعَتْنَا السماءُ
على الأرض إِلْفَيْن مؤتلفين وبآسمين مُخْتَلِفَيْنِ،
فلا آسميَ كان يُزَيِّنُ خاتَمَكِ الذهبيَّ
ولا آسْمُكِ كان يَرِنُّ
كقافيةٍ في كتاب الأَساطير.../

- ٨ -

أَمثالُنا لا يموتون حُبّاً،
ولو مَرَّةً، في الغناء الحديث الخفيف
ولا يقفون، وحِيدِين، فوق الرصيف
لأنَّ القطاراتِ أكثرُ من عَدَد المُفْرَدَات
وفي وُسْعنا دائماً أَن نُعِيدَ النظَرْ

ـ ٩ ـ

وأَمثالُنا لا يعودون إلَّا
لِيَسْتَحْسِنُوا وَقْعَ أَقدامهم
على أَرض أَحلامهم،
أَو ليعتذروا للطفولة عن حِكْمَةٍ
بلغوها على حافة البئر.../

- ١٠ -

بي مثلُ ما بِكِ من وَحَم الليلِ
يصرُخُ شَخْصٌ: «أَنا آمرأتي
في المنام. وتصرخ أُنثى: «أنا رَجُلي»
أَيُّنا أَنتَ. أنتِ؟ نَضِيقُ

نَضِيقُ، ويتَّسِعُ المُنْحَدَرْ.../

- ١١ -

أَضُمُّكِ، حتى أَعود إلى عَدَمي
زائراً زائلاً. لا حياةَ ولا
موتَ في ما أُحِسُّ بِهِ
طائراً عابراً ما وراء الطبيعةِ
حين أَضُمُّكِ.../

- ١٢ -

ماذا سنفعلُ بالحُبِّ؟ قُلْتِ
ونحن ندسُّ ملابسنا في الحقائبِ
نأخذُهُ مَعَنا، أَمْ نُعَلِّقُهُ في الخزانةِ؟
قلتُ: ليَذْهَبْ إلى حيثُ شاءَ
فقد شبَّ عن طَوْقنا، وانتشرْ

- ١٣ -

هَشَاشَتُنا لُؤْلُؤُ الخاسرين
وأَمثالنا لا يزورون حاضِرَهُمْ أَبداً
لا يريدون أَن يبلغوا بلداً
في الطريق إلى الريح، حيث وُلدنا
على دفعتين: أَنا وجمالُك.../

- ١٤ -

قرْبَ حياتي نَبَتٌّ كإحدى
حدائقِ قَيْصَرَ. كَمْ تَرَكَ الأَقوياءُ
لنا شجراً. كَمْ قطفتُ زنابقَ
سريَّةً من سياجك. كَمْ كنتِ
معنى وصورتَه في أعالي الشَجَرْ

- ١٥ -

أَضمُّكِ، بيضاءَ سمراءَ، حتى التلاشي
أُبَعْثِرُ لَيْلَكِ. ثمَّ أُلُمُّكِ كُلَّكِ...
لا شيءَ فيك يزيدُ وينقُصُ عن
جَسَدي. أَنت أُمُّك وابنتُها
تُولَدِين كما تطلبين من الله.../

- ١٦ -

ماذا سنصنع بالأمس؟ قُلتِ
ونحن نُهيل الضباب على غدنا
والفُنُونُ الحديثةُ ترمي البعيدَ إلى
سلَّة المهملات. سيتبعُنا الأمْسُ،
قلتُ، كما يتبع النَهَوَنْدُ الوَتَرْ

- ١٧ -

على الجسر، قُرْب حياتِكِ، عشتُ
كما عاش عازفُ جيتارةٍ قرب نجمته.
غنِّ لي مائةً من أَناشيد حُبِّكَ تَدْخُلْ
حياتي! فغنَّى عن الحبِّ تسعاً
وتسعين أُغنيَّةً، وانتحرْ

- ١٨ -

يمرُّ الزمانُ بنا، أَو نمرُّ به
كضيوفٍ على حنطة الله
في حاضرٍ سابقٍ، حاضر لاحق،
هكذا هكذا نحن في حاجة للخرافة
كي نتحمَّلَ عبءَ المسافة ما بَيْن بابين.../

- ١٩ -

منفىً سخيٌّ على حافَّةِ الأرض
لَوْ لم تكوني هُنَاكَ لَمَا
أَنشأَ الغُرَباءُ القلاعَ وشاعَ التصوُّفُ،
لو لم تكوني هنا لاكتَفيْتُ بما
يصنعُ النهرُ بي... وبوجه الحَجَرْ

- ٢٠ -

ويكفي، لأَعرفَ نفسيْ البعيدةَ، أَن
تُرْجِعِي لِيَ بَرْقَ القصيدةِ حين انقسمتُ
إلى آثنين في جَسَدِكْ
أَنا لَكِ مِثْلُ يَدِكْ
فما حاجتي لغدي
بعد هذا السفر؟

من أنا، دون منفى؟

غريبٌ على ضفة النهر، كالنهر ... يَرْبِطُني
باسمك الماءُ. لا شيءَ يُرْجعُني من بعيدي
إلى نخلتي: لا السلامُ ولا الحربُ. لا
شيء يُدْخِلُني في كتاب الأَناجيلِ. لا
شيء... لا شيء يُومِضُ من ساحل الجَزْر
والمدّ ما بين دجْلَةَ والنيلِ. لا
شيء يُنْزِلُني من مراكب فرعون. لا
شيء يَحْملني أو يُحَمِّلني فكرةً: لا الحنينُ
ولا الوَعْدُ. ماذا سأفعل؟ ماذا

سأفعل من دون منفى، وليلٍ طويلٍ
يُحَدِّقُ في الماء؟

يربطُني
بآسمكِ
الماءُ ...
لا شيء يأخذني من فراشات حُلْمي
إلى واقعي: لا الترابُ ولا النارُ. ماذا
سأفعل من دون وَرْدِ سَمَرْقَنْدَ؟ ماذا
سأفعل في ساحةٍ تصقُلُ المُنْشدين بأحجارها
القمريّةِ؟ صِرْنا خَفِيفَيْنِ مثلَ منازلنا
في الرياح البعيدةِ. صرنا صَدِيقَيْنِ للكائنات
الغريبةِ بين الغيوم... وصرنا طَلِيقَيْنِ من
جاذبيّة أرْضِ الهُويّةِ. ماذا سنفعل... ماذا
سنفعل من دون منفى، وليلٍ طويلٍ

يُحَدِّقُ في الماء؟

يربطني
بآسمك
الماءُ ...
لم يبقَ منِّي سواكِ، ولم يبق منك
سوايَ غريباً يُمَسِّدُ فَخْذَ غريبتِهِ: يا
غريبةُ! ماذا سنصنع في ما تبقَّى لنا
من هُدُوءٍ... وقَيْلُولَةٍ بين أسطورتين؟
ولا شيء يحمِلُنا: لا الطريقُ ولا البيتُ.
هل كان هذا الطريق كما هُوَ، منذ البداية،
أَم أَنَّ أَحلامنا وَجَدَتْ فرساً من خيول
المَغُول على التلِّ فآسْتَبْدَلَتْنا؟
وماذ سنفعلُ؟
ماذا
سنفعلُ

من
دون
منفى؟

أنا، وجميلُ بُثَيْنة

كَبِرْنا، أَنا وجميلُ بُثَيْنَةَ، كُلٌّ
على حِدَةٍ، في زمانين مُخْتَلِفَينْ...
هُوَ الوقْتُ يفعل ما تفعل الشمسُ
والريحُ: يَصْقُلُنا ثم يقتلُنا حينما
يحملُ العقلُ عاطفةَ القلبِ، أَو
عندما يبلُغُ القلبُ حكمتَهُ

يا جميلُ! أَتكبَرُ مِثْلَكَ، مثلي،
بثينةُ؟

تكبَرُ، يا صاحبي، خارجَ القلب
في نَظَر الآخرين. وفي داخلي تستحمُّ
الغزالةُ في نبعها المتدفّق من ذاتها

هِيَ، أَم تلك صُورَتُها؟

إنها هِيَ يا صاحبي. دَمُها، لحمُها،
وآسمُها. لا زمان لها. رُبّما استَوْقَفَتْني
غداً في الطريق إلى أَمسها

هل أَحبَّتْكَ؟ أَم أَعْجَبَتْها استعارتُها
في أَغانيك، لؤلؤةً كُلَّما حدَّقتْ في
لياليكَ وآغرورقتْ ... أَشرقَتْ قمراً قلبُهُ
حَجَر يا جميل؟

هو الحُبُّ، يا صاحبي، موتُنا المُنْتَقَى
عابرٌ يَتَزَوَّجُ من عابرٍ مُطْلقاً ...
لا نهايةَ لي، لا بدايةَ لي. لا
بُثَيْنَةُ لي أَو أَنا لبثينةَ. هٰذا
هو الحبُّ، يا صاحبي. ليتني كُنْتُ
أَصغرَ منِّي بعشرين باباً لكان
الهواءُ خفيفاً عليَّ، وصورتُها الجانبيَّةُ
في الليل أَوضحَ من شامةٍ فوق
سُرَّتها...

هل هَمَمْتَ بها، يا جميل، على عكس
ما قال عنك الرُواةُ، وهَمَّتْ بكَ؟

تزوَّجتُها. وهَزَزْنا السماءَ فسالَتْ
حليباً على خُبْزِنا. كُلَّما جئتُها فَتَّحَتْ

جَسَدي زهرةً زهرةً، وأَراق غدي
خمرَهُ قطرةً قطرةً في أَباريقها

هل خُلِقْتَ لها، يا جميل،
وتبقى لها؟

أُمِتُ وعُلِّمْتُ. لا شأنَ لي
بوجودي المُراقِ كماءٍ على جلدها
العِنَبيّ. ولا شأنَ لي بالخلود
الذي سوف يتبعُنا ككلاب الرعاة.
فما أَنا إلاَّ كما خَلَقَتْني بُثَيْنَةُ

هل تشرَحُ الحُبَّ لي، يا جميلُ،
لأَحفظَهُ فكرةً فكرةً؟

أَعْرَفُ الناس بالحُبِّ أكثرُهُمْ حَيْرَةً،
فاحترِقْ، لا لتعرف نفسك، لكن
لتُشْعِلَ لَيْلَ بُثَيْنَةَ ...

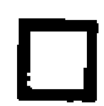
أَعلى من الليل، طار جميل
وكسَّر عُكَّازتَيْه. ومال على أُذُني
هامساً: إن رأيت بثينةَ في آمرأةٍ
غيرها، فاجعل الموت، يا صاحبي،
صاحباً. وتلألأ هنالك، في آسم
بثينة، كالنون في القافيةْ!

قناع ... لمجنون ليلى

وجدتُ قناعاً، فأعجَبَني أَنْ
أكون أَنا آخَري. كنتُ دُونَ
الثلاثين، أَحْسَبُ أَنَّ حدودَ
الوجود هِيَ الكلماتُ. وكنتُ
مريضاً بليلى كأيِّ فتىً شَعَّ
في دَمِهِ الملحُ. إنْ لم تكُنْ هِيَ
موجودةً جسداً فلها صُورَةُ الروح
في كُلِّ شيء. تُقَرِّبُني من
مدار الكواكب. تُبْعِدُني عن حياتي

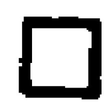
على الأرض. لا هِيَ مَوْتٌ ولا
هي ليْلى. «أَنا هُوَ أَنتِ،
فلا بُدَّ من عَدَمٍ أزرقٍ للعناق
النهائيِّ». عَاجلني النهرُ حين
قذفتُ بنفسي إلى النهر مُنْتَحِراً،
ثم أَرجعني رَجُلٌ عابر، فسألتُ:
لماذا تُعيد إليَّ الهواء وتجعلُ
موتيَ أطولَ؟ قال: لتعرف
نفسك أَفضَلَ... مَنْ أَنتَ؟
قلتُ: أَنا قَيْسُ ليلى، وأَنتَ؟
فقال: أَنا زوجُها

ومَشَيْنا معاً في أَزقَّةِ غرناطةٍ،
نَتَذَكَّرُ أَيَّامَنا في الخليج... بلا أَلَمٍ
نتذكَّر أَيَّامنا في الخليج البعيد.



أَنا قَيْسُ ليلى
غريبٌ عن آسمي وعن زمني
لا أَهزُّ الغيابَ كجذع النخيل
لأَدفع عني الخسارةَ، أَو استعيدَ
الهواء على أَرض نَجْدٍ. ولكنني،
والبعيدُ على حالِهِ وعلى كاهلي،
صوتُ ليلى إلى قلبها
فلتكن للغزالة بريَّةٌ
غيرُ دربي إلى غَيْبها
هل أُضيِّقُ صحراءها أم أَوسِّعُ لَيْلِي
لتجمعنا نجمتان على دربها؟
لا أَرى في طريقي إلى حُبِّها
غيرَ أَمسِ يُسَلِّي بشِعري القديمِ
نُعَاسَ القوافل في ليلها، ويُضيءُ
طريقَ الحريرِ بجرحي القديم

لعلَّ التجارةَ في حاجةٍ هِيَ أَيضاً
لما أَنا فيه. أَنا من أولئك،
ممَّنْ يموتون حين يُحبُّونَ. لا شيءَ
أَبعدُ من فَرَسي عن معلَّقة الجاهليِّ
ولا شيءَ أَبعدُ من لُغَتي عن أمير
دِمَشْقَ. أَنا أَوَّلُ الخاسرين. أنا
آخرُ الحالمين وعَبْدُ البعيد. أَنا
كائنٌ لم يكن. وأَنا فكرةٌ للقصيدةِ
ليس لها بَلَدٌ أَو جَسَدْ
وليس لها والدٌ أَو وَلَدْ.



أَنا قيس ليلى، أنا
وأَنا ... لا أَحَدْ!

درس من كاما سوطرا

بكأس الشراب المرصَّع باللازوردِ
آنتظرها،
على بركة الماء حول المساء وزَهْر الكُولُونيا
آنتظرها،
بصبر الحصان المُعَدّ لمُنْحَدرات الجبالِ
آنتظرها،
بذَوْقِ الأمير الرفيع البديع
آنتظرها،
بسبعِ وسائدَ مَحْشُوَّةٍ بالسحابِ الخفيفِ

آنتظرها
بنار البَخُور النسائيِّ ملءَ المكانِ
آنتظرها،
برائحة الصَنْدَلِ الذَكَريَّةِ حول ظُهُور الخيولِ
آنتظرها،
ولا تتعجَّلْ، فإن أقبلَتْ بعد موعدها
فانتظرها،
وإن أقبلتْ قبل موعدها
فانتظرها،
ولا تُجْفِل الطيرَ فوق جدائلها
وانتظرها،
لتجلس مرتاحةً كالحديقة في أَوْج زِينَتِها
وانتظرها،
لكي تتنفَّسَ هذا الهواء الغريبَ على قلبها
وانتظرها،

لترفع عن ساقها ثَوْبَها غيمةً غيمةً
وانتظرها،
وخُذْها إلى شرفة لترى قمراً غارقاً في الحليبِ
انتظرها،
وقدِّمْ لها الماءَ، قبل النبيذِ، ولا
تتطلَّعْ إلى تَوْأَمَيْ حَجَلٍ نائمين على صدرها
وانتظرها،
ومُسَّ على مَهَل يَدَها عندما
تَضَعُ الكأسَ فوق الرخامِ
كأنَّكَ تحملُ عنها الندى
وانتظرها،
تحدَّثْ إليها كما يتحدَّثُ نايٌ
إلى وَتَرٍ خائفٍ في الكمانِ
كأنكما شاهدانِ على ما يُعِدُّ غَدٌ لكما
وانتظرها

ولَمِّع لها لَيْلَها خاتماً خاتماً
وانتظرها
إلى أَن يقولَ لَكَ الليلُ:
لم يَبْقَ غيركُما في الوجودِ
فخُذْها، بِرِفْقٍ، إلى موتكَ المُشْتَهى
وانتظرها!...

طوقُ الحمامة الدمشقيّ

أ.

في دِمَشْقَ،
تطيرُ الحماماتُ
خَلْفَ سِياجِ الحريرِ
اْثْنَتَيْنِ ...
اْثْنَتَيْن ...

ب.

في دِمَشْقَ:
أَرى لُغَتي كُلَّها
على حبَّة القَمْحِ مكتوبةً
بإبرة أُنثى،
يُنَقِّحُها حَجَلُ الرافِدَيْن

ت.

في دِمَشْقَ:
تُطَرَّزُ أَسماءُ خَيْلِ العَرَبْ،
مِنَ الجاهليَّةِ
حتى القيامةِ،
أَو بَعْدها،
... بخُيُوطِ الذَهَبْ

ث.

في دِمَشْقَ:

تسيرُ السماءُ
على الطُرُقات القديمةِ
حافيةً، حافيةْ
فما حاجةُ الشُعَراءِ
إلى الوَحْيِ
والوَزْنِ
والقافِيَةْ؟

ج·

في دمَشْقَ:

يناMُ الغريبُ
على ظلّه واقفاً
مثل مِئْذَنَةٍ في سرير الأَبد
لا يَحنُّ إلى بَلدٍ
أَو أَحَدْ ...

ح.

في دمَشْقَ:

يُواصِلُ فِعْلُ المُضَارِع

أَشغالَهُ الأُمويَّةَ:

نمشي إلى غَدِنا واثِقِينَ

من الشمس في أَمسنا.

نحن والأَبديَّةُ،

سُكَّانُ هذا البَلَدْ!

خ.

في دِمَشْقَ:

تَدُورُ الحوارات

بين الكَمَنْجَةِ والعُود

حَوْلَ سؤال الوجودِ

وحول النهاياتِ:

مَنْ قَتَلَتْ عاشقاً مارقاً

فَلَهَا سِدْرَةُ المنتهى!

د.

في دِمَشْقَ:
يُقَطِّعُ يوسُفُ،
بالنايَ،
أَضْلُعَهُ
لا لشيءٍ،
سوى أَنَّهُ
لم يَجِدْ قلبَهُ مَعَهُ

ذ.

في دِمَشْقَ:

يَعُودُ الكلامُ إلى أَصلِهِ،

آلماءِ:

لا الشِعْرُ شِعْرٌ

ولا النَثْرُ نَثْرٌ

وأَنتِ تقولين: لن أَدَعَكْ

فخُذْني اليكَ

وخُذْني مَعَكْ!

ر.

في دِمَشْقَ:

ينامُ غزالٌ

إلى جانب آمرأةٍ

في سرير الندى

فتخلَعُ فُسْتَانَها

وتُغَطّي بِهِ بَرَدَى!

ز.

في دِمَشْقَ:

تُنَقِّرُ عُصْفُورَةٌ

ما تركتُ من القمحِ

فوق يدي

وتتركُ لي حَبَّةً

لتُريني غداً

غَدِي!

س.

في دِمَشْقَ:

تدَاعِبُني الياسمينةُ:

لا تَبْتَعِدْ

وأُمشِ في أَثَري

فَتَغارُ الحديقةُ:

لا تقتربْ

من دَمِ الليل في قَمَري

ش.

في دِمَشْقَ:
أُسامِرُ حُلْمي الخفيفَ
على زَهْرة اللوزِ يضحَكُ:
كُنْ واقعياً
لأُزْهرَ ثانيةً
حول ماءِ آسمها
وكُنْ واقعيّاً
لأُعبر في حُلْمها!

ص.

في دِمَشْقَ:

أُعرِّفُ نفسي

على نفسها:

هٰهنا، تحت عَيْنَيْن لوزيَّتَيْن

نطيرُ معاً تَوْأَمَيْن

ونُرْجىء ماضِينَا المشتركْ

ض.

في دِمَشْقَ:

يرقُّ الكلامُ

فأسمع صَوْتَ دَمٍ

في عُرُوق الرخام:

آخْتَطِفْني مِنَ آبني

تقولُ السجينةُ لي

أَو تحجَّرْ معي!

ط.

في دِمَشْقَ:
أَعدُّ ضُلُوعي
وأُرْجِعُ قلبي إلى خَبَبِهْ
لعلَّ التي أَدْخَلَتْني
إلى ظِلِّها
قَتَلَتْني،
ولم أَنْتَبِهْ ...

ظ.

في دِمَشْقَ:
تُعيدُ الغريبةُ هَوْدَجَها
إلى القافِلَةْ:
لن أَعودَ إلى خيمتي
لن أُعلِّقَ جيتارتي،
بَعْدَ هذا المساءِ،
على تينة العائلةْ ...

ع·

في دِمَشْقَ:

تَشِفُّ القصائدُ

لا هِيَ حِسِّيَّةٌ

ولا هِيَ ذهْنيَّةٌ

إنَّها ما يقولُ الصدى

للصدى...

غ.

في دِمَشْقَ:
تجفُّ السحابةُ عصراً،
فتحفُرُ بئراً
لصيف المحبِّينَ في سَفْح قاسْيُون،
والنايُ يُكْملُ عاداته
في الحنين إلى ما هُوَ الآن فيه،
ويبكي سدى

ف.

في دِمَشْقَ:
أُدوِّنُ في دَفْتَرِ آمرأةٍ:
كُلُّ ما فيكِ
من نَرْجسٍ
يَشْتَهِيكِ
ولا سُورَ، حَوْلَكِ، يحميكِ
مِنْ ليل فِتْنَتِكِ الزائدةْ

ق.

في دِمَشْقَ:

أَرى كيف ينقُصُ ليلُ دِمَشْقَ
رويداً رويداً
وكيف تزيدُ إلٰهاتُنا
واحدةً!

ك.

في دِمَشْقَ:

يغني المسافر في سرِّه:
لا أَعودُ من الشام
حياً
ولا ميتاً
بل سحاباً
يخفِّفُ عبءَ الفراشة
عن روحِيَ الشاردةْ

صدر للشاعر

- أوراق الزيتون
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حبيبتي تنهض من نومها
- العصافير تموت في الجليل
- أُحبك، أو لا أُحبك
- محاولة رقم ٧
- تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق
- أعراس
- مديح الظل العالي
- حصار لمدائح البحر
- هي أُغنية، هي أُغنية
- ورد أَقل

- مأساة النرجس، ملهاة الفضة
- أرى ما أريد
- أحد عشر كوكباً
- ديوان محمود درويش (جزآن)

وعن
«رياض الريّس للكتب والنشر»

لا تعتذر عما فعلت

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٤

لماذا تركت الحصان وحيداً

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥

الطبعة الثالثة شباط/ فبراير ٢٠٠١

سرير الغريبة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠٠

جدارية

الطبعة الأولى حزيران/ يونيو ٢٠٠٠

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠١

حالة حصار

الطبعة الأولى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢

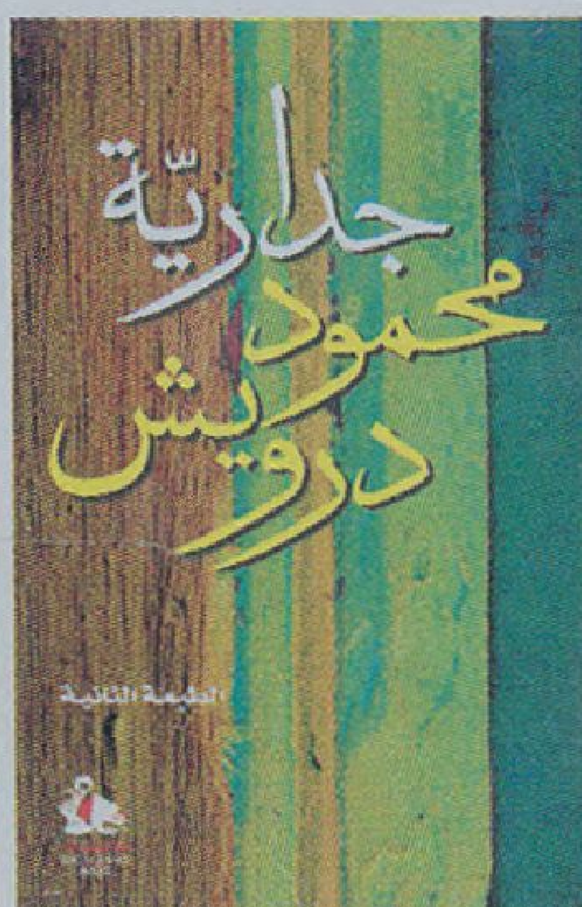
الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ٢٠٠٢

الأعمال الجديدة

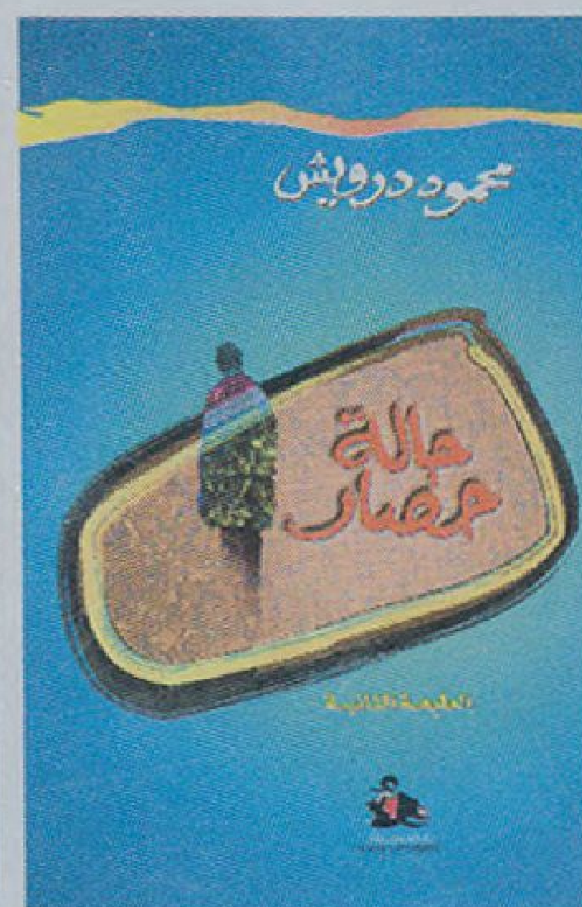


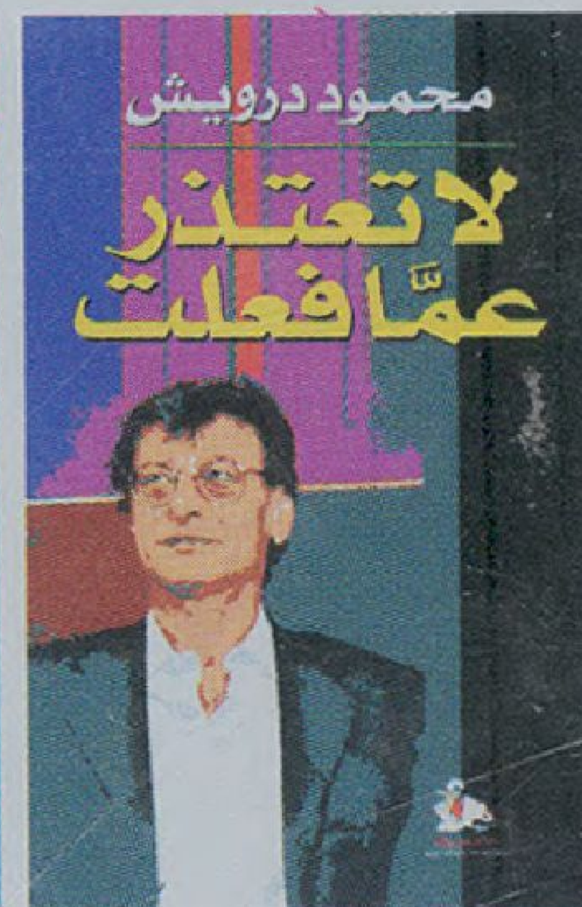
محمود درويش














رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-158-2

